الثقافة الجديدة

فكر علمي- ثقافة تقدمية

تأسست عام 1953

رئيس التحرير: صالح ياسر

مجلس التحرير

صادق البلادي حيدر سعيد

رائد فهمي زهير الجزائري

سامي خالد سعدي يوسف

عزيز سباهي كامل شياع

الفريد سمعان هادي محمود

مهدي محمد علي

المواد المنشورة تعبّر عن آراء اصحابها

344-343

اغلق تحرير العدد في 23 أيار **2011**

السعر :2000 دينار

الاشتراك السنوي : (6أعداد) : 50 دولار أو ما يعادلها و 100 دولار للمؤسسات.
ايميل رئيس هيئة التحرير:
thakafajadida@hotmail.com
ايميل سكرتارية هيئة التحرير :
thakafajadida4u@gmail.com
عنوان الموقع على شبكة الانترنت :
http://www.althakafaaljadeda.com
عنوان المجلة : بغداد – شارع ابو نؤاس، والرجاء إرسال المطبوعات الجديدة على هذا العنوان.
رقم الايداع في المكتبة الوطنية :781
يمكن تحويل مبالغ الاشتراك على الحساب المصرفي للمجلة :

ALJADID
Lloyds TSB Bank plc
Sort Code 30-93-89
Account No: 1871659
UK

ترجو هيئة التحرير المساهمين في المجلة مراعاة ما يأتي في ما يرسلون للنشر:
*أن تكون المقالة مستوفية لشروط النشر من حيث وضوح التعبير وسلامة اللغة.
* ألا يتجاوز حجم المادة 4000 كلمة.
* ان تكون المادة معدة أصلا للمجلة، لذا نعتذر عن نشر أية مادة تكون قد نشرت قبل ذلك في أماكن أخرى.
* يفضل ان تكون المادة مطبوعة على الكومبيوتر ومرسلة عبر البريد الألكتروني أو على قرص مدمج. أما المكتوبة باليد فنرجو إرسال نسختها الأصلية. وارتباطاً بالتغيرات التي اعتمدتها هيئة التحرير، فيما يتعلق بالتصميم الداخلي، نرجو ان ترسل مع المقال أو الدراسة نبذة مختصرة عن حياة الكاتب أو الكاتبة بحدود 50 كلمة إضافة الى صورة شخصية لنشرها مع المقال أو الدراسة.
* لاتعاد المادة غير المرشحة للنشر، وتتولى المجلة إعلام صاحبها بذلك.
* بالنسبة للمادة المرسلة عبر البريد الألكتروني، تلتزم المجلة بإعلام كاتبها عن صلاحيتها للنشر وذلك خلال شهر واحد من تاريخ وصولها.
* للمجلة حق إعداد أو اختصار التعقيبات التي تردها.

دار الرواد المزدهرة للطباعة والنشر والاعلان

محتويات العدد

5- **كلمة العدد**

مقـــالات

8- دور الثقافة التقليدية والفكر المشوش في تلكؤ الإبداع.....محمد حمود إبراهيم
19-النخب المتنفذة في العراق وإعاقة البناء الديمقراطي.....فاخر جاسم
27-ظاهرة الاتجار بالبشر مع إشارة خاصة إلى العراق.....هاشم نعمة
38-القرار 688 فرصة للتغيير السلمي ضاعت.....صادق البلادي

ملف العدد: الاحتجاجات الشعبية ..الواقع.. الرهانات..الآفاق

45-ديمقراطية التظاهر والتظاهر بالديمقراطية.....عبد الجبار احمد عبد اللّه
49-الاحتجاجات الشعبية وبناء الشرعية الديمقراطية.....لطفي حاتم
56-قراءة متناثرة عن الانتفاضات الشعبية في المنطقة العربية.....حافظ علوان حمادي الدليمي
59-تصورات حول تطورات الوضع السياسي مع إشارة خاصة إلى الوضع في كردستان- كاوه محمود
67-الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية ..بعض الدروس والخلاصات.....صالح ياسر

حـــــوارات

77-(الثقافة الجديدة) تحاور الرفيق حميد مجيد موسى (أبو داود) سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حول الحراك الاجتماعي والاحتجاجات الشعبية الأخيرة التي شهدتها العديد من البلدان العربية.

طاولة مستديرة

101-السياسة المالية والسياسة النقدية ودورهما في عملية التنمية الاقتصادية في العراق.

نصوص قديمة

128-سجالات حول السياب .....علي جواد الطاهر و صفاء الحافظ

نصوص متـــرجمة

148-الوحدة في التنوع:اتيليو بورون .....ترجمة: رشيد غويلب

أدب وفـــن

156-الدكتور خلدون حسن النقيب .... وداعاً!.....(الثقافة الجديدة)
158- لقاء مع الفنان بدري حسون فريد.....قاسم حول

شعر:

165- السؤال.....قاسم حنون
167- إنسانُ جواهُ.....أحمد عبد الرحمن جنيدو
168- البلغاري الأخير.....علي حمدان الفالح

قصص قصيرة

170- الراقصة.....أحمد خلف
175- ثياب الأفعى.....سلام حربة
179- قصص كردية.....نزار محمد سعيد

دراسات:

184- تنامي البنية الجمالية في تكوينات الخط العربي.....جواد الزيدي
190- "فئران الاختبار" للكاتب ماجد الخطيب.....عبد الوهاب عبد الرحمن

المربد الثامن 2011:

195- تقرير عن المربد الثامن..... قاسم العزاوي
197- مقابلة مع الشاعر الدانيماركي (آيب ميكائيل).....عبد العزيز لازم

لوحـة الغلاف الاول: الفنان جبر علوان ، له العديد من المعارض الشخصية في داخل العراق وخارجه ويقيم الآن خارج العراق.

لوحـة الغلاف الاخير :الفنانة يمام سامي العتابي، لها العديد من المعارض الشخصية في داخل العراق وخارجه، وهي بارعة في الرسم المائي.

كلمة العدد

التيار الديمقراطي في العراق ..
بين محددات الواقع وإرهاصات المستقبل

بداية، لسنا بصدد نقاش يدور في غرف وثيرة ودافئة حول جدوى وأهمية التيار الديمقراطي في بلادنا، فهذه القضية أجاب عليها تاريخ نضال القوى والشخصيات المكونة للتيار المذكور وما قدمته من تضحيات مجيدة عبر تاريخ العراق المعاصر، و كما بينت الحاجة الملحة لوجود هذا التيار على الدوام رغم كل الظروف والصعوبات. ولكن القضية العملية التي تواجهنا اليوم هي قضية طرح نضال هذا التيار وقواه وشخصياته في الظروف الجديدة، حيث تتصاعد النضالات المطلبية وتتعاظم الحركة الاحتجاجية، الأمر الذي يتطلب **العمل الدؤوب** من **أجل تغيير** موازين القوى لصالح القوى الاجتماعية والسياسية الساعية الى إجراء قطيعة حقيقية مع نظام المحاصصات وليس إعادة إنتاجه بطبعات جديدة محسنة.

وفي ضوء هذا الحراك المجتمعي الواسع الذي نشهده اليوم، وأيضا ارتباطا بما شهدناه من ممارسات للسلطة التنفيذية ومؤسساتها منذ بداية عام ٢٠١١، خصوصا ما جرى تجاه المتظاهرين من استخدام مفرط للقوة وحملة اعتقالات وإهانة للمتظاهرين دلّل، دون ريب، على محاولات حثيثة من طرف بعض القوى المتنفذة لكسر التوازن بين المجتمع السياسي (الدولة) والمجتمع المدني، أي محاولة العودة مجددا الى **هيمنة** الدولة على المجتمع المدني، فإننا نواجه **سؤالا مهما** ذا شقين:

● **هل المطلوب بناء ديمقراطية معطوبة** من خلال إعادة هيكلة الحقل السياسي الراهن ولكن دون إجراء تغييرات جذرية فيه أي الإبقاء على نظام المحاصصة مع إجراء بعض الرتوش عليه ؟

● **أم بناء ديمقراطية حقيقية** تنطلق من تأسيس دولة مدنية ديمقراطية عصرية ؟

من المؤكد أن العراقيين والعراقيات، واستنادا الى تجاربهم المريرة مع النظم الاستبدادية والقمعية العديدة، يطمحون الى تحقيق ديمقراطية حقيقية وليست شكلية. والتاريخ المعاصر للعراق يقول لنا أن هيمنة الدولة على المجتمع المدني؛ تفضي في نهاية المطاف، الى الدكتاتورية.

هكذا إذن وضمن هذا الواقع المتشابك يسعى التيار الديمقراطي، باختلاف المرجعيات الفكرية والخلفيات السياسية لقواه وشخصياته، لأن **يتلمس** طريقه باحثا عن أشكال ملموسة للتعاون والعمل المشترك لمواجهة تحديات المرحلة الراهنة والبحث عن **مخارج** معقولة للازمة

البنيوية المتعددة الصُعد التي تمر بها بلادنا.

وبعيدا عن اشتراطات الواقع الحالي، بتناقضاته وقواه المحركة، فان التاريخ يطرح على قوى التيار الديمقراطي مهمة العمل على إحداث نقلة نوعية في نشاطه مما يجعل منه، قولا وفعلا، القوة النقيض لنظام المحاصصات بكل تلاوينه، تلك القوة التي بإمكانها خلق المناخات الحقيقية للتطلع نحو المستقبل الديمقراطي، وبالتالي بلورة مشروع مجتمعي بديل يزكيه التاريخ، وخطاب وممارسة تتيحان للتيار خوض نضال دؤوب، ومثابر، يقرب قواه وشخصياته من الجماهير والقوى الاجتماعية التي تعبر عن مصالحها وآمالها وتطلعاتها. وهنا نؤكد ايضا على الدور الذي ينبغي ان ينهض به المثقفون في استنهاض التيار الديمقراطي وزيادة فاعليته وتأثيره.

وإذ نؤكد على هذه القضايا فإننا معنيون أيضا بالتأشير على ضرورة الاستفادة من دروس السنين الثمان الأخيرة ومنها:

أولا- أن يعترف الجميع، بما فيهم صقور حروب الطوائف، أن **مشروع الدولة الحديثة**، الديموقراطية – العصرية، لا يزال مطروحا للتنفيذ باعتباره **المخرج الوحيد**، الممكن والمقبول، من الأزمة البنيوية الراهنة التي تواجهها بلادنا. وقد **دللّت** تجربة السنوات الماضية انه لا وجود لوحدة وطنية حقيقية وثابتة خارج مشروع الدولة الديمقراطية الحديثة. وللتدقيق فإن الدولة المقصودة بهذا المعنى، هي تلك الدولة التي لا تتقاسمها الطوائف بل هي دولة لمواطنين أحرار.

ثانيا- إن **المدخل الأساسي** لرفع المصالح الوطنية فوق الجميع، والمباشرة في بناء الدولة العصرية، الديمقراطية، هو ضرورة **بلورة آلية طويلة المدى لهدف بعيد**، تمكن من **تفكيك الطائفية السياسية**، وتنشئ الأرضية لتحقيق مشروع دولة القانون والحقوق والحريات الأساسية. ومن هنا فان الممارسة الديمقراطية، وسيادة القانون، من جهة، وتأصيل الثقافة الديمقراطية، من جهة ثانية، تتيح لهذا النضوج أن يسير بوتائر أسرع، من خلال **إخماد نظام المخاوف المتبادلة** بين الطوائف وما يرتبط به من حرائق ونزيف دم لا ينقطع.

الدرس الثالث- ثمة حاجة ملحة الى **ثقافة ديمقراطية حقيقية**، غير أن هذه غير متوافرة بالمعنى الحقيقي للكلمة اليوم ولكن لا بد من إنتاجها وتنميتها. فنحن نعيش في ظل " ديمقراطية " أقل ما يقال عنها أنها ليست ديمقراطية مواطنين أحرار. ولهذا يبدو أن **التحدي الأكبر** اليوم هو في **تجميع** " **القوى العابرة للطوائف** "، حول العناوين الكبرى والأساسية لبناء الدولة الديمقراطية العصرية، دولة المواطنين الأحرار المتحررين من أية هيمنة طائفية أو قومية أو عرقية.

خلاصة القول، إن **تغيير ميزان القوى** لصالح الطبقات الشعبية والقوى المعنية بالتغيير الديمقراطي الحقيقي يستوجب اليوم انجاز مهمة تطوير وتنظيم وتوحيد الحركة المطلبية والاحتجاجية للجماهير الشعبية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى **توحيد القوى الديمقراطية** في إطار تيار ديمقراطي يمثل تيارا مجتمعيا ذا تعبيرات سياسية متنوعة يستهدف إقامة نظام ديمقراطي. ويفترض أن المؤتمر العام القادم لـ " قوى وشخصيات التيار الديمقراطي " سيوفر الأرضية والمرجعية وبلورة المشروع الذي سترتكن إليه في نضالها، بحيث يصبح –أي المؤتمر – محطة نوعية جديدة على طريق عملية بلورة التعبير السياسي للتيار الديمقراطي.

مقـــــالات

دور الثقافة التقليدية والفكر المشوش في تلكؤ الإبداع

لدى الإنسان في البلدان العربية

محمد حمود إبراهيم

محمد حمود إبراهيم، تدريسي وباحث في السوسيولوجيا و الانثربولوجيا- جامعة ذي قار، معاون مدير مركز أبحاث الأهوار في الجامعة المذكورة. لديه مجموعة من الدراسات والأبحاث العلمية المنشورة في مجلات علمية محكمة. كما له مشاركات في العديد من المؤتمرات والندوات وورش العمل خصوصا التي يتعلق منها بالثقافة والتعليم.

كثيرا ما يتبادر إلى أذهاننا سؤال نعتقد أن الإجابة عليه عسيرة أو غير واضحة،لماذا نحن كأمة وكأوطان عربية غير منتجين للإبداع؟ هل تتمحور الأسباب بالتاريخ ،الجغرافية،السياسة،...الخ؟ هل الشخصية العربية غير قادرة على الإبداع لذاتها؟ ولكننا نجد أن الكثير من المواطنين العرب عراقيين، مصريين، لبنانيين، سوريين ،مغاربيين وغيرهم، نجدهم مبدعين في أوربا أو الأمريكيتين.لماذا يستطيع الإنسان العربي أن يكون مبدعا عندما يترك بلاده ويهاجر إلى بلدان ديمقراطية تستثمر فيها طاقات الإنسان وتحترم حقوقه ويعامله النظام السياسي على انه قيمة عظمى في الحياة؟

يعتقد الباحث أن الثقافة المستنيرة بالعلم والفكر الحر في أية أمةٍ يلعبان الدور الأهم والمحوري في التقدم المادي والمعنوي للشعوب التي تعيش فيها، وسنبحث هنا الدور المعاكس الذي يلعبانه الثقافة التقليدية المتردية والفكر المشوش المتعلق بالماضي إلى حد الهوس،هذا الدور الخطير الذي ينتج أمه مستهلكة،مترددة،غير منتجة وغير مبدعة.

أولاً – الثقافة العربية

تعني الثقافة في نظر علماء الاجتماع جوانب الحياة الإنسانية التي يكتسبها الإنسان بالتعلم لا بالوراثة، حيث يشترك أعضاء المجتمع الواحد بعناصر الثقافة تلك التي تتيح لهم مجالات التعاون والتواصل،

وتمثل هذه العناصر السياق الذي يعيش فيه أفراد المجتمع . تتألف ثقافة المجتمع من جوانب مضمرة غير عيانية مثل (المعتقدات، والآراء، والقيم) التي تشكل المضمون الجوهري للثقافة، ومن جوانب عيانية ملموسة مثل (الأشياء، والرموز أو التقانة) التي تجسد هذا المضمون (1).

وتتشكل الثقافة من مجموعة معقدة تشتمل على المعرفة و العادات والتقاليد والأفكار والقيم والمعتقدات والفنون والأخلاق التي تميز مجتمع ما عن غيره من المجتمعات إلى حد ما والتي يكتسبها الإنسان من خلال عضويته في هذا المجتمع (2). فمنظومة الأفكار هي التي تحدد ما هو (مهم ومحبذ ومرغوب) في المجتمع. هذه الأفكار المجردة أو القيم هي التي تضفي معنى محدداً، وتعطي مؤشرات إرشادية لتوجيه تفاعل البشر . أما المعايير فهي قواعد السلوك التي تعكس أو تجسد القيم في ثقافة ما. وتعمل القيم والمعايير سويا في تشكيل الأسلوب الذي يتصرف به أفراد ثقافة ما إزاء ما يحيط بهم (3). وتتفاوت القيم والمعايير وتختلف اختلافا بينا من ثقافة إلى أخرى وقد تتناقض القيم في المجتمع أو الجماعة الواحدة.

تلعب الثقافة على هذا الأساس دورا مهما في الحفاظ على القيم والمعايير في أي مجتمع، وهذا بالطبع ينطبق على مجتمعنا العربي الكبير(موضوع الدراسة) والمجتمعات الفرعية فيه والمجتمعات الأكثر خصوصية وتمايزا عندما نقسم أو نصنف المجتمع الكبير إلى مجموعة من المجتمعات المكونة له. غير أن الثقافة تفسح المجال أيضا للابتكار والتغيير أو تقف معوقا دون ذلك. أن نظرة متفحصة للواقع الثقافي في الوطن العربي تساعدنا في مشاهدة ثقافة سائدة تغطي مساحات شاسعة من الجغرافية العربية تدعو إلى التعلق بالماضي والانصهار في بوتقته لأن فيه الخلاص. وبذلك فان هذا التيار وهو السائد يجعل من ثقافته صمام أمان للحفاظ على القيم والمعايير حتى لو كان بعضها غير فعال وغير مناسب. أن هذا الوضع يساعد الثقافات الفرعية والثقافات المضادة التي ترفض القيم والمعايير السائدة في المجتمع في إنتاج آراء واتجاهات بديلة للثقافة المهيمنة ، عملية الصراع بين التيارين هي التي تساعد التيار الثاني في تنشيط ذاته والقيام بعملية الإنتاج المشار إليها . لكن هل يحدث التأثير بصورة مباشرة؟ وهل تكون النتائج كبيرة ومؤثرة ؟ أن الواقع العربي وطوال الفترة الممتدة من بدايات القرن الماضي وحتى الآن لا تشير إلى أحداث تغيير جذري في الثقافة العربية، فعلى الرغم من كافة الصور التكنولوجية المستوردة التي يمتلكها المجتمع العربي إلا أن خط الثقافة المعنوي ظل يسير بخطوات بطيئة ومتعثرة على الدوام.

وفي الحقيقة فإن الثقافة تشكل نمطا واحدا من أنماط البناء الاجتماعي الأخرى (الاقتصادي والسياسي والقرابي والايكولوجي) وبالتالي فإننا لا نحمل الثقافة العربية المشكلة برمتها. إلا أننا لا نستطيع أن ننكر أن الثقافة تلعب دوراً واضحاً وبارزاً في تغيير الأنماط الأخرى ربما بقدر اكبر بكثير مما تفعله تلك الانماط بها، أذن فالتغيير يجب أن يبدأ في الثقافة. وإذا ما علمنا أن قنوات إيصال الثقافة للإنسان تمر عبر اطر رسمية وأخرى غير رسمية، الرسمية منها تتمثل بالمدرسة كوحدة رئيسة ممثلة بحقل التربية والتعليم، وقنوات غير

رسمية تلعب العائلة والجيرة والمجتمع المحلي والإعلام غير الرسمي أهم رموزها ، ندرك أن جميع هذه القنوات بشقيها الرسمي وغير الرسمي هي غير فاعلة أو فعاليتها بطيئة، أو فاعلة بالاتجاه السلبي المضاد. بالنسبة للقنوات غير الرسمية فأن مجتمعاتنا العربية (في المجمل) مع اختلاف وتباين في النسب. ظلت تعيش حالة اجترار ثقافي مزمن ناتج من" قدسية الماضي " وعدم جواز المساس به أو النيل منه بأية صورة من الصور . وبالتالي فأن هذا التراكم الذي يمتد إلى قرون ظل يكدس المضادات فوق مضاداتها وعلى العقل العربي أن يتقبلها جميعا في عملية هضم عسيرة للغاية. أما القنوات الرسمية المتمثلة بمؤسسات التربية والتعليم فأننا سوف لا نجد أية مشكلة في تحديد تلكئها وتعثر خطواتها بالمقارنة ليس مع المجتمعات المتقدمة فحسب بل وحتى مع المجتمعات المماثلة لظروفنا الاجتماعية والثقافية في العالم الثالث وهذا واضح من الارتفاع الفاحش في الأمية يقابله الارتفاع الكبير في السكان مع الانخفاض الشديد بالتخطيط لاستيعاب السكان ايكولوجيا واقتصادياً وثقافياً .. الخ . وسنحاول هنا تفكيك شفرة الثقافة العربية من خلال تفحص أهم مصادرها وهي كالآتي:

التعليم

وصلت نسبة الأميين في الوطن العربي إلى ما يقارب (70) مليون في عام2005 وأشار تقرير صدر عن المنظمة العربية للثقافة والعلوم إلى أن هذه النسبة تعادل ضعف المتوسط العالمي للامية. أن عدد الإناث في الرقم المخيف المشار إليه يقترب من ضعف عدد الذكور، ولقد احتلت مصر المرتبة الأولى بمجموع إجمالي وصل "17" مليون أمي في حين جاءت بعدها السودان ثم الجزائر فالمغرب فاليمن. في المقابل احتلت الترتب الأولى في نقص ألامية كل من الإمارات وقطر، ثم البحرين والكويت. و من المعلوم انه لا سبيل للمقارنة بين النتائج بحكم عدم تناسب الكثافة السكانية والموارد الاقتصادية بين المجموعتين الأولى والثانية. لقد ازدادت في نظرنا أهمية هذا المؤشر في النظريات الاجتماعية الجديدة في مجال التنمية، حيث أصبحت العناية تتجه لإبراز الأدوار الهامة التي تلعبها المعرفة في مجال التنمية الإنسانية الشاملة، كما أصبحت البنيات المعرفية وبنيات التنشئة الثقافية تشكل مداخل أساسية، في باب مقاربة كثير من الظواهر السلبية المهيمنة على المجتمعات المتخلفة. وتبرز أهمية هذا العمل في تركيزه على الإنسان كقيمة عليا في مجال التنمية والتقدم وأصبحت الموارد البشرية المؤهلة ، تشكل اليوم دعامة مركزية من دعامات الإقلاع الاقتصادي والاجتماعي (4) .

لقد تطور عدد ألامية في الوطن العربي من 49 مليون أمي وأمية في عام 1970 (منهم29 مليون من الإناث) إلى 68 مليون عام2000 (منهم44 مليون من الإناث). ولا يعود سبب استمرار ألامية لضعف جهود مكافحة ألامية أو عدم فاعلية برامجها فحسب. وإنما أيضا لعدم سد منابع ألامية في التعليم الأساسي الإلزامي. ومادامت معدلات التمدرس، على الأقل في المرحلة الابتدائية لم تصل إلى شمول كامل للأطفال في سن هذا التعليم (أي معدل تمدرس صاف يصل إلى (100%) بما يشمل حاجات التعليم الخاص للفئات غير القادرة على التعليم المضاد وهو أمر لم تصل إليه البلدان العربية ولا يبدو أنها ستصل إليه

بالأمد القريب، فأن تدفقات ألامية من الشباب المتسربين من المدارس ستتوالى. أن معرفة القراءة والكتابة في الوطن العربي لازالت حتى هذا اليوم لا تخص أكثر من61.3 % من السكان ذوي الأعمار (15 سنة فما فوق) في عام 1999 مقابل أو 73.1% في مجمل الدول النامية . إلا أن الرقم القياسي لتطور هذه النسبة بين 1985 و1999 بلغ في الدول العربية133 مقابل117 في الدول النامية مما يشير إلى أن هناك أيضا جهوداً عربية ايجابية وان لم تستطيع تلك الجهود ردم الفجوة الواسعة جداً بين العرب والعالم. (5) أن نظرة سريعة على جدول معدلات ألامية في العالم سوف يبين لنا مدى المأزق الذي تعيشه الثقافة العربية جراء تردي واقع التعليم لدينا وسوف يبين لنا كذلك مدى هزال أنظمتنا التربوية وسياساتنا في هذا المجال(6).

أن النسب المئوية التي يشير إليها

موارد اقتصادية ضخمة ومتنوعة. ويمكننا أن نجمل ابرز مظاهر تردي واقع التعليم في الوطن العربي بالحقائق التالية: – (7)

أ– اختلاف السياسات التربوية والتعليمية في الدول العربية وتعدد النظم والمناهج المعتمدة. مما يعزل كل دولة عربية عن شقيقاتها عزلاً يكاد يكون كاملاً، وفي ذلك إضعاف للروابط الثقافية والمعرفية بين هذه الدول وتقليل فرص الاستفادة المتبادلة من الخبرات والقدرات لتطوير التعليم وتجويده في إطار الجوامع الفكرية والحضارية .

ب – عدم مواكبة كثير من مناهج التعليم لتطورات العصر وتقنياته وتخلفها عن مجارات التطورات التي يشهدها حقل التعليم على الصعيد الدولي مما يعمق من الهوة الفاصلة بين التعليم في الوطن العربي والتعليم في العالم.

ت – ضعف مستوى عدد كبير من المعلمين. إذ أن أصحاب النسب الضعيفة من حملة الثانوية العامة هم الذين يوجهون نحو

جدول رقم (1) يمثل تطور معدلات ألامية في العالم(٪) .

المنطقة	الأعوام				
	1970	1980	1990	1995	2000
العربية	70,7	60	48,8	43,8	38,8
الدول النامية	51,9	41,8	32,6	29,6	26,3
الدول المتقدمة	5,7	3,4	1,9	1,4	1,1
العالم	37	30,6	24,7	22,7	20,6

الجدول أعلاه تعبر عن حقائق ذات طعم مر لاذع، إذ تبدو النتائج مخيبة للآمال حتى بالمقارنة مع الدول النامية والتي لا يمتلك قسم كبير منها ما تمتلكه الأقطار العربية من

كليات التربية وكليات أعداد المعلمين. وهؤلاء من نتاج النظام التعليمي السائد القائم على التلقين للاستظهار بدلاً من التعليم للتفكير والإبداع.

ث- عدم توفر البيئة المدرسية في العديد من الدول العربية على المتطلبات الأساس لإنجاح العملية التربوية، سواء تعلق ذلك بالمباني أو التجهيزات أو بقلة وانعدام فرص التعبير الحر عن الآراء يضاف إلى ذلك المركزية الشديدة في الإدارة. مما يؤثر تأثيراً سلبياً على العملية التعليمية ويحد من حرية المبادرة والتصرف والتفكير في استنباط الحلول للمشكلات القائمة على مستوى الإدارات التعليمية وعلى مستوى أسرة التعليم في المدارس وهيئات التدريس في المعاهد والكليات أيضا.

ج- تفشي ألامية بشكل كبير في العديد من الدول العربية وعدم قدرة تلك الدول على محوها بشكل فعال وشامل، على الرغم من الجهود المبذولة والأموال التي أنفقت في هذا المجال.

إننا ومن خلال ما تم الإشارة إليه حول واقع التعليم في الأقطار العربية ندرك مدى فشل سياسات التعليم في كثير من الأقطار العربية، وهو الأمر الذي يؤكد مطلب الإصلاح في مجالات التربية والتعليم المختلفة، إصلاح أنظمة التعليم والمعرفة، محاولة الاستفادة من المكاسب والمنجزات التي حققتها الأنظمة التربوية الجديدة، في مجال مقاربة الظواهر التعليمية في مختلف مستوياتها وأبعادها، وهي تساعدنا كذلك على تفسير كثير من مظاهر التقليد المنتشرة في عالمنا، سواء في المجال السياسي أو في مجال العقائد والأفكار، أو في مستوى انتشار آليات ورؤى الفهم الأسطوري للظواهر الطبيعية والإنسانية. ولا يمكن مواجهة كل ما سبق إلا بوضع مخططات في التنمية تعطي لعامل تعميم وتوسيع وتطوير المعرفة داخل المجتمعات العربية، دورا فاعلا في مشروع مواجهة ظواهر التطرف التي صنعت كثيرا من البؤس التاريخي المعمم في مجتمعاتنا (8). وتكشف كثيراً من ردود الفعل المنتشرة في مجتمعاتنا اليوم والتأثير الكبير الذي تمارسه ألامية على عقول شبابنا، فالتطرف والانقياد الأعمى (للشيوخ) الأموات منهم والأحياء وتغييب العقل وسيادة الوثوقية كلها معطيات لا يمكن التخلص منها الا بمزيد من نشر ألوية المعرفة في العالم

جدول رقم(2) يوضح أمثلة لمعدلات إنفاق الدول العربية على مراحل التعليم لديها وحسب احصائيات 2000-2001

الدول	معدل الانفاق				عدد الطلبة	
	التعليم الاولي	الابتدائي	الثانوي	اجمالي	الكلية	الخريجين
سوريا	%23.54	%22.91	%14.67		2,144,52	26,303
المغرب	%18.25	%28.76	%19.97	%5.19	5,369,063	
السعودية	%10.43	%11.99	%12.75	%9.27		
مصر	%24	%22.98	%16.95	%4.05		

*المصدر " ISECO " تقرير تحت عنوان واقع التعليم في الدول العربية. منشور عبر شبكة الانترنيت.

العربي. أن المعرفة هي قبل كل شيء، عملية تاريخية مركبة وهي الطريق الأسلم نحو العقل المنتج ، العقل الإجرائي المساعد على الابتكار والتجديد ، وهي ليست جملة من المعارف والحقائق المغلقة، بل هي طريق وأداة مساعدة على تطوير المنجزات والمكتسبات في أفق من التطور لا حدود له (9).

وإذا كان هذا الواقع المرير تمثله القناة الرئيسية والرسمية لإحداث التغيير الثقافي المنهج والمقصود. فما بالك بالقنوات غير الرسمية التي يتشرب منها الإنسان العربي ثقافته. لقد أجرى الباحث مسحا عشوائيا لعشرين مكتبة في العراق والأردن في عامي 2005، و 2006 شملت أربع مدن هي بغداد وعمان والنجف والبصرة وبواقع خمس مكتبات في كل مدينة وقد أظهرت النتائج أن الدين واللغة والتراث تسيطر على ما نسبته (65%) من مجموع بقية الموضوعات. أما نظرة سريعة على الإعلام العربي (الرسمي وغير الرسمي) والذي ناخذ القنوات التلفزيونية الفضائية مثالا له على اعتبار أنها المجال المشترك للمتلقي العربي (سامعاً ومشاهداً ومتفاعلاً ومشاركاً ومحاوراً)، ولنكن أكثر تحديدا فلنأخذ القنوات التلفزيونية التي تبث برامجها عبر قمر نايل سات، وسوف نجد أن هناك أكثر من 500 قناة جميعها تبث بإرادات عربية رسمية وغير رسمية والقليل منها (لا تتجاوز ثلاثين قناة) تمثل سياسات دول أجنبية لها مصالح في الوطن العربي كالولايات المتحدة وفرنسا وألمانيا وإيران وروسيا وانكلترا.

إن متوسط مشاهدة تلفزيونية يصل إلى عشر ساعات في اليوم لابد وان يكون فاعلا ومؤثرا في قولبة السلوك العربي ضمن بوتقة ثقافية تلعب إلى جانب بوتقة التعليم والقراءات الحرة دوراً مميزاً وواضحاً في عملية التغيير الثقافي. إلا إننا سوف نجد الافتقار الشديد للثقافة الحرة والمتحررة التي يجب أن تشارك هذه القنوات التلفزيونية في بنائها داخل الشخصية العربية. فما عدا قنوات قليلة جدا تهتم بموضوعات الوعي والثقافة العامة والبيئة والتعليم الأكاديمي، فأننا نجد أن النسبة العظمى من برامج القنوات البقية تكون إما برامج سياسية وفكرية ودينية متضادة ومتناقضة تزيد من سعة الفجوة بين العربي والعربي، أو قنوات تبث الدراما و الغناء والرقص والشعر البدوي على مدى 24 ساعة في اليوم. وبذلك فأن هذا الجانب هو الآخر مشلول أو أعرج ولا يستطيع أن يصنع ثقافة متحررة يمكن أن تحدث تغييراً حقيقياً في قناعات الإنسان العربي وتدفعه إلى الإبداع والإنتاج المميز.

لازلنا في حقبة انتقالية بين العهد العثماني وعصر النهضة، عناصر التجربتين ماثلة في تراثنا الثقافي الراهن. مازالت الهموم العميقة، عند المثقف العربي. هي هموم (دينية –أكاديمية) و (أدبية – أكاديمية). أي انه مافتئ يعيش، على صعيد مخاضه الفكري، في مرحلة الرد الدفاعي عن مواقعه. يذهب إلى الدراسات الأكاديمية وفي طوية نفسه حساب قديم لم يتخلص منه بعد، بينه وبين نفسه، هو حساب ارثه الثقافي، وبشكل واع يتجه غالباً نحو اختيار الموضوعات التي ترتاح نفسه إليها. أن من ثوابت البنى التقليدية، على امتداد العالم العربي، ارتباطها بنظام من القيم والمعاني، المتمثل في الفكر الديني، وبنظام من التصورات والأفكار والتجارب، رديف له، يتمثل في الثقافة الأدبية. ويمثل النظام

الاقتصادي، الذي يجب أن يكون تقليدياً أيضا، القاعدة الثالثة لهذه الطاولة لكي تتساوى الأمور وتثبت المعادلة. أن التجربة السياسية المريرة التي عاشها العرب تحت الحكم العثماني جعلت المثقفين العرب يعتقدون أن تصنيف الناس يتم على صعيد تصنيف الملل، ولكثرة ما أوغل في ذلك الوقت رجال الدين في تلافيف عقول الناس، ترسخت فكرة مفادها أن في إطار الدين، عند أهل كل الطوائف والأديان المعروفة عند العرب، تكمن الأجوبة الصحيحة لمشاكل البشر. وهكذا نشأ هذا الموقف الدفاعي الذي يميز المثقف العربي، أياً كان دينه حيث يرد مباشرة على تحدي الزمن الحاضر. زمن العلم والتكنولوجيا. باللجوء إلى أحضان أمه البنية التقليدية، سائلاً اياها عن أجوبة لمشاكله. والأم الحنون سرعان ما ترضعه عدداً من الأجوبة، يطمئن إليها قلبه فينام (10) أما الثقافة الأدبية فهي في موقع مماثل، حيث أنها خزان التراث وأفخم ما عند العرب، ذلك أن تجربتنا اللغوية من أقدم وأغنى تجارب العالم على الإطلاق. وإذا كانت الثقافة العربية بهذه القتامة. وكانت قنواتها المغذية لها هي أكثر قتامه منها فأنها بلا ريب تقف معوقاً حقيقياً دون صناعة أو توفير البيئة الصحية والسليمة التي تحتضن الإبداع وتنتجه وبالتالي فأن الباحث يعتقد أن الثقافة العربية هي واحدة من المعوقات الرئيسة التي تقف حجر عثرة في طريق الإبداع العربي في شتى المجالات ومنها على سبيل المثال علم الاجتماع العربي الذي عجز عن إنتاج نظرية مستقلة خاصة به رغم عمره الذي بلغ اليوم أكثر من ستة عقود.

ثانياً –الفكر الاجتماعي العربي

الثقافة والفكر مفهومان مترابطان إلى حد كبير. يغذي احدهما الآخر سلباً أو إيجابا. الفكر الإنساني يأخذ مناحيَ ووجهات عديدة وتدل جميعها على إبداع الإنسان العقلي وإنتاجه للفكر الذي يعتبر الدعامة الأساسية والميزة الكبرى التي تميز مجتمعاً بشرياً عن آخر، ولا يشير مفهوم الفكر حصراً (الفكر الاجتماعي) إذ أن هناك فكراً(أيديولوجياً) وفكراً سياسياً وفكراً اقتصادياً.. الخ. إلا أن هذا لا يعني أن هذه الجوانب مغلقة على بعضها أو أن كلاً منها لا يعني بالآخر، إذ تشترك هذه الجوانب وتتعمق علاقاتها فيما بينها.

وبالنسبة للفكر الاجتماعي العربي فأنه يبدو غير عميق وغير متراص ومتسلسل الحلقات اعتماداً على آراء من اخذوا على عاتقهم تتبع هذا الفكر تاريخيا من الاجتماعيين العرب المعاصرين. ويحاول البعض من هؤلاء ترقيع آو ترميم هذا الخلل في الفكر الاجتماعي العربي من خلال زج مفكرين مسلمين من قوميات أخرى. أن الدولة الإسلامية في عنفوان بروزها في العصر العباسي في بغداد والأندلسي في أسبانيا قد استقطبت العديد من مفكرين وساسة وشعراء وأدباء واقتصاديين من أمم أخرى بحكم أن المركز يستقطب الأطراف وهذا ما حصل في بغداد التي استقطبت المبدعين من مختلف الأمم وكذلك حصل نفس الأمر في أسبانيا الأندلسية إلى حد كبير. إلا إننا لا نستطيع أن نقول بأي حال من الأحوال أن هؤلاء المفكرين هم نتاج الثقافة العربية بل هم نتاج ثقافتهم ومسيرة بلدانهم الفكرية استطاعوا أن يقدموها خلال تواجدهم تلامذة أو أساتذة أو وزراء أو ساسة داخل بغداد والأندلس.

ويكاد يشترك معظم الاجتماعيين العرب

المعاصرين بالتركيز على مجموعة من المفكرين الذين يعتقدون إنهم غذوا الفكر الاجتماعي العربي في العصور اللاحقة. وما عدا الكندي المولود في الكوفة عام 185 هـ والمتوفى في بغداد عام 257 هـ وابن خلدون المولود في تونس عام 1332 م والمتوفى في مصر عام1406 م فأن الباحثين في تأريخ الفكر الاجتماعي العربي لا يستطيعون إثبات النسب العربي لبقية المفكرين الذين يضمهم آخرون إلى الفكر العربي كيفما اتفق. وهذا ما يحصل مع ألفارابي المولود في مدينة فاراب 259 هـ –339 هـ، والغزالي المولود في طوس450 هـ والمتوفى فيها 505 هـ ،وابن باجة المولود في سرقسطة 475 هـ والمتوفى 533، وابن طفيل المولود في غرناطة 500 هـ والمتوفى 581 هـ، وابن رشد المولود في قرطبة 520 هـ والمتوفى في قرطبة 598 هـ وصاعد الاندلسي المولود في الأندلس أيضا في عام1024 والمتوفى في عام 1070.

وحتى لو اتفقنا على أن جميع هؤلاء المفكرين هم نتاج الثقافة العربية وإنهم قدموا فكراً عربياً خالصاً فأن هناك جملة من الملاحظات التي تشير إلى تعثر المسيرة الفكرية هذه والتي يمكن إجمالها بالآتي :–

أ– أن هؤلاء ليسوا مفكرين اجتماعيين بل هم أيضا وفي نفس الوقت ساسة أو وزراء أو أطباء أو فلاسفة أو مؤرخون وبالتالي فأن نتاجهم لم يكن فكراً اجتماعياً موجهاً وإنما كان الفكر الاجتماعي يأتي تحصيل حاصل لإثبات افتراضاتهم حول الخليقة والخالق والدين والسلطة والقبيلة وغيرها.

ب– إنهم لم ينتجوا مدارس فكر اجتماعي يمكن أن تعتمد آرائهم مناهجاً لها.

ت– إنهم جميعاً عاشوا خلال فترة الحكم العباسي في بغداد والأندلس في أسبانيا خلال المدة الزمنية المحصورة بين 795 م و 1406 م أي خلال (6) قرون كاملة وبمعدل مفكر واحد لكل (85 سنة) .

ث– بعد المسافة بين الأندلس وبغداد جعل هؤلاء ينقسمون إلى فريقين. احدهما شرقي يمثله الكندي وألفارابي والغزالي والآخر غربي يمثله ابن خلدون وابن رشد وابن ماجة وابن طفيل وصاعد الأندلسي. كذلك فأن الفترات الزمنية غير مترابطة وغير متممة لبعضها، فمثلا نجد أن الفترة الزمنية بين طرفي تاريخ ظهور هؤلاء المفكرين يتحدد بين 795 م لدى الكندي و1406 لدى ابن خلدون وهي مده طويلة تصل إلى 600 سنة تقريبا، وإذ نجد أن الفارابي قد كان معاصرا للكندي فان صاعد الأندلسي كان الأقرب لابن خلدون وان كان الأول قد سبق الثاني بحوالي 275 سنة. كذلك نجد أن المجموعة الأكبر كانت تقع في قلب هذه الفترة والتي تجمع الغزالي وابن طفيل وابن ماجه وابن رشد وجميعهم قد عاشوا خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين .

ج – لم يجمع بين هؤلاء سوى الدين بينما كانت اللغة والتراث عوامل غير مشتركه وبالتالي فأن أعمدة الفكر لم تكن مكتملة لديهم.

أن سقوط بغداد عام 1258 وغرناطة عام 1491 كان إيذاناً بدخول الفكر الاجتماعي العربي في النفق المظلم الطويل، وهنا بدأت حركة الاجترار الفكري أو التغذية الراجعة. لقد بدت الحركة عكسية، نكوصاً على الأعقاب، فلم يكن ملاذاً غير الدين واللغة والتراث. وبلا ادنى شك فأن عملية الانغلاق الثقافي والفكري كانت محكمة فبدأت عملية التغني بالأمجاد العربية الجاهلية والإسلامية والأموية والعباسية والأندلسية. وكان الفكر الاجتماعي العربي يسير نحو الانحطاط عاماً

بعد آخر وقرناً تلو قرن. ومع شروق شمس جديدة للفكر الاجتماعي في أوربا بعد حركات الاستكشاف وثورة البخار والاستعمار والثورة الفرنسية فأن الفكر الاجتماعي العربي كان يغط في سبات عميق ويعاني في الوقت ذاته من مجموعة من الأوبئة والامراض التي تشل حركته وتمنعه من الاستيقاظ.

وحتى عملية الاستيقاظ البطيئة فقد ساعدنا فيها الفرنسيون حينما احتل نابليون مصر وكانت الصدمة كبيرة عندما تفاجأ الرعيل الأول من التنويريين العرب بمدى الفجوة التي كانت تفصل الفكر الاجتماعي الأوربي عن الفكر الاجتماعي لدى العرب. وهكذا فقد بدت عملية الانطلاق المستقل غير منطقية على الإطلاق فكان التعلق الشديد إلى حد الانبهار والوله الكبير الذي يقود الحبيب وهو أعمى نحو حبيبه مهما كانت النتائج.

ولم يستمر طويلاً حتى تحول هذا الحب إلى تبعية فكرية عميقة من غير الممكن أن تسمح للتابع بسبق المتبوع أو اللحاق به على الأقل أو حتى بتقليص المسافة إلى حد معقول. ومن هنا يمكننا أن نفهم ماذا تعني الفترة الزمنية المحصورة بين منتصف القرن التاسع عشر عندما تبلور علم الاجتماع في أوربا والولايات المتحدة بصورته المميزة الواضحة. وبين منتصف القرن العشرين عندما عاد الرعيل الأول من الاجتماعيين العرب، بعد أن تتلمذوا في أوربا وأمريكا، إلى بلدانهم في مصر والعراق وسوريا ولبنان ليؤسسوا أقساماً لعلم الاجتماع في جامعات هذه البلدان لأول مرة.ويمكننا أن نضع مثل هذه المقارنة لاستشراف واقع العلوم الطبيعية والاجتماعية والاقتصادية في البلدان العربية حيث نكتشف مدى الفجوة التي صارت تتسع في الوقت الحاضر بشكل سريع جدا.

لم تكن حالة التخبط و العشوائية ملاصقة للفكر الاجتماعي العربي طوال الفترة المظلمة وحتى النصف الأول من القرن العشرين فحسب بل كانت أيضا ملاصقة للفكر في معظم الدول الشرقية والإسلامية منها بوجه الخصوص. ويصوغ الدكتور علي شريعتي قائمة طويلة من المرادفات المتناقضة بين بداياتهم مع علم الاجتماع (الأوربيين والاميركان) وبداياتنا نحن الشرقيون "عرب وإيرانيون وأفغان وترك .. " فيقول انهم غربيون وإننا شرقيون ومع وجود فترة المائة عام بين 1850 سنة ظهور علم الاجتماع في أوربا و 1950 سنة ظهوره في العديد من مجتمعاتنا، مع وجود المائة عام هذه التي كانت من المفترض أن تقلص الفجوة إلا أن مقارنة حالة الفكر لدينا مع ما لديهم كانت مخيبة للآمال بل ومخيفة. وتتجلى الفروق ويظهر التباين بين الطرفين. احدهما ذو رؤية قائمة على الحساب ومنطلق من مبدأ الكسب، والآخر ميال للعاطفة ومنطلق من مبدأ القيمة. الأول بورليتاريا صناعية والثاني مزارعون وقرويون وما دون طبقة البروليتاريا. هناك صناعة ثقيلة وهنا مجرد استهلاك، هناك انتقلوا من البرجوازية إلى الرأسمالية وصعوداً نحو الإمبريالية وهنا لم تكن البرجوازية الصغيرة قد اجتازت مرحلة السمسرة. وهناك في عام 1850 كانوا قد تركوا القرون الوسطى وراء ظهورهم بينما كنا نعيشها في عام 1950 بكافة تفاصيلها، هناك كانوا قد قاموا بالثورة الفرنسية بينما كنا نقرأ عن الثورة بالكتب وكذلك بالنسبة للثورة الصناعية في انجلترا التي سبقت

ظهور علم الاجتماع لديهم بقرنين من الزمن. بينما كان إدخال الآلة في الوقت الذي ظهر فيه علم الاجتماع لدينا كان من صنع أوربا ذاتها. عندهم كان المتعلمون أناساً ذوي وعي اجتماعي ورؤية نقدية وفكرُ وأيديولوجية وتعاطفٌ مع الناس وسلوكٌ مضاد للأرستقراطية وللبرجوازية وعواطف عالمية إنسانية بدرجات متفاوتة.

بينما كان المتعلمون لدينا (وربما لازالوا) يأخذون شهادات جامعية ويدخلون في خدمة الحكومة ويشتركون في المحافل، يتبؤون المناصب ويقبضون النقود دون مشاركة فعلية في أحداث التغيير الاجتماعي والثقافي. في أوربا وأمريكا كان أستاذ الجامعة يحيا في مقام أعلى شرفا من رئيس الدولة بينما يرضى الأستاذ الجامعي لدينا بأي عمل يناط به ويكون على شكل "مكرمة " من الدولة وبتعبير أدق من الزعيم.

هناك يعتبر الماضي مجرد ذكرى محترمة بينما هنا الماضي يعيش في الحاضر أكثر من الحاضر ذاته.

هناك تعيش الأغلبية عصرها الذهبي في الوقت الذي يتحكم أفراد معدودون في مجتمعاتنا بمصائر عشرات الملايين من (رعاياهم). هناك المفكرون على علم بمجتمعاتهم وهنا المفكرون يتشبهون بأولئك فيعيشون في غربة عن مجتمعاتهم التي لم تسطع أن تفهم ماذا يريدون؟ وعن ماذا يتكلمون؟. هناك لديهم حكومات ديمقراطية منذ قرون ولديهم فلسفة سياسية مستندة على الشعب وسيادته والسلطة اللا دينية والروح القومية والرؤية الكونية والفلسفة المادية ونظام إداري مدني بينما لا يزال لدينا " الزعيم " منبع السلطات وذو صبغة دينية ولا توجد إدارة ولا تخطيط ولا برمجة، لديهم قانون ولدينا حكم(11).لا يزال الزعيم لدينا ينظر إلى الشعب كرعية وأوباش يستمتع بمطاردتهم بالأباشي مستصرخا جلاديه بملاحقة المتظاهرين والذين هم في رأيه ليس أكثر من جرذان ظهرت من جحورها،مطاردتهم دربونة دربونة على الطريقة العراقية أو حتة حتة على الطريقة المصرية أو زنكة زنكة على الطريقة الليبية.

لا زال الحاكم العربي معوقاً أساسياً في عملية التنمية ومانعا رفع النقاب الكالح عن الفكر العربي،ولا زال التحالف غير المقدس الذي كان سائدا بين الكنيسة والإقطاع والملكية في أوربا القرون الوسطى،لا زال واضحا لدينا وفي كل مجتمعاتنا العربية دون استثناء سوى اختلاف بالنسب بين بلد وآخر.

لازالت الثقافة التقليدية مدعومة بالأفكار المتردية تنتج الحاكم المستبد الجاهل ولا زال هذا يعتمد بدوره عليهما في تبرير بقائه بالسلطة وتوريثها لأبنائه من بعده وكأن عجلة التاريخ لا زالت متوقفة عند العصر الأموي أو العباسي.

لقد كانت الظروف التي رافقت وسبقت ظهور علم الاجتماع لدينا في عام 1950 مختلفة تماما عن الظروف التي هيأت ورافقت وبالتالي نتج عنها ظهور علم الاجتماع في أوربا عام 1850. الظروف التي كانت لديهم قبل مائة عام هي أفضل بكثير من الظروف التي لدينا بعد مائة عام.

الفكر والثقافة والأدب والفن وحقوق الإنسان والديمقراطية والحرية والسياسة والقانون كانت أفضل لديهم في عام1850 مما لدينا في عام 1950 وكانت لديهم في عام1900 أفضل مما لدينا في عام 2000 بل وأفضل من عامنا هذا 2011 لذلك فأن

الفجوة التي تفصل بيننا وبينهم ليست زمنية فقط بل هي روحية ونفسية كرست حالة العجز لدينا فأصبح لامناص من التبعية ومن التقليد والمحاكاة والتشبه والنقل والاستنساخ فماتت ميكانزمات الإبداع وحل محلها التلقين والتدجين والتنميط والقولبة. فكيف يصبح من الممكن التفكير بإنتاج إبداعي ومبتكر من عربي عاش ولا زال يعيش وربما سوف يعيش تحت سطوة هذه الظروف القاهرة حتى إشعار آخر .

المصادر

1- **أنتوني غدنز،علم الاجتماع،ترجمة فايز الصايغ،المنظمة العربية للترجمة،ط1،بيروت،تشرين أول** 2005،ص 82.

2- **أنتوني غدنز**، E.B.Tylor:"primitive culture"London,5th,1913,pp 3-4

3- **نفس المصدر**،ص 83.

4- "70 **مليون أمي في الوطن العربي**"، **جريدة " الشرق الأوسط " العدد** 9557 **يناير**2005.

5- **المعهد العربي للتخطيط،الكويت،التدريب عبر شبكة الانترنيت.**

6- **المجموعة الإحصائية السنوية لليونسكو**، 1999، ص 7- 11.

7- **المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة** (ISECO)، **تقرير عبر شبكة الانترنيت.**

8- **جريدة الشرق الأوسط ، مصدر سابق.**

9- **نفس المصدر.**

10- **فردريك معتوق ، تطور الفكر السوسيولوجي العربي ، جروس برس، لبنان**،ص 112- 113.

11- **علي شريعتي، العودة إلى الذات، ترجمة د إبراهيم الدسوقي، مؤسسة دار الكتاب الإسلامي ، ص** 88-93.

النخب المتنفذة في العراق وإعاقة البناء الديمقراطي

د. فـــــاخـــــر جـــــاســـم

د.فاخر محمد جاسم من مواليد الكوفة – العراق، بكالوريوس دراسات إسلامية، جامعة أوربا الإسلامية ـ هولندا (2005)، ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة أوربا الإسلامية ـ هولندا، (2006)، دكتوراه علوم سياسية من الأكاديمية العربية في الدانيمارك (2009). يعمل حاليا رئيس قسم العلوم السياسية/ كلية القانون والسياسية ـ الأكاديمية العربية في الدانيمارك، إضافة الى انه مدير المعهد السويدي ـ العراقي لدعم الديمقراطية والتنمية في العراق. صدر له عدة كتب كما نشر العديد من الدراسات والمقالات حول الفكر السياسي العراقي في العديد من المجلات والصحف العربية، منها: (الثقافة الجديدة)، كما قدم العديد من المحاضرات حول الفكر السياسي العراقي في العديد من البلدان.

في البداية تجدر الإشارة إلى أن الديمقراطية، ظاهرة تاريخية لا ترتبط بأيديولوجية محددة. فالديمقراطية بدأت عامة، أي يشترك فيها كل المواطنين، ثم أصبحت تمثلية، انتخاب مجموعة من النواب يمثلون عامة المواطنين، إلى أن وصل تطورها في الظروف المعاصرة، إلى التخلي عن مفهوم الأغلبية الحاكمة التي تقرر كل شئ بل تلجأ كثير من الدول الديمقراطية إلى الاستفتاءات الشعبية، للحصول على إجماع وطني عند الحاجة إلى إصدار قانون يتعلق بمصالح المجتمع.إن هذا التطورالتاريخي يعني إن الديمقراطية لم تعد تقتصر على الجانب السياسي فقط، بل أصبح بعدها الاجتماعي، يحتل أهمية كبيرة في كفاح الشعوب من أجل العدالة الاجتماعية.

شهدت الفترة التي أعقبت الاحتلال الأمريكي للعراق2003، العديد من المظاهر

التي أعاقت تطور البنية السياسية للمجتمع العراقي باتجاه ديمقراطي من أهمها:

- انهيار مؤسسات الدولة السياسية والاقتصادية والأمنية، وما نتج عنها من عدم الاستقرار الأمني والاجتماعي وانهيار الخدمات الأساسية.
- انتشار ظاهرة العنف بكافة أشكاله ونشوء المليشيات المسلحة.
- احتدام الصراع الطائفي - المذهبي والعرقي في المجتمع العراقي.
- سيطرة قوى الإسلام السياسي، على سلطة الدولة، عن طريق الشرعية الانتخابية.
- زيادة التدخل الخارجي، قوى الاحتلال والقوى الإقليمية، في الشأن الداخلي الوطني العراقي.

على ضوء المقدمات السابقة، نتناول بالتحليل الأسباب والنتائج والمخاطر التي ساهمت في عرقلة تطور الديمقراطية في العراق على ضوء تجربة النخب الحاكمة التي تولت السلطة بعد الاحتلال والتي أدت إلى حراك اجتماعي - سياسي، تشترك فيه فئات واسعة من السكان متضررة، بشكل مباشر، من سياسة النخب الحاكمة.

قبل البدء بتحليل الأسباب التي أدت إلى عرقلة التطور الديمقراطي في العراق بعد التغيير لا بد من الإشارة إلى العديد من القضايا الهامة منها:

- الأولى، حرية النشاط السياسي والفكري وحرية الصحافة والأعلام، تمثلت بتكون عدد كبير من الأحزاب السياسية وحرية تعبيرها عن أهدافها السياسية والفكرية، وكذلك وجود(1) كم هائل من الصحف والمجلات والقنوات الإذاعية والتلفزيونية.
- والقضية الثانية، فشل نموذج الديمقراطية الأمريكي في توفير الظروف المناسبة لاقامة مجتمع مدني ديمقراطي وهو الهدف الذي كان يصبو إليه الشعب العراقي قبل التغيير.
- والقضية الثالثة، إن الوعي الجماهيري، تجاوز محاولات النخب العراقية التي سيطرت على السلطة بعد إسقاط الدكتاتورية، التي تسعى إلى حرف مطالبة الجماهير من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة ودولة القانون، عن طريق التحشيد الطائفي - العرقي.
- القضية الرابعة، فشل النخب السياسية التي استحوذت على سلطة الدولة في طرح رؤية وطنية جامعة، قادرة على توحيد المجتمع العراقي لإنهاء مخلفات الدكتاتورية والاحتلال الأجنبي.
- القضية الخامسة، حركية واسعة في الاصطفافات السياسية والاجتماعية ، حيث مازالت تحدث تغييرات حادة في التحالفات السياسية بين النخب السياسية، الأمر الذي نتج عنه استمرار حالة الصراع السياسي الحاد بين النخب السياسية الحاكمة.

على اساس المعطيات المشار اليها نتناول الموضوع من خلال ثلاثة محاور، سياسي وقانوني واقتصادي.

أولاً، المحور السياسي

أصبحت سياسة التفرد والإقصاء، السمة التي تميز أسلوب النخب الحاكمة في تعاملها مع أطراف البنية السياسية والفئات الاجتماعية التي لا تتفق مع نهجها الفكري والسياسي. وقد تجلى ذلك بالعديد من المظاهر منها:

1. العمل على إضعاف دور الأحزاب السياسية التي كان لها دور مشهود في النضال ضد الحكم الاستبدادي السابق.
2. التضييق على الحريات العامة والفردية بالاستناد على قرارات النظام السابق.

3 ـ الحد من حرية النقد، من خلال اعتبار كل من ينتقد السلطة أو يمارس حقه بالتعبير عن احتجاجه من خلال التظاهر، معادياً للعملية السياسية(2) .

4ـ التضييق على تكافؤ الفرص بين المواطنين، في تولي المناصب المهمة في الدولة، بحيث حرمت الدولة من خدمات كفاءات علمية وأكاديمية وإدارية كثيرة في حين تم إغراق مؤسسات الدولة بالعناصر المحسوبة على التكتلات الطائفية والقومية، والتي لا تتوفر لها الخبرة العملية والكفاءة المهنية. وكان من نتائج هذه السياسة اصابة أغلب مؤسسات الدولة بالشلل وضعف ادائها الوظيفي، مما أدى إلى إرهاق المواطن عند تعامله مع مؤسسات الدولة وبالتالي زيادة الفجوة بينه وبين هذه المؤسسات.

ـ تنامي الفساد في جهاز الدولة الإداري، وما نتج عنه من عودة لمشاعر الإحباط واليأس لدى أغلبية فئات المجتمع، خاصة فئات الشباب التي وجدت نفسها عاطلة عن العمل في ظل ظروف تشهد استحواذ النخب الحاكمة على المال العام وانتشار مظاهر الفساد الإداري والمالي على نطاق واسع دون إجراءات ملموسة، لمكافحة آفة الفساد.

ـ تأسيس الأجهزة الأمنية والقوات المسلحة على أساس المحاصصة الطائفية القومية والمناطقية والعشائرية، وليس على أساس الهوية الوطنية التي تقوم على المساواة والمهنية والكفاءة مما أضعف شعور الولاء للوطن.

إن هذا التوجه في بناء الأجهزة الأمنية تم بدعم ومشاركة من قوى الاحتلال.

ـ استغلال المشاعر الطائفية والمذهبية والقومية والعشائرية في الصراع السياسي، أدى إلى شل أجهزة الدولة وعدم قدرتها على أداء مهامها الوظيفية وفق المعايير المهنية ـ الإدارية، مما أدى إلى فشل أجهزة الدولة في تقديم الخدمات الضرورية التي تمس حياة المواطن اليومية.

ـ تعطيل الحياة الثقافية للمجتمع، بسبب عقلية النخب الحاكمة ونظرتها للإنتاج الثقافي، إضافة إلى عدم الاستقرار الأمني والإرهاب، مما أدى إلى شل الحياة الثقافية بكافة أنواعها لمدة ثمان سنوات، والتضييق على المؤسسات الثقافية ومنعها من القيام بالنشاطات الثقافية، خاصة الفنية والموسيقية والمسرحية والسينمائية.

ـ نتيجة لتعثر السلطة في توفير الاستقرار الأمني، لجأت إلى الاعتماد على المؤسسة العشائرية وإعطائها دورا أمنياً وسياسيا، يكون مؤثراً في العملية السياسية، خاصة في فترات الانتخابات. إن أحياء العشائرية أدى إلى تهميش دور الأحزاب، خاصة الحاكمة منها، التي تحولت إلى أحزاب بعيدة عن قاعدتها الاجتماعية، تعتمد على النخب القيادية في وجودها وامتداد علاقاتها بالمجتمع، فأصبح الفرد هو رمز الحزب وليس برنامجه السياسي ـ الاجتماعي.

ـ تعثر قضية المصالحة الوطنية، التي بقيت تراوح في مكانها نتيجة تحكم العقلية الثأرية ـ الانتقامية لدى النخب المتنفذة في العملية السياسية، الأمر الذي سمح بالاستغلال السياسي لهذه القضية في الصراعات الانتخابية بين الكتل السياسية الكبيرة بدلاً من خضوعها للعدالة والقانون(3).

إن عدم توفر رؤية واضحة لدى النخب الحاكمة عن المصالحة الوطنية، خلق تشوشاً وقلقاً لدى المواطنين تجاه هذه القضية الهامة والمؤثرة على الاستقرار السياسي والاجتماعي.

ثانياً، المحور القانوني

يشكل الجانب القانوني، أحد أهم المفاصل في بناء دولة عصرية تقوم على أسس ديمقراطية. وتزداد أهمية البناء القانوني للدولة في العراق بالارتباط مع بقاء التركة الثقيلة للدكتاتورية، التي كيفت البنية القانونية للدولة لتخدم طبيعة نظامها الاستبدادي. ولذلك أصبحت الحاجة ماسة للقيام بإصلاح قانوني لبنية الدولة بعد إسقاط الدكتاتورية. ونتيجة التأخر في إنجاز هذه المهمة مازالت قوانين مجلس قيادة الثورة المنحل هي التي تسير أغلب مؤسسات الدولة.

إن الفشل في تأسيس بنية قانونية تتناسب ومتطلبات النظام الديمقراطي، يتبين من خلال المعطيات التالية:

- عدم إجراء التعديلات الدستورية الضرورية التي تؤسس للجانب القانوني لتطور النظام الديمقراطي ومنع الارتداد عنه، حيث مازال الدستور العراقي الجديد يعاني من ثغرات جدية.
- عدم إصدار قوانين مهمة تنظم العمل السياسي والاجتماعي والمهني، كقانون الأحزاب وقانون التجمع والتظاهر وقانون ضمان الحريات الفكرية والسياسية، وقانون الصحافة وحرية الإعلام، وقانون المنظمات الاجتماعية كنقابات العمال والنقابات المهنية.
- تأخر إنجاز قانون المحكمة الاتحادية وكذلك عدم تشكيل المحكمة الدستورية، نتج عنهما السماح بالاستغلال السياسي لبعض قرارات المحكمة الاتحادية(4).
- تشريع قانون لا ديمقراطي للانتخابات، أدى تطبيقه بالواقع إلى استمرار المحاصصة الطائفية والقومية، وبنفس الوقت منع وصول قوى جديدة للهيئات التشريعية من خارج التكتلات الطائفية القومية. إن هذا القانون يتناقض مع مبادئ الديمقراطية وحقوق الإنسان في اختيار ممثليه بحرية للمجالس التشريعية والمحلية في المحافظات (5).
- سيادة الأعراف العشائرية حيث أصبحت هي التي تحكم العلاقة بين المواطنين وحل المنازعات بين أفراد المجتمع بدلاً من القانون المدني. لقد كان لهذا التوجه نتائج خطيرة، تتمثل في إضعاف هيبة الدولة بين المواطنين، وما ينتج عنها من فقدان ثقة المواطن بقدرة الدولة على توفير الحماية الشخصية والاجتماعية له، الأمر الذي يساهم في تفتيت الوعي الوطني وتشضيه إلى ولاءات فرعية.

إجمالا، وبسبب عدم وضوح الفصل بين السلطات الثلاث، بعد التغيير، وهي الركيزة الأساسية لأي نظام ديمقراطي، فقد فشل النظام القضائي ليس أن يكون رقيبا ومحاسباً، بل أنه لم يستطع أن يحاسب كبار مرتكبي الفساد المالي والإداري.

ثالثاً، المحور الاقتصادي

- إعاقة إعادة الحياة للدورة الاقتصادية للمجتمع، من خلال عدم الاهتمام بإعادة اعمار المؤسسات الصناعية الكبيرة التي كلفت المجتمع العراقي مليارات الدولارات. وكان من نتائج هذه السياسة توقف عدد كبير من المشاريع الصناعية عن العمل وانخفاض مستوى إنتاجية العاملة منها إلى أدنى من مستوياتها قبل التغيير.
- فشل محاولات الخصخصة للمشاريع الصناعية والزراعية والتجارية، على أسس تخدم التطور الاقتصادي المستقل للعراق.
- عرقلة مشاريع الاستثمار العربية والأجنبية في العراق نتيجة لانتشار الفساد المالي والإداري لدى المتنفذين في مؤسسات الدولة المختلفة.

- صراعات النخب السياسية الحاكمة، عرقلت إصدار قانون النفط، وهو قانون حيوي ومهم لاعادة إعمار الاقتصاد العراقي، الأمر الذي سمح للحكومة العراقية، عقد اتفاقيات استثمارية لتطوير الحقول النفطية مع الشركات الأجنبية لا تجيب بشكل كامل لمصالح العراق على المدى البعيد.

- نتيجة للعوامل السابقة، وتغطية لفشلها في إعادة الحياة للمؤسسات الاقتصادية الوطنية لجأت الحكومة العراقية في الفترة الأخيرة، إلى الإسراع بتشجيع الاستثمار الأجنبي في المشاريع الصناعية الوطنية، وفقاً لشروط غير متكافئة.

- نهب المال العام وانتشار مظاهر الفساد المالي بحيث أصبح العراق على رأس قائمة دول العالم التي تعاني من الفساد المالي والرشوة. وعلى الرغم من كشف الفساد المالي من الجهات ذات العلاقة، لجنة النزاهة المستقلة، إلا انه تم التستر على عدد من كبار المتهمين(6)

- الديمقراطية الاجتماعية:

إن الديمقراطية لا تحتاج إلى بنية سياسية موحدة فقط، بل بنية اجتماعية وطنية، لأن الديمقراطية لا يمكن أن تتطور في بنية اجتماعية مشتتة، تعمل مكوناتها من أجل تثبيت ذاتها بالتعارض مع المكونات الأخرى، فجوهر الديمقراطية السياسية يقوم على تعزيز أواصر الهوية الوطنية الواحدة لمكونات المجتمع.

من أجل تفكيك الفكرة السابقة، نشير إلى عوامل تفتيت البنية الاجتماعية في زمن السلطة الدكتاتورية السابقة، كانت تعود بشكل أساسي إلى عاملين أساسين، الأول، يتعلق بمساعي السلطة الاستبدادية لتفتيت البنية الاجتماعية للمجتمع العراقي كأحد الوسائل التي تسهل سيطرتها على مكونات البنية الاجتماعية وضبطها وتوجيهها بما يتناغم مع توجهات السلطة. إما العامل الثاني، فإنه يرجع إلى غياب الأمن الاجتماعي، ولجوء أفراد المجتمع إلى الهويات الفرعية (الطائفية - المذهبية والعشائرية والقومية) من أجل الحصول على الحماية.

إن عوامل تفتيت البنية الاجتماعية في مرحلة ما بعد التغيير تعود إلى أسباب مختلفة من أهمها، بناء سلطة الدولة على أسس المحاصصة الطائفية - المذهبية القومية، ومساعي النخب السياسية الحاكمة تشجيع إعادة تشكيل البنية الاجتماعية على شكل بؤر اجتماعية مغلقة على ذاتها - طائفية - عشائرية - من أجل أن تحافظ هذه النخب على موقعها في السلطة واعادة إنتاج نفسها، عن طريق استغلال آلية الديمقراطية التي جرى تقنينها وفق ضوابط قانونية، كما أشرنا سابقاً.

إن النظام الاجتماعي الذي بدأ يتشكل في ظل الممارسة السياسية - الاجتماعية لسلطة المحاصصة أدى إلى استمرار حالة التفكك السياسي والتمزق الاجتماعي، وعرقلة تكون هوية وطنية، وهي الأساس لوحدة النسيج الاجتماعي. ولهذا السبب نلاحظ استمرار حالة عدم الشعور بالأمن والاطمئنان لدى أغلب فئات المجتمع على الرغم من مرور ثمان سنوات على التغيير.

وبناء على ذلك، شكل فقدان العدالة الاجتماعية، أحد الأسباب الرئيسة، لحالة عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي عاشها المجتمع العراقي خلال النصف الثاني من القرن الماضي. وهنا تكمن خطورة السياسة الاقتصادية للسلطة التي أعقبت

التغيير عندما خضعت لوصفات المؤسسات المالية الدولية التي ألزمت الحكومة العراقية على انتهاج سياسة الليبرالية الجديدة في المجال الاقتصادي. ولأجل توضيح المخاطر لهذه السياسة نشير إلى الملاحظات التالية:

أولاً: إن المجتمع العراقي خلال العقود الأخيرة لم يكن يعاني فقط من الاستبداد السياسي، بل كان يعاني من غياب العدالة الاجتماعية التي نتج عنها زيادة الحرمان الاجتماعي وبالتالي انقسام المجتمع العراقي إلى فئة غنية قليلة تتمتع بثمار الثروة الوطنية وأغلبية فقيرة محرومة من المستلزمات الأساسية التي يمكن لثروات البلاد أن توفرها لها.

ثانياً، إن تجارب الشعوب، والعربية بشكل خاص منها، التي طبقت سياسة الليبرالية، أشارت إلى تزايد حالات الفقر على نطاق واسع في المجتمعات ونهب الثروات الوطنية من قبل النخب الوطنية الحاكمة وشركائها الخارجيين، ويدل الحراك الاجتماعي الذي تشهده هذه البلدان، في الظروف الراهنة، على رفض الشعوب العربية لسياسة الليبرالية الجديدة في المجال السياسي والاجتماعي.

ثالثا، إن التطبيق العملي لهذه السياسة في العراق خلال الفترة التي أعقبت التغيير، أثبتت فشلها ليس في إعادة الحياة للدورة الاقتصادية، بل فشلت كذلك في تقديم مستوى معقول من الخدمات الضرورية بكافة أنواعها، بالإضافة إلى انها أدت إلى انتشار الفساد المالي والإداري على نطاق واسع في أجهزة الدولة.

رابعاً، إن حالة الاقتصاد العراقي الذي أنهكته الحروب وتكاليفها الباهظة، تستلزم سياسة اقتصادية وطنية تستند على الاستفادة من كافة الموارد الوطنية الاقتصادية والبشرية وتوظيف المساعدات الدولية لصالح بناء اقتصاد وطني مستقل، يوفر الأرضية المناسبة للاستقرار الاجتماعي ويجعل المواطن العراقي يساهم بفعالية في إعادة بناء الاقتصاد بناءً على شعوره بان إعادة توزيع ثروات بلده تتم بعدالة ومساواة.

تكثيفاً، لم تكن الديمقراطية السياسية هدفاً وحيدا لنضال القوى الاجتماعية من أجل التغيير والتقدم الاجتماعي، على الرغم من أنها "أي الديمقراطية السياسية" تشكل أحد السمات الهامة لأي نظام ديمقراطي في العصر الحديث، وبناء على ذلك، يحتاج تطور النظام السياسي نحو الديمقراطية، إلى مستلزمات حياة إجتماعية كريمة، تسمح للمواطنين بالتمتع بالحقوق السياسية التي توفرت بعد إزالة النظام الاستبدادي. ويحتل هذا الجانب أهمية كبيرة، حيث مازالت فئات كثيرة من الشعب العراقي تعيش تحت مستوى خط الفقر، حسب التقارير الرسمية العراقية(7). وبناء على ذلك يعتبر تحقيق العدالة الاجتماعية أحد الركائز المهمة لقيام واستقرار أي نظام ديمقراطي حقيقي.

وأخيرا، لا بد من الإشارة إلى أن تضحيات الشعب العراقي وكفاحه من أجل الحرية والديمقراطية لم تكن من أجل" ديمقراطية مزيفة" تتمتع فيها نخبة قليلة بكل خيرات الوطن وثروته، بينما تحرم أغلبية الشعب من التمتع بهذه الخيرات.

الخلاصة والاستنتاجات:

1- إن الممارسة الديمقراطية للنخب التي استحوذت على سلطة الدولة بمساعدة قوى الاحتلال والشرعية الانتخابية لم تستطع قيادة الدولة بما يؤدي إلى تلبية حاجات المجتمع العراقي.

2 ـ إن النخب السياسية المتنفذة لم تقنع أغلبية فئات الشعب بأنها تعمل من أجل خدمة المجتمع، بل زاد إحساس الناس بأن هذه النخب تعمل من أجل تلبية مصالحها الذاتية في المقام الأول(8).

3ـ تزايد احساس المواطنين، بان برامج أحزاب النخب المسيطرة على العملية السياسية وضعت من أجل الدعاية الانتخابية، لأنها لم تجد طريقها إلى التطبيق بعد الفوز في الانتخابات.

4 ـ أدى الاستخدام المتزايد للدين والمشاعر الدينية لدى المواطنين في الصراعات السياسية بين النخب الحاكمة، بالإضافة إلى لجوء هذه النخب إلى توظيف العشائرية والطائفية، إلى تشويه التجربة الديمقراطية الوليدة في العراق.

5 ـ إن ضعف النخب السياسية في إدارة الجانب التشريعي بنجاح خلال الفترة التي أعقبت إزاحة النظام الاستبدادي، انتقل في الفترة الراهنة، إلى السلطة التنفيذية، حيث تشكلت الحكومة الجديدة ليس على أساس الكفاءة والمهنية، بل على أساس نظام المحاصصة الطائفية ـ المذهبية والقومية.

6 ـ إن هشاشة الاستقرار الأمني، بسبب بناء المؤسسات الأمنية على أسس غير سليمة (طائفية ـ مذهبية وقومية أو عشائرية ـ مناطقية)، يمكن أن يؤدي في ظروف الاحتقان الطائفي ـ السياسي، إلى عودة المليشيات المسلحة والمجموعات الإرهابية إلى النشاط العلني مرة أخرى، مما يؤدي إلى عرقلة مسار العملية السياسية واعاقة بناء نظام ديمقراطي حقيقي يوفر الفرص المتكافئة لتطور اجتماعي يتمتع فيه المواطن العراقي بحقوقه السياسية والاجتماعية.

هوامش:

1- تسعى الولايات المتحدة لتصدير نموذجها الديمقراطي إلى العراق وبطريقة مشابهه لما طبقته في دول أمريكا اللاتينية. لقد أدى تطبيق هذه التجربة في بلدان أمريكا اللاتينية،إلى إفساد النخب السياسية ونشوء نخب " كوسموبولوتية" تتقاسم الهيمنة مع القوى الخارجية ، كما أدت إلى زيادة الفقر بين السكان وانتشار ظاهرة المنظمات الإرهابية والجريمة المنظمة وتجارة المخدرات. وفي العراق نلاحظ أن الولايات المتحدة تسعى لخلق نموذج الحزبين، أو كتلتين على شاكلة ما هو موجود في الولايات المتحدة لتقاسم السلطة في البداية والانتقال لاحقاً إلى نظام تبادل السلطة عن طريق الشريعة الانتخابية.

2- وصف رئيس الوزراء العراقي، نوري المالكي، المواطنين الذي شاركوا في مظاهرات ساحة التحرير بأنهم من أتباع حزب البعث المنحل أو أنصار القاعدة.

3-تم استبعاد بعض الشخصيات عن المشاركة في الانتخابات النيابية الأخيرة تحت ذريعة قانون اجتثاث البعث، ولكن تم إسناد، مناصب رسمية في الدولة، بعد الانتخابات، لنفس الأشخاص نتيجة لتشكيل الحكومة على أساس المحاصصة، فعلى سبيل المثال اصبح صالح المطلك، نائباً لرئيس الوزراء وأحمد الكربولي وزيرا للصناعة.

4- صدر عن المحكمة الاتحادية تفسيرات تحمل الطابع السياسي، كما حدث في رأي المحكمة الاتحادية بخصوص تفسير الكتلة الأكبر الفائزة في الانتخابات، كذلك الرأي الخاص بارتباط الهيئات المستقلة بمجلس الوزراء. وكان من أغرب القرارات صدور قرار عن المحكمة الاتحادية بخصوص عدم شرعية إضافة الأصوات المتبقية للكتل الكبيرة ولكن بشرط عدم التأثير على توزيع عدد المقاعد على الائتلافات الفائزة، مع العلم أن عدد الى مقاعد التي حصلت عليها الكتل الفائزة تم بناء على إضافة الأصوات المتبقية لهذه الكتل.

5- راجع مقالنا عن قانون الانتخابات الجديد المنشور بطريق الشعب في2009/12/23.

6- صرح وكيل وزير التخطيط والتعاون الدولي العراقي، مهدي العلاق، لوكالة السومرية نيوز، إلى أن23% حوال ٧ مليون مواطن عراقي من السكان، يعيشون تحت مستوى خط الفقر. طريق الشعب 19/4/ 2011. كما يوجد 989 ألف عاطل عن العمل، حسب تصريح وزير العمل والشؤون الاجتماعية العراقي. نفس المصدر أعلاه.

7- جرى تسييس هيئة النزاهة، مما أدى إلى عدم المتابعة القضائية لثلاث مسؤولين كبار اتهموا بتبذير المال العام والسرقة (حازم الشعلان وزير دفاع سابق، وأيهم السامرائي وزير الكهرباء السابق، والسوداني وزير التجارة السابق. كذلك وبسبب التسييس تم تغيير رئيس لجنة النزاهة لاكثر من مرة، كما اضطر أحد رؤساء لجنة النزاهة السابقين (راضي الراضي) الهروب إلى خارج العراق، بسبب المضايقات التي تعرض لها.

8- إن نظام المحاصصة الطائفية. القومية، إدى إلى توسع غير مبرر للسلطة التنفيذية التي تكونت من 48 مسؤولاً ـ الوزارة 43 والرئاسة 5 ـ ويعتبر هذا العدد من أكبر السلطات التنفيذية في العالم. كما إدى كذلك إلى ضعف الكفاءة المنهية والاختصاص في التشكيلة الوزارية الأخيرة، فعلى سبيل المثال، أسندت وزارة المالية إلى طبيب، وزارة الثقافة إلى عسكري، وزارة الرياضة والشباب إلى مهندس، وزارة العمل والشؤون الاجتماعية إلى طبيب بيطري.

ظاهرة الاتجار بالبشر
مع إشارة خاصة إلى العراق

د. هاشم نعمة

د. هاشم نعمة أستاذ جامعي وباحث، حاصل على البكالوريوس في علم الجغرافية من كلية الآداب جامعة البصرة عام 1974. نال شهادة الدكتوراه - التخصص الدقيق الجغرافية السكانية والدراسات السكانية من أكاديمية العلوم الهنغارية عام 1989. عمل في التدريس والبحث العلمي في المدارس الثانوية ومعاهد المعلمين والجامعات ومراكز البحث العلمي في العراق والمغرب وليبيا وهولندا. شارك في عدد من المؤتمرات والندوات في العديد من الدول. نشر العديد من الكتب والدراسات والبحوث والمقالات ومراجعات الكتب وله ترجمات من اللغة الانكليزية إلى اللغة العربية. عضو الهيئة الاستشارية لمجلة (مقاربات) الأكاديمية التي تصدر في المغرب.

نبذة تاريخية

الاتجار بالبشر ظاهرة لا إنسانية قديمة اقترنت بالانقسام الذي حدث في المجتمعات إلى فئات مالكة وأخرى غير مالكة أو معدمة. وكانت معروفة من قبل عدة شعوب أوروبية، مثل الرومان وآسيوية مثل العرب والأتراك والفرس والهنود. وهناك من يرى بأن العبودية وتجارة الرقيق تمثل الجذور التاريخية للاتجار بالبشر الذي يمارس حالياً. وقد توسعت أكثر خلال فترة الإمبراطورية الرومانية، ولاحقاً ترك الإرث الذي خلفته هذه الإمبراطورية آثاره في الممارسات اللاحقة لتجارة الرقيق في أوروبا وأمريكا الشمالية. وطبقاً للقانون الروماني كان الرقيق يعتبر كالممتلكات الخاصة العائدة للمالكين أو السادة. واستخدم بشكل شائع كخدم أو جواري، وحراس، وطباخين، وفي الجنس والدعارة، وكعمال في صناعة الفخار، والزجاج والمجوهرات الخ. وكانوا في المعتاد يعيشون تحت ظروف قاسية ولا

يتمتعون بشخصية قانونية. وقُبيل نهاية الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس والسادس الميلادي، تراجعت ممارسة العبودية وتجارة الرقيق بسبب أن السادة والمالكين بدأوا بعتق عبيدهم. بعضهم فعل ذلك لأسباب أخلاقية نتيجة تأثره بالمسيحية. وآخرون بسبب ارتفاع كلفة امتلاك الرقيق. فيما استطاع بعض العبيد من تحرير أنفسهم من سادتهم بدفع ما تراكم لديهم من بعض الأموال.(1)

وشهدت أفريقيا منذ وقت مبكر تجارة الرقيق، لكنها كانت بأعداد محدودة. و بلغت ذروتها في القرون التالية عندما اشترك فيها الأوروبيون حيث كان البرتغاليون هم أول من مارسها. إذ كانوا ينقلون الرقيق إلى أوروبا ومن ثم إلى أمريكا. وحدثت الحركة الكبرى للسكان، وخاصة من غرب أفريقيا إلى الأمريكيتين ومنطقة الكاريبي، خلال الفترة من القرن السادس عشر إلى التاسع عشر، حيث قدر بأن ما بين 15–20 مليون أفريقي نقلوا عبر المحيط الأطلسي. وهناك تقديرات ترفع العدد إلى 50 مليون (2) رغم أن هذا العدد قد يكون مبالغ فيه، إذا أخذنا في الاعتبار البطء الشديد لنمو السكان خلال تلك الفترة.

وطيلة ثلاثة قرون، كان الرقيق يمثل أهم صادرات أفريقيا، والتي مارسها البرتغاليون والهولنديون والفرنسيون والسويديون والدنمركيون. وفي القرن السابع عشر، أصبحت التجارة بالإنسان الأسود أمراً معترفاً به، ونوعاً من النشاط التجاري. وهذا واضح من تصريح دار تماوث وزير المستعمرات البريطانية عام 1775، الذي قال فيه "إننا لا نستطيع أن نسمح للمستعمرات أن توقف أو تقاوم– إلى أي حد– تجارة مربحة لهذه الدرجة لشعبنا".

ورغم تحريم بريطانيا لتجارة الرقيق فيما بعد طبقاً لقانون 1807، إلا أن هذا لم يؤثر كثيراً، فقد اندفعت دول أخرى لهذه التجارة. ولقد تعرض الزنوج إلى أسوا ما يمكن أن يعامل به بنو الإنسان، حتى في المناطق التي نقلوا لها قسراً، حيث كانوا يعاملون بالقسوة والتمييز العنصري، ويعتبر وضعهم في أمريكا الجنوبية أكثر حظاً، حيث اختلطوا بالسكان، لكن في أمريكا الشمالية، لم يحدث هذا وكانوا يباعون ويشترون مع الأرض.

ففي عام1705، صدر قانون امتلاك السود واعتبارهم جزء من الممتلكات الشخصية، إلى أن الغي قانون الرق عام1865، بعد الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب في أمريكا(3) لكن مع ذلك أستمر التمييز العنصري ضدهم على أشده إلى أن بدأ يخف نسبيا في العقود الأخيرة نتيجة النضالات التي خاضها السكان السود للمطالبة بالمساواة.

الاتجار بالبشر حالياً

كان الاتجار بالبشر ولفترة طويلة على رأس الأجندة السياسية في الكثير من الدول، وكذلك بالنسبة للكثير من المنظمات الدولية. حيث يوفر البحث في الاتجار مصدراً مهماً للمعلومات تساعد في تبني السياسات المطلوبة لمعالجته. ورغم توسع البحث خلال العقد الأخير، لكنه أيضا ترافق مع الدعوات للحاجة لدراسات مبتكرة أكثر ومنهجية جديدة في البحث وجمع المعطيات من أجل تجاوز طريقة السرد التي ترد على لسان الضحية وإنتاج خلاصات يمكن تطبيقها على كل عينة محددة. وخلص المسح الحديث إلى أن معظم البحوث التجريبية تعتمد على المنهج النوعي أو الكيفي باستخدام عينات قليلة، والتي تجعل من الخروج بالتعميمات والاستقراء عملية تنطوي

على إشكاليات.

لذلك يوصى باستخدام بحوث مبتكرة ومناهج بحثية مناسبة للوصول إلى مفتاح المعلومات التي تشمل العاملين في بيوت الدعارة، والمدراء، والمهربين أو من يمثلهم.

وقد شرعت الأمم المتحدة في جنوب شرق آسيا عام2007 بمشروع لإيجاد مناهج مبتكرة لتقدير أعداد ضحايا الاتجار في منطقة جغرافية معينة و/ أو في قطاع معين (4) ويفترض الاستفادة من هذه التجربة في البحث لتعميمها على نطاق أوسع.

حاليا هناك فجوة أساسية في المعرفة البحثية حول الطلب على ضحايا الاتجار بالبغاء. وفي الواقع، حتى الآن، ركزت أهم المؤلفات بشكل رئيس على الدعارة والتجار والطرق وآليات الظاهرة وزبائن الدعارة العامة لكن تقريبا لا شيء بُحث فيما يتعلق بالطلب على الدعارة المتاجر بها. حيث هناك دراسات محدودة حول هذا الجانب بسبب أن البحث في هذا الميدان ركز بشكل كامل، تقريباً،على تحليل عرض ضحايا الاتجار بالبغاء. هذه العوامل الفاعلة أهملت من قبل الدراسات العلمية والتي تلعب دوراً حاسماً في تطور الظاهرة. ومن الواضح، بدون الطلب على ضحايا الاتجار فإن هذا الجزء من سوق الجنس لن يكون له وجود.(5)

وحسب تعريف الأمم المتحدة يعني الاتجار بالبشر استخدام، أو نقل، أو تحويل، أو إيواء أو استلام الأشخاص، بوسائل التهديد أو استخدام القوة أو أشكال أخرى من الإكراه، وكذلك ممارسة الاختطاف، والغش، والخداع، وإساءة استخدام القوة أو جعل الأشخاص في موقف ضعيف أو أعطاء أو استلام مبالغ أو منافع لإتمام موافقة شخص يمتلك السيطرة على شخص آخر، لغرض الاستغلال. ويشمل الاستغلال، على الأقل، الاستغلال في الدعارة لصالح الآخرين أو أشكال أخرى من الاستغلال الجنسي، والعمل القسري أو في الخدمات، وممارسة العبودية أو ممارسات تشبه العبودية، والاستعباد (الأسر) أو نزع الأعضاء البشرية لغرض المتاجرة بها. (9)

وقد صنفت الدول إلى ثلاث رتب طبقا لدرجة استجابة الحكومات لمعايير الحد الأدنى في الكفاح ضد الاتجار. وقد احتفظت كل من البحرين والكويت ولبنان والسعودية بالمرتبة الثانية بعد أن أزيلت من المرتبة الثالثة وهذا يعود لجهودها المهمة للاستجابة لمعايير الحد الأدنى. وهذا يوضح أن بعضا من دول مجلس التعاون الخليجي بذلت جهودا أكثر في مكافحة الاتجار بالبشر. ورغم ذلك تظل المكان الأول الذي يتجه له الاتجار. وتصبح إسرائيل، بشكل متزايد، هدفا شائعا لمثل هذه الممارسة. وذكرت التقارير أن نساء من مولدافيا وروسيا وأوكرانيا ودول أخرى من الإتحاد السوفيتي السابق يتم تهريبهن إلى إسرائيل لغرض الاستغلال الجنسي التجاري. كذلك الأشخاص الباحثون عن عمل تجري المتاجرة بهم حيث يعملون في ظروف عمل إجباري ويتعرضون للإيذاء الجسدي وأشكال عمل قاسية أخرى. الكثير من العمال الأجانب ذوي الخبرة القليلة تحبس جوازاتهم وتغير عقود عملهم ويعانون من عدم دفع رواتبهم لمدد مختلفة وبدرجات مختلفة. وقد جلبت الشركات الإنشائية والمشاريع التجارية الأخرى عمالا من الذكور من الصين وبلغاريا إلى إسرائيل للعمل في ظروف مساوية للعبودية أو الأشغال الشاقة غير الطوعية.(7)

اقتصادياً، تجار البشر المشاركون في سوق المنافسة يعرضون إنتاجهم في أشكال كثيرة. السعر الذي سيستلمه التاجر يعتمد

على توفر العرض البشري المرغوب، ومميزاته، والأعداد المشابهة المتوفرة، وفطنة التفاوض للمتاجر بالبشر. وتكون الأسعار المنخفضة جداً، غير مرغوبة للتجار حيث لا يتمكنون من خلالها من توفير النساء بسبب أن التكاليف ستفوق العائدات. وإذا لم تتغير التكاليف، فإن الزيادة في السعر تقود إلى ارتفاع الأرباح ومن ثمة زيادة عرض النساء(8) بطريقة لا إنسانية.

تشير إحصائيات الأمم المتحدة إن الربح السنوي من الاتجار بالبشر يقدر بـ 8 مليار دولار، وأن ما يقارب27 مليون شخص في العالم هم ضحايا الاتجار من ضمنهم 50% تحت سن 18 سنة، وهناك مليون طفل يتم الاتجار بهم لغرض الاستغلال الجنسي، عالميا، وفقا لليونيسف والأمم المتحدة. كما إن 12.3 مليون شخص يعملون في أعمال قسرية وأعمال من أجل رد الدين وما يطلق عليه العبودية الجنسية.(9) كما أكدت منظمة الهجرة الدولية تفاقم مشكلة الاتجار بالبشر لغرض الاستغلال الجنسي أو الاستغلال في العمل. وأشارت عند إطلاق حملتها لمكافحة هذه الظاهرة في تشرين الأول (أكتوبر) 2009 إلى التزايد المستمر في أعداد ضحايا ذلك الاتجار. وذكر تقرير أصدرته وزارة الخارجية الأمريكية حول الموضوع عام 2009 أن تقديرات منظمة العمل الدولية تشير إلى إن 56% من ضحايا العمالة الإجبارية هم من النساء والفتيات.

الاتجار بالنساء وبالأطفال

تؤثر الهجرة الدولية والاتجار بعدد كبير من النساء والأطفال. وتشكل هذه المجموعة أغلبية السكان اللاجئين في العالم، وهي تشكل، أيضاً، أغلبية ضحايا الاتجار؛ ويتعرض العمال المهاجرون أو أطفالهم أيضا، للإساءة والاستغلال، خصوصاً.

في النصف الأول من القرن العشرين كان مفهوم الاتجار بالبشر يعني ممارسات الغرض منها الدعارة والاستغلال الجنسي.

وهذا واضح من تحليل خمس وثائق دولية تم تبنيها خلال هذه الفترة بدءا من "الاتفاقية الدولية لحظر الاتجار بالرقيق الأبيض" عام 1904. وفيما بعد توسعت وتعمقت وجهات النظر المعاصرة. وعُد الاتجار على نطاق واسع بأنه يمثل " الشكل العصري للعبودية". هذا المصطلح يبدو بأنه يختلف عن الشكل القديم أو التقليدي للعبودية في حين لا يوجد قبول دولي له.(10)

عالم الجريمة البشعة الذي يسكنه الظلام، مئات الآلاف من الفتيات البريئات المخطوفات يعبرن الحدود ليلاً. هذه هي الصورة التي تسيطر على الإعلام والمتعلقة بالاتجار بالنساء. حيث يؤجر النساء والفتيات من أجل الاستغلال الجنسي لمدة 15 دقيقة ولعشرات المرات يومياً أو يبعن بالكامل إلى متاجرين آخرين بالجنس وإذا حاولن الهروب يتعرضن للضرب وأحياناً للقتل. وتشير الدراسات إلى أن 40.000 من النساء تم تهريبهن إلى ألمانيا للعمل في الدعارة ضد رغبتهن.

هذا الإنذار المتعلق بالاتجار بالفتيات البريئات والمنحدرات في الغالب من دول أوروبا الشرقية. غذى مشاعر الكراهية ضد المهاجرين حيث لم يصوت عام 2005 الهولنديون والفرنسيون على مسودة دستور الإتحاد الأوروبي وتصاعدت الدعوات لتجريم المهاجرين في الكونغرس الأمريكي عام 2006، والدعوات لمنع الدعارة كوسيلة لمكافحة الاتجار بالبشر في الدول الأوروبية مثل فنلندا وبلغاريا والسويد وسويسرا. في الواقع، يعتقد الكثير من الأوروبيين بأن انضمام الدول الجديدة للإتحاد الأوربي عام

2004 سمح للمافيات من وسط وشرق أوروبا بتشديد قبضتها على الجريمة المنظمة. ويبدو أن الاتجار بالنساء أصبح يمثل مصدر مخاوف وهمية انسحب على الأجانب والمهاجرين والمجرمين والإرهابيين والعولمة، لدرجة بات، في الغالب، من الصعب فصل هذه المخاوف عن القلق الحقيقي المتعلق بمصير النساء المتاجر بهن.(11) وهذه مسألة تكتسي بعدا أخلاقيا لا ينبغي إغفاله تحت أية ذريعة.

الاتجار بالأطفال ظاهرة عالمية وذات أنماط معقدة. ويأخذ طريقه للكثير من الأغراض التي تشمل الاستغلال الجنسي، العمل المنزلي، العمل في الزراعة والمناجم، والرياضة أو لغرض التبني. ويجري الاتجار بالفتيات والفتيان. وحتى عندما لا يوجه الأطفال لصناعة الجنس فهم يتعرضون لخطر القسوة الجسدية وتشمل القسوة الجنسية. وتكون الأسباب الجذرية للبيع والاتجار متعددة ومعقدة تشمل الفقر، نقص فرص العمل، انخفاض المستوى الاجتماعي للطفل، الحصانة من المقاضاة أو اتخاذ الإجراءات القانونية، ونقص في التعليم وتدنٍ في مستوى الوعي. كذلك الأطفال الذين ينتمون إلى مجموعات الأقليات أو الذين لم يتم توثيقهم. خصوصاً. يكونون أكثر عرضه للاتجار.

يدخل الاتجار بالأطفال ضمن أسوأ أشكال عمل الأطفال في اتفاقية منظمة العمل الدولية التي صادقت عليها 150 دولة حتى مايس (ماي) 2004. حيث باتت هذه الظاهرة في تزايد. فطبقاً لإحصائيات منظمة العمل الدولية فإن بين 200.000-250.000. من النساء والأطفال يتاجر بهم سنوياً في جنوب – شرق آسيا فقط. ويقدر بأن 1.2 مليون طفل يتأثر بهذا الاتجار سنوياً في العالم. وفي جنوب – شرق أوروبا 90% من النساء الأجنبيات العاملات في الدعارة يزعم بأنهن ضحايا الاتجار و10-15% منهن فتيات بعمر أقل من 18 سنة. ويجري الاتجار بالأطفال الأصغر من الفتيان والفتيات لغرض العمل القسري.(12)

الاتجار بالبشر والهجرة غير الشرعية

قبل حوالي 20 سنة، نالت الهجرة غير الشرعية اهتماماً أكاديمياً قليلاً، نسبيا، جزئياً، بسبب نقص المعطيات. هذا الوضع بدأ يتغير مع بدء العمل على توفير المعطيات بواسطة عمليات التنظيم القانونية للهجرة غير الشرعية الكبيرة الحجم، خصوصاً في الولايات المتحدة وأوروبا الجنوبية. ومنذ أواخر التسعينات، أنتج هذا النوع من الهجرة مادة مهمة للأدب السياسي والأكاديمي(13) مما ساهم في التعمق بدراسة هذا الموضوع.

الفكرة الشائعة عن الهجرة غير الشرعية أنها تدار من قبل مجموعات الجريمة المنظمة التي تنقل النساء والفتيات من بلد إلى آخر وتجبرهن على العمل في الدعارة. ويتاجر بالرجال والفتيان أيضا لغرض الاستغلال الجنسي. لكن تشير البحوث بأن الرجال والنساء والأطفال يتاجر بهم لغرض استغلالهم في أعمال غير جنسية مثل العمل أو الخدمات حيث عموماً تكتسي هذه الأعمال طابعاً شرعياً. حديثا، عام 2002 توسع مفهوم جريمة الاتجار بالبشر ليشمل أيضاً الاستغلال بالعمل غير الجنسي. وتوفر البحوث الدليل بأن الاتجار بالبشر للعمل، خصوصا، في الخدمة المنزلية لا يقتصر على القطاع الخاص بل يتعداه إلى القطاع العام. لذلك عد الاتجار بالإنسان لغرض استغلاله في العمل، أحد أشكال هذه الظاهرة وهو جريمة حيث من خلاله ترغم أو تخدع

الضحايا على العمل وتحت سيطرة الآخرين الذين يبحثون بطريقة فظة ولا إنسانية عن الربح من معاناة ضحاياهم.

ما يبدو بأنه اختيار المهاجر فإنه يصنف كاتجار بالبشر إذا تمت الموافقة الأولية للضحية باستخدام الخداع، أو الإكراه أو أية وسائل أخرى. وجرى استغلال المهاجر فيما بعد.،أي أن وسائل الموافقة بدلا من الموافقة بحد ذاتها تعد المسألة المهمة في تصنيف الهجرة الطوعية عن الاتجار بالبشر. ولابد من تحليل العلاقة بين الاتجار بالبشر والهجرة غير الشرعية. حيث من الممكن أن تكون الأخيرة أحد أوجه الاتجار. ويمكن أن يكون الاتجار، داخلياً. فمثلاً، في تايلاند نقل المواطنين من المناطق الريفية إلى المدن الكبيرة مثل بانكوك للعمل في الدعارة والاستغلال الجنسي يُعد اتجاراً بالبشر من قبل بعض المهتمين، خصوصاً، المنظمات الدولية غير الحكومية.(14)

في الممارسة العملية، غالباً، يصعُب إيجاد فرق واضح بين الهجرة الاختيارية والقسرية باستثناء العبودية. ونعرف بأن الكثير من المهاجرين لا يفهمون شروط عقد العمل الذي وقعوه ولا يمكنهم تذكر هذه الشروط. وتشير منظمة هيومن رايتش بأن وكالة العمل في بلد الأصل إذا لم تبلغ المهاجرين عن الظروف الواقعية التي ستواجههم في بلاد المقصد فإن هذا يعد نوعاً من الاتجار بالبشر.

وحسب المنظمة الدولية للهجرة يبلغ حجم العمالة المهاجرة العاملة في الخدمة المنزلية 1.2 مليون في السعودية و 600.000 في الإمارات العربية. وفي لبنان وطبقا لمسح 2005–2006 قدرت العمالة النسائية المهاجرة بحوالي 160.000 تنحدر بشكل رئيسي من سريلانكا (100.000)، والفلبين (30.000) وأثيوبيا (30.000). لذلك يمكن التقدير بشكل جيد بأنه يوجد أكثر من2 مليون من هذا النوع من العمالة في الشرق الأوسط. علماً، أن أعداداً غير قليلة منها تصنف كاتجار بالبشر.

دراسة عينة شملت النساء المهاجرات العاملات في الخدمة المنزلية في لبنان والمنحدرات من سريلانكا والفلبين وأثيوبيا بينت أن 31% منهن لا يسمح لهن بالخروج من المنزل؛ و34% لا يتمتعن باستراحة منتظمة. وبالنسبة لوقت العمل 65% يعملن 11 ساعة أو أكثر ؛ و42% يعملن 13 ساعة أو أكثر ؛ و31% يعملن 15 ساعة أو أكثر في اليوم وكثيرات أشرن بأنهن يكن تحت الطلب لمدة 24 ساعة في اليوم.(15)

الحقوق الواردة في المواد 13، 23، و24 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في 1948 تنتهك بشكل يومي بالنسبة للعمالة الأجنبية العاملة في الخدمة المنزلية في الشرق الأوسط. وهذا يتعلق بالمعاملة القاسية وغير الإنسانية والإذلال؛ حرية الحركة؛ حق اختيار العمل؛ ظروف ملائمة في العمل؛ الحق بالمساواة في الأجر لنفس العمل؛ الحق بتشكيل الاتحادات العمالية؛ الحق بالراحة والتمتع بوقت الفراغ؛ وتشمل المواد أيضاً تحديد معقول لساعات العمل وعطل دورية مدفوعة الأجر.(16) إن هذا الانتهاك للحقوق يرتبط بسيادة الأنظمة الاستبدادية في المنطقة التي لا تقر بحقوق مواطنيها فما بالك بالعمالة الأجنبية.

وتنطوي الهجرة غير الشرعية إلى أوروبا على ممارسات تصنف بأنها نوع من الاتجار بالبشر. حيث أصبح شمال المغرب موطناً لشبكات تهريب البشر المختلفة إلى أوروبا وبالأخص أسبانيا، وتتراوح هذه من المجموعات الإجرامية الدولية المنظمة إلى الصيادين الذين تحولوا إلى مهربين. ومعظم

التهريب لا ينظم من قبل منظمات إجرامية متماسكة، ولكن من قبل شبكات من الأفراد.

والعدد الأكبر من المهاجرين الأفارقة من دول جنوب الصحراء الذين يسافرون عبر المغرب ويدخلون أسبانيا بدون تأشيرة يأتون من الكاميرون، ساحل العاج، الكونغو، الكونغو الديمقراطية، غامبيا، غانا، غينيا، غينيا- بيساو، ليبريا، مالي، موريتانيا، نيجيريا، السنغال، وسيراليون، ويأتي مهاجرون من بقية دول غرب ووسط أفريقيا.

الكثير من هؤلاء لا يتوفرون على مبالغ مالية كافية لتغطية نفقات رحلتهم، لذلك يعملون وهم في الطريق باتجاه الشمال ويتعرضون للاستغلال. وقضاء عدة سنوات في الطريق من غرب أفريقيا إلى أوروبا هو أمر ليس بغير المألوف. عملياً، كل المهاجرين يعتمدون على مهربي البشر للوصول إلى شمال أفريقيا. وفي حالات غير قليلة يقع هؤلاء ضحية النصب والاحتيال من قبل المهربين وتتم المتاجرة بهم.

وفي الغالب، يتم إنزال المهاجرين في البحر مسافة 100 متر عن الساحل الأسباني ويجبرونهم على السباحة إلى الشاطئ. لذلك كثرت حالات الموت غرقاً.(17) وقد بذل المغرب وبدعم من الإتحاد الأوروبي جهوداً لمكافحة هذه النوع من الهجرة عبر أراضيه والذي تزايد حجمه منذ التسعينات لذلك تراجع عدد المهاجرين كثيراً.

الاتجار بالبشر في العراق

العراق لم يسلم من الاتجار بالبشر. ففي حزيران (يونيو) 2004 قَدم تقرير إلى الكونغرس الأمريكي يتعلق بالاتجار بالبشر وشمل هذا التقرير 140 بلدا يعتقد بأن لديها عددا مهما وبأشكال قاسية من ضحايا هذه الاتجار ويبين التقرير أن الاتجار أخذ طريقه نتيجة الحرب حيث يرد فيه: يشهد العراق مؤشرات على انبثاق مشكلات الاتجار بالبشر. فوجود السكان النازحين والنساء الأرامل وأخريات عرضة للإغراء وأطفال مفصولين عن عائلاتهم أو أيتام يعتمدون على المساعدة الإنسانية من أجل البقاء كل هؤلاء يكونون مصدرا للعمل المستغَل أو الجنس. في كثير من حالات ما بعد الحرب تستغل العناصر المجرمة انكسار حكم القانون ويأس العائلات المهددة ماديا حيث يجري خطف وإجبار وخديعة الأشخاص للعمل في الدعارة. وينتعش المتاجرون بالبشر أيضا في الحالات التي يضعف فيها القانون. إضافة لذلك هناك نقص في البنية التحتية فيما يخص الخدمات والحماية التي من المفترض أن تقدم إلى الضحايا. النقص في الخدمات الطبية والإرشاد والحماية من المحتمل أن يشجع زيادة وقوع الأشخاص كضحايا لهذا الاتجار. وكما رأينا في أماكن أخرى من العالم يزداد الطلب على البغاء مع وجود القوات الأجنبية والمغتربين والموظفين الدوليين الذين يتقاضون دخولا جيدة.

لسوء الحظ انتشار الإعلان عن الخطف من أجل الفدية الذي ظهر إلى السطح بعد نهاية العمليات العسكرية الرئيسية في ربيع 2003 بدأ يعطى مبررا للقلق الوارد في التقرير المذكور حيث بدأت تكتب التقارير في ذات السنة عن العديد من حالات الخطف من أجل المتاجرة بالإنسان. وجلب انتباه الإعلام خطف الكثير من العمال الأجانب في العراق وقتل العديد منهم. هؤلاء العمال يرغبون أصلا بالبحث عن عمل في البلاد (رغم أن بعض الحكومات لأسباب أمنية لم تشجع أو حتى منعت مواطنيها من البحث عن فرص العمل في العراق).

وقد ذكرت التقارير بأن هناك نمطا جديدا

من الاتجار بالعمالة المهاجرة انبثق بشكل واضح بسبب الفوضى وارتخاء متطلبات الدخول إلى العراق خلال المرحلة التي أعقبت الحرب.

مواطنون من بنغلاديش والهند والصومال ودول أخرى وعدوا بالعمل في الأردن من قبل الوكلاء المحليين الأردنيين والذين تقاضوا رسوما باهظة منهم. وكان بدلا من ذلك قد أخذوا عبر الحدود إلى الصحراء العراقية وتركوا هناك ليعيلوا أنفسهم. وطبقا لبعض التقارير الإعلامية فإن 1000 مهاجر على الأقل سقطوا ضحية هذا الاحتيال في مايس (ماي) 2003 وحاولوا العبور ثانية إلى الأردن بعد شهور قضوها في بغداد وأجزاء أخرى من العراق (في بعض الأوقات واجهوا حالة المواجهات العسكرية) بدون عمل وغذاء ونقود أو وثائق سفر صالحة وتأشيرات دخول.(18)

وكانت منظمة الهجرة الدولية والأمم المتحدة قد أطلقت مناشدة جديدة لحماية العاملين المهاجرين في العراق، ومنع الاتجار بالبشر، مع الكشف عن تشريد العشرات من العمال من جنوب آسيا في بغداد من دون وثائق ولا أموال تساعدهم على العودة إلى أوطانهم. وقد دفع هؤلاء في بلدانهم حوالي 3000 دولار من أجل البحث عن عمل، وتمت مصادرة جوازات سفرهم فور وصولهم من قبل مشغليهم.(19)

خلال عام2004 أجرت المنظمة الدولية للهجرة بحثا بعنوان " تقييم ميداني للاتجار بالبشر في العراق". وكان الهدف منه دراسة الاتجار، خصوصا، بالنساء والأطفال من وإلى العراق.

وكان يفترض أن تجمع معلومات من المجموعات التي تتعامل مع الضحايا وأولئك الذين يكونون عرضة لهذا الاتجار. ودراسة حجم واتجاهات الاتجار في السياق العراقي ووضع توصيات حول هذا النوع من الاتجار من وإلى العراق والمساهمة بتأسيس شبكة منظمات حكومية وغير حكومية(20) للتعامل مع هذا الموضوع.

وقد أشارت تقارير دولية متعددة عن حالات الاتجار بالبشر وعدت بعضها العراق كونه يمثل "الحالة الأسوأ" في العالم. وكانت وزارة الخارجية الأميركية في تقريرها السنوي حول الاتجار بالبشر لعام 2010 والذي تضمن تفصيلات عن هذه الممارسات في175 دولة منها العراق قد ذكرت ما نصّه أن "نساء وفتيات عراقيات، بعضهن دون سن الحادية عشرة، يخضعن لحالات الاتجار بالبشر كالعمل القسري والاستغلال الجنسي في داخل البلاد وفي سوريا ولبنان والأردن والكويت والإمارات العربية المتحدة وتركيا وإيران وربما اليمن.

وفي بعض الحالات، جرى إغراء النساء من خلال الوعود الكاذبة بمنحن فرص عمل. ومن أكثر الوسائل المستخدمة للاتجار بالبشر بيع النساء أو الزواج القسري". ويضيف التقرير إن "بعض أفراد العائلة يرغمون الفتيات والنساء على الدعارة كوسيلة للتخلص من ظروف اقتصادية يائسة أو لتسديد ديون أو لحل نزاعات بين الأُسر "مضيفاً أن" الاتجار ببعض النساء والفتيات يجرى داخل العراق لأغراض الاستغلال الجنسي عن طريق ما يعرف بزواج المتعة".

و"أن رجالا عراقيين انتهزوا هذه الوسيلة، أي زواج المتعة، للاتجار بعدة نساء بين المحافظات العراقية أو في دول مجاورة خاصةً سوريا، وذلك لإرغامهن على الدعارة." وتعود بدايات هذه الظاهرة إلى التسعينات بعد غزو الكويت في 1990 وفرض الحصار الاقتصادي على العراق

وتوسعت أكثر بعد احتلال العراق عام2003 ومـا نتـج عنه مـن ضعف الأمـن والاستقـرار واندلاع العنف الطـائفي والتهجير القسري وغيـاب القوانـين التي تكافـح الاتجار بالـبشر في العراق.

فيما يتعلق بالاتجار بالأطفال وكما نشرت صحفية "الغارديان" البريطانية بشأن تنامي هـذه الظاهـرة وإخضـاع الأطفـال المباعين لممارسات غير أخلاقية وشاذة. حيث كشفت عن أن 150 طفلاً يتم بيعهم في السـوق السوداء سنوياً بمبلغ يتراوح ما بين 200 و4000 جنيه إسترليني للطفل الواحد.

ونقلت عن تـاجـر أطفـال بـأن "أسعـار الأطفـال في البلاد أرخص من بلدان أخرى ونقلهم أسهل، وذلك راجع لاستعداد الموظفين الحكوميين للتعـاون مع التجـار وتـزويرهم بالشهادات والوثائق الثبوتية ."

و هذا رقم لأطفـال تقديري لا يستند إلى إحصـاءات دقيقـة. وأنه يتـم إخضـاع هـؤلاء الأطفال لممارسات غير إنسانية متنوعة من ضمنها ممـارسات جنسية، مشيرة إلى أن تراخي الحكومة وعدم قيامها بواجبها في فرض الأمن، وحـالة التسـيب التي تمرّ بـها الحـدود مع دول الجـوار، سبب رئيس في رواج الاتجار بالأطفال الذي يتم خلاله، ليس فقط بيع الصغـار في الـسن في السـوق المحلي، بل نقلهم إلى الخارج إلى الأردن وسورية وتركيا والبعض منهم يجري تسفيره إلى بعض الدول العربية والأوروبية، بما في ذلك سويسـرا وأيرلندا وبريطانيا والبرتغال والسويد.

ونتيجة لرواج هذه الظاهرة ارتفعت نسبة عمليـات خـطف الأطفـال، والـتي يقـوم الخاطفون بعدها ببيع الأطفال لقاء حفنة من المـال، إذ أن عصـابات الجريمـة المنظمة المتخصصة في ذلك والتي نشأت في البلاد يستفيد أفرادها من الفوضى التي مازالت في الشارع. ونظراً لعدم وجود جهة رسمية تهتم بهذه الظاهرة وبوضع حد لها، يجعل من الصعب الحصول على أرقام دقيقة عن الأطفال الذين يتم بيعهم سنوياً، فيما تعتقد الشرطة والمنظمات المهتمة بحقوق الإنسان، أن الاتجار انتعش وزاد بنسبة الثلث منذ عام 2005.(21) وهـذا يعكس حجم المـأسـاة المروعة التي تتعرض لها الطفولة في العراق في ظل غياب معالجة جذرية لها.

المعالجات

تمثل العلاقة بين الاتجار بالبشر والفقر والظروف الاجتماعية العنصر الأساس في أي فهم لأسباب الظاهرة. لذلك يجب إعطاء الأولوية للعلاج الممكن بدءاً من مجتمعات الأصل. في الـواقع العملي السيـاسـات الوطنية والدولية لمكافحة الظاهرة عملت القليل، نسـبيا، لإصلاح وضعية النسـاء اللاتي يجدن أنفسهن واقعات في قبضة شبكات الاتجار بالبشر. من جانب آخر، تتطلب المكافحة تضافر حقول معرفية متخصصة من أجل كشفها والتعامل معها بوسائل محددة.

أمثلة من ذلك تشمل تعزيز القانون الذي يعالج الإكراه خلال النقل، وتنظيم قانون الهجرة الداخلة، واستخدام العمل المستغل. بعض الدراسات الحقوقية المتعلقة بالجريمة تركز على الدعارة والهجرة غير القانونية (بعضها يكون تهريباً) وتجعل البحوث الاجتماعية التشريع أكثر فعالية لأنها تزيد المعرفة بالمعايير الثقافية والاستجابة المطلوبة للمعالجة.

ويلاحظ أن الكثير من السياسات الحديثة لمكافحة الاتجار بالبشر تعكس كلا من هيمنة أسلوب التجريم في الاتجار بالنساء والقلة

النسبية للحماية الحكومية وتوفير برامج المساعدة للنساء المتاجر بهن.

تجريم المشكلة يتبنى النهج القائم على أن السبيل الوحيد لمكافحة هذه "الصناعة البربرية" هي إلقاء القبض على المجرمين، وضبط الحدود، وزيادة امن الدولة. هذا النهج انعكس في قانون حماية ضحايا الاتجار في أمريكا، وبروتوكول منع وحظر ومعاقبة الاتجار بالبشر ضمن اتفاقية الأمم المتحدة للجريمة المنظمة عبر الحدود عام 2002، والقرار الإطاري للإتحاد الأوروبي، إضافة إلى بعض مواد اتفاقية الإتحاد الأوروبي لعام 2005.(22)

بتقديرنا إن هذه الإجراءات على أهميتها لا تكفي يفترض أن تتوفر حزمة من المعالجات تتعامل مع الأسباب الحقيقية في بلد الأصل والمقصد وتشمل الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية بمنهج مترابط.

كما أشار الأمين العام للأمم المتحدة يوم 18 كانون الأول (ديسمبر) 2010 في رسالته بمناسبة اليوم الدولي للمهاجرين"إنني أحث الدول الكثيرة جداً التي لم تصادق على الاتفاقية الدولية لحماية حقوق جميع العمال المهاجرين وأفراد أسرهم على التصديق عليها.

كما أدعو الأطراف في الاتفاقية إلى تكثيف جهودها للمساعدة في إعمال الحقوق المنصوص عليها في الاتفاقية. فالوضع غير القانوني للكثير من المهاجرين الدوليين يجب ألا يحرمهم من إنسانيتهم أو من حقوقهم"

حديثاً بدأت الدول الخليجية جهودا لمكافحة هذه الظاهرة تضمنت تأسيس لجان للتعامل معها مثل قطر عام 2005 والإمارات عام 2007 والبحرين عام2008، وهناك نية لدى الكويت لإلغاء نظام الكفيل الذي يُستغل في حالات غير قليلة للانتفاع المادي على حساب العمالة المهاجرة. عموماً هذه الجهود لم ترق لحد الآن للمستوى المطلوب.(23)

بالنسبة للعراق لا توجد معالجة جدية لهذه الظاهرة رغم وجود عدة فقرات تضمنها الدستور للحد من جريمة الاتجار بالبشر كما جاء في المادة 29/ الفقرة الثالثة التي تنص على (يحظر الاستغلال الاقتصادي للأطفال بصورة كافة وتتخذ الدولة الإجراءات الكفيلة بحمايتهم)، والمادة 37 / الفقرة الثالثة (يحرم العمل القسري السخرة والعبودية وتجارة العبيد "الرق" ويحرم الاتجار بالنساء والأطفال وتجارة الجنس).(24)

وكانت شذى عبد الملك مديرة عام العلاقات بوزارة العدل قد أعلنت في الملتقى العلمي لمكافحة الاتجار بالبشر الذي عقد في القاهرة في20 كانون الأول(ديسمبر) 2010، بأن "لدينا مشروع قانون معد من قبل مجلس شورى الدولة ومقترح من قبل وزارة الداخلية العراقية وهذا المشروع ملم بكافة الجوانب من العقوبات ومنفذي عمليات الاتجار وحصر حالات الاتجار ومعالجة الضحايا وغير ذلك"، لافتة إلى أن "العراق وقع على اتفاقية الجريمة المنظمة عبر الحدود الوطنية بموجب القانون رقم 20 لسنة 2007 وانضم إلى قانون الجريمة المقترح من الأمم المتحدة".(25)

إذن يتطلب الأمر، تعريف المجتمع بالاتجار لخلق رأي عام ضاغط يدفع البرلمان إلى الإسراع بتشريع القانون الذي يحرم الاتجار بل ويعاقب مرتكبيه بشدة وتنفيذه حيث العبرة ليست فقط بوجود القوانين وإنما أن تدخل حيز التنفيذ إضافة إلى ذلك لابد من ضبط الأمن وعودة الاستقرار والقضاء على البطالة والفقر والتفاوت الفاحش في

الدخول والاهتمام بالطفولة والنساء والرفع من مكانتها. وأن تكون هناك حملات منظمة ومستمرة لرفع وعي العائلات بمخاطر الاتجار ودوره في تفتيت وحدتها.

وبموازاة ذلك ينبغي أن تكون المعالجة شاملة، اقتصادية،اجتماعية،سياسية، ثقافية، لأن هناك، دائما،ترابطا، وتأثيرا،متبادلا، بين هذه المتغيرات والاتجار بالبشر.

1.Tom Obokata, Trafficking of Human Beings from a Human Rights Perspective, Leiden, 2006, p. 10.

2 .هاشم نعمة، أفريقيا دراسة في حركات الهجرة السكانية، ليبيا، 1992، ص 21–24

3. نفس المصدر، ص 21–24.

4. Anette B. and Rebecca S. Untold Stories, International Migration, Vol. 48 (4) 2010, pp. 2-3.

5. Andrea Di Nicola et al., Prostitution and Human Trafficking Focus on Clients, 2009, p.5.

6. Ray Jureidini, , Trafficking and Contract Migrant Workers in the Middle East, International Migration, Vol. 48 (4) 2010, p. 147.

7. International Migration Vol. 43 (1/2) IOM, 2005, pp.267-271.

8. Elizabeth M. et al, Economics of Human Trafficking, International Migration, Vol. 48 (4) 2010, p. 119.

9. طريق الشعب 23 شباط 2011.

10. Tom Obokata, op. cit., pp. 13- 18.

11. Jacqueline Berman, "Trafficked Women" International Migration, Vol. 48 (4) 2010, pp. 85-86

12. UN, Third Coordination Meeting on International Migration, 2004, p. 56.

13. B. Anderson and M. Ruhs., Guest editorial researching Illegality and Labour Migration, Population, Space and Place, 16, 2010, p. 175.

14. Tom Obokata, op. cit.,p. 22.

15. Ray Jureidini, op. cit.,pp. 144- 151.

16. Ibid, pp. 144- 151.

17. Jorgen Carling, Unauthorized Migration from Africa to Spain, International Migration, Vol. 45 (4) 2007, pp.12-23.

18. International Migration Vol. 43 (1/2) IOM, 2005, pp.267-271

19.جريدة الشرق الأوسط، 12 كانون الأول (ديسمبر) 2008.

20. International Migration, op. cit., pp.279-293

21 .طريق الشعب6 شباط 2011

22. International Migration, op. cit, pp.279-293

23. Ray Jureidini, op cit., pp. 146- 147.

24.طريق الشعب 23 شباط 2011.

25. موقع آكانيوز

القرار 688 فرصة للتغيير السلمي ضاعت

صادق البلادي (حمدان يوسف) ❖
عضو هيئة تحرير مجلة (الثقافة الجديدة)

مع ثورة الياسمين في تونس، وبخاصة بعد نجاح حركة 25 يونيو السلمية في مصر، بدأت رياح التغيير تهب في العالم العربي، وبدأت الروح تدب فيما تُوهم أنه قد بات جرحا ميتا لا يحس بما يجري في العالم من تغييرات. وفي خلال تلك الأيام والأسابيع كنا شهودا على تدخلات الأمم المتحدة والدول الغربية عبر تصريحات مسؤوليها وسياسييها منددة باستخدام العنف المفرط ضد المتظاهرين و المعتصمين في شوارع وساحات تونس ومصر، حيث صار ميدان التحرير، بما فيه من رمز التحرر، راية وعلما لهذا الحراك الشديد ، ذي الزخم القوي، ولكنه رغم ذلك ليس بالعنيف. وبعد هذا امتدت رياح المطالبة بالتغيير لتصل الى اليمن وليبيا والأردن والبحرين والعراق، والتمعت نذرها في الجزائر والمغرب وحتى في السعودية.، واشتعلت منذ أسابيع في سوريا البعث.

بعد أن انتهت الحرب العالمية الثانية بالقضاء على الفاشية ومعها الأمل في إقامة نظام عالمي جديد يسوده السلام وتتحقق فيه الديمقراطية وحقوق الإنسان. واعتمادا على الاتفاقيات بين قادة الدول الكبرى المساهمة في الحرب، والإعلانات الصادرة عنها، تم إقامة منظمة الأمم المتحدة، آخذين دروس عصبة الأمم بنظر الاعتبار. وبصدور ميثاق هيئة الأمم المتحدة بشكله الديمقراطي، الذي يضمن حقوق حتى الأمم المُستعمَرة والصغيرة،حيث أكدت الديباجة الإيمان بالحقوق الأساسية للإنسان وبكرامة الفرد وقدره وبما للرجال والنساء والأمم كبيرها وصغيرها من حقوق متساوية، غير أنه جرى تثبيت مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء. كما أكد الميثاق في ما نصت عليه الفقرة ٧ من المادة الأولى، إلا في حالة تطبيق تدابير القمع الصادرة وفق الفصل السابع من الميثاق، والخاصة بقرارات يتخذها مجلس الأمن عند حدوث

تهديد أو خرق للأمن والسلم الدوليين.

وجـرى التـأكيـد عليه في المـواثيق و الاتفـاقيـات اللاحقـة، وأكدت عليه بـشكل خـاص دول العالـم الثالث ، الـتي تحررت من السيطرة الكولونيالية، سواء دول باندونغ أو دول عدم الانحياز فيما بعد. لقد جرى إقرار هـذا المبدأ في ميـثـاق الأمم المتحدة. وتمت صياغته في ظروف تكون رأي عام ديمقراطي عـالمي واسـع وكبير، أوربيـا وعـالميا، خلال سنوات النضال المشترك، والتحـالف العالمي أثناء الحـرب العالميـة الثانيـة ضد الفـاشية ، وفي سبيل الديمقـراطية والسـلام، وكان هذا قبل تفـكك التحالـف ونشوب الحـرب الباردة، وتسعيـرها في الصـراعات داخل الدول عبر تقـديم المسـاعدات والإسناد لهـذا الطرف أوذاك، وحتـى إشعـال مواقـد لحروب وكـالة عن المعسكـرين ،وكل يـرغب في تقـوية و ضمـانـة مصـالحه، وإن بـاسم الـتضـامن و مسـانـدة الشـعوب في نـضالاتـها، أو بـاسم مساعدة الدول أمام الخطر الشيوعي.

لـقد شكل تثبيت هذا المبدأ خـطوة هـامة نحـو تحـرر الـشعـوب المستعمـرة والتـابعـة وتخلـصهـا من الـسيطـرة الإستعمـاريـة والإمبريـاليـة، وسـاعـد الـشعـوب علـى نيل استقلالهـا، ودافعت الدول المستقلة حـديثا و حركـات التحـرر الوطني عن هـذا المبدأ من أجل تثبيت حقهـا في اختيـار نهج تطورها اللاحق، وفي انتهـاج سيـاسـة خـارجيـة مستقلـة. وكـان هـذا المبدأ انتصـارا كبيـرا للشـعوب، ولـيس للـدول الغـربيـة التي كـانت تستعمر شعوب آسيا وأفـريقيا، وتهيمن على أمريكـا اللاتينيـة، دون أن تتخلى بـالطبع عن التدخل بأسـاليب أخرى تحاول التستر عليها. غير أن الكثير من هـذه الدول أبتليت بـأنظمة قمعيـة استبداديـة استندت علـى هذا المبدأ لتواصل اغتصابها لـسيادة الشعب، وخرقها المـواثيق الـدوليـة التـي صادقـت عليهـا، مثل مـيثاق الأمم المتحـدة ولائحة حقـوق الإنسان، واستطاعت هذه الدول أن تستفيد من ظروف الحرب البـاردة، التي جـعلت من غير الممكن بحـث وضـع حقـوق الإنسـان في أيـة دولـة بـاعتبـار ذلك شأنـا من الشـؤون الداخـلية لا يجوز التـدخل فيه وفقا للـفقرة السـابعة من المـادة الأولـى من ميـثـاق الأمم المتحـدة. واستفـادت سلطة البـعث الفـاشي من هـذا الـفهم الـذي كـان مـا يـزال سـائـدا في تلك الأيام. فقد رفض مجلس الأمن وكذلك اللجنة الاقـتصـاديـة الاجتمـاعيـة التي كـانت لجنـة حقـوق الإنسـان تـابعـة لهـا، قـبل أن تتحـول نفسها الى مجلس حقـوق الإنسان فيما بعد، رفض طلب الاتحـاد السـوفييتي عام 1963، الطلب الـذي تقـدم به عندما بـدت نذر قـيام حكم انقلاب شـباط شـن حرب ضـد الأكراد بـاعتبـار الحـرب سيـاسـة إبـادة جنس (جينوسـايد)، وكان الـرفض مستندا الى أن هـذه مسـألـة داخليـة لا يجيـز ميـثاق الأمم المتحدة التدخل فيهـا، وفقا للفقـرة السـابعة من المادة الأولـى المذكورة. وتكرر ذلك بـعد عـودة البـعث الفـاشي الـى الحكم بـانقلاب تموز 68 وقيامه بـتنفيذ الإعدامات العلنية في سـاحة التـحرير بـذلك الشكل البـشع وإجبار الناس علـى مشاهـدة الجثث المعلقـة وإدخال الـرعب والخوف في نفوس الناس، فقد رفض المندوب الأمـريكي في رسـالـة الـى مجلس الأمن السماح ببحث الموضوع بحجة أن لأية حكومـة الحق المشـروع في تقديم مـواطنيها للمحاكمة وتنفيذ الأحكام الصادرة بحقهم.

وحتـى في آذار 1988 لـم يتخـذ مجلس الأمن أي إجـراء عنـدمـا قـصـف الجيش العـراقي مدينة حلبجـة بالأسلحـة الكيمياوية

تنفيذا لأوامر المجرم صدام حسين، وعلي حسن المجيد (علي كيمياوي)، وكان ذلك قبل صدور القرار 688.(للتذكير كان الطيار العراقي للطائرة التي قذفت حلبجة بالأسلحة الكيمياوية معتقلا في كردستان وجرى تهريبه قبيل تقديمه للمحكمة الجنائية، ولم تتخذ حكومة المالكي، وحكومة الإقليم أية خطوات لإلقاء القبض عليه عبر الإنتربول)!

في كتاب " التاريخ بدأ في سومر "عدَدّ صموئيل كريمر 27 حدثا شهد العالم بداياتها الأولى في العراق، مثل أول الحروف وأول مدرسة، وأول عجلة، وأول القوانين وأول حادثة رشوى، ووو وفي القرن العشرين كان العراق أول دولة عربية يحصل استقلاله " الشكلي" ويصبح عضوا في عصبة الأمم عام 1932، وأول دولة تتخذ هيئة الأمم قرارا بشأنه يجيز التدخل في الشؤون الداخلية للدول ذات السيادة والعضوة في الأمم المتحدة من أجل كفالة حقوق الإنسان، وذلك بإصدار قرار مجلس الأمن رقم 688 في 5 نيسان 1999، قبل 20 سنة. وقد أثار صدور القرار نقاشات كثيرة متباينة حول هذا المبدأ بين فقهاء القانون الدولي. ومن المعروف أن كلا من كوبا واليمن و زمبابوي، الأعضاء غير الدائمين في مجلس الأمن عند صدور القرار قد عارضت القرار بذريعة أنه يشكل تدخلا في الشؤون الداخلية للدول الأعضاء. ولكن مع صدور هذا القرار بدأ يتثبت حق بل مسؤولية المجتمع الدولي في التدخل الإنساني. ففي حزيران عام 1991 جرى التوقيع على اتفاقية دولية ورد فيها إقرار" حق الدول الأعضاء التدخل لوضع حد لانتهاكات حقوق الإنسان و القوانين الدولية " و في كانون الأول من نفس العام صدر قرار للأمم المتحدة ينص على إمكانية تدخل الأمم المتحدة للمساعدة في إجراء انتخابات في إطار عملية سلام إقليمية أو عالمية، أو بطلب من دولة معينة ذات سيادة". وما من شك في أن إقرار مبدأ التدخل السلمي الذي دشنه القرار 688 يمكن استغلاله من الدول المهيمنة لتحقيق مصالحها ومطامعها و فرض إرادتها على الشعوب لكن المنطق السليم لا يقبل برفض ما هو سبيل و صائب لمجرد احتمال استغلاله، إنما المنطق السليم يتطلب العمل من أجل فرض آليات محددة تعرقل و تقطع الطريق بوجه إمكانية استغلاله.

وفتح هذا القرار إمكانية الاستناد عليه لتحقيق خيار سلمي، ديمقراطي للتخلص من النظام البعثي الفاشي، وعدم التركيز فقط على ما كان يسمى في حينه بالعمل الميداني، أو الانتفاضة المسلحة أو الإنقلاب العسكري، أو الغزو الدولي، وتحقيق الخلاص من صدام بمثل هذا السبيل كان يمكن أن يشكل ضمانة أقوى في أن لا يصبح النظام الذي يخلف نظام صدام نظاما دكتاتوريا، بل يكون نظاما ديمقراطيا حقا، نظاما تعدديا فدراليا، يستند على القانون، ويأخذ بالتداول السلمي للسلطة. ولكن ذلك كان يتطلب ما يشبه الانقلاب في التفكير السياسي العراقي، والعودة الى تغليب أساليب النضال الجماهيرية السلمية، وحشد الرأي العام العالمي الذي بات يساند التغييرات السلمية و لا يميل الى مساندة الكفاح المسلح بعد، كما كان في العقود السابقة.

إن القرار 688 كما هو معروف قد صدر إثر قيام نظام البعث الفاشي بضرب وتصفية الإنتفاضة الشعبية بوحشية في الجنوب وكردستان العراق في آذار 1991، وما نتج

عن ذلك الهجرة المليونية من كردستان العراق الى تركيا وإيران، وكانت من نتائجه المباشرة تأمين عودة الغالبية العظمى من المهاجرين، الى مواطنهم في كردستان، واضطرار الحكومة العراقية الى توقيع مذكرة تفاهم مع الأمم المتحدة سمحت فيها بدخول قوة بوليس دولية لتأمين عودة اللاجئين، تحل محل القوات الأمريكية والبريطانية والفرنسية التي أقامت منطقة الحظر الجوي لأسباب إنسانية رغم معارضة الحكومة العراقية لذلك. ومن النتائج المباشرة لهذا القرار خلاص منطقة إقليم كردستان من حكم البعث، وفسح المجال لإجراء أول انتخابات في إقليم كردستان عام 1992، وفي ذكرى الانتخابات الكردستانية تلك أشار د.كمال كركوكلي، رئيس برلمان كردستان، يوم 2011/5/18 الى " إن العامل المساعد الوحيد في تلك الفترة كان وجود عملية بروفايد كومفورت شمال خط العرض 36 التي كانت تعرف بمنطقة حظر الطيران، التي فرضتها قوات التحالف لحماية كردستان"

أصدر الحزب الشيوعي في 15 نيسان 1991، بعد عشرة أيام على صدور القرار، بيانا للرأي العام العربي والعالمي، طالب فيه " تمكين شعبنا من تقرير مصيره وإجراء انتخابات حرة مباشرة بحضور مراقبين من هيئة الأمم المتحدة لإقامة مجلس تأسيسي يسن دستورا ديمقراطيا للبلاد، ويؤمن الحريات الديمقراطية للشعب العراقي كله، والحقوق القومية للشعب الكردي والحقوق الثقافية والإدارية للأقليات القومية، ويقر التعددية السياسية، ويضمن قيام دولة القانون، ويعزز وحدة وطننا، أرضا و شعبا وكيانا، ويدرأ مخاطر تمزيقه، ويصون استقلاله وسيادته الوطنية"، كما طالب المؤتمر الخامس للحزب عام 1993 بإلزام النظام بتنفيذ القرار 688، مثلما طالب بإصدار قرار من مجلس الأمن يقضي بإجراء انتخابات ديمقراطية تحت إشراف الأمم المتحدة، وجرى التأكيد على قرار 688 في المؤتمر السادس للحزب الشيوعي.

ولقد تابع المؤتمر الوطني وقوى المعارضة القرار 688 ودعوا الى تطبيقه، إلا أن الدول المهيمنة كانت غير جادة في تطبيق هذا الخيار المحتمل، بل انتهجت موقف تجاهل تطبيقه، فاختارت أمريكا نهج الحرب فأصدرت عام 1996 قانون تحرير العراق، وقدمت المساعدات المالية بالملايين للمعارضة، لتعدهم لقبول الحرب سبيلا للخلاص من النظام. ونشطت جمعيات حقوق الإنسان العراقية في أوربا للدعوة لتطبيق القرار 688 فأرسلت الوفود الى بعض المنظمات الدولية، وأقامت اعتصاما في بروكسل، وعقدت ندوة في برلين في الذكرى السابعة لصدور القرار تحت شعار " من أجل تنفيذ القرار 688، ومن أجل الديمقراطية وحقوق الإنسان في العراق ومن أجل رفع الحصار الدولي عن الشعب العراقي من 4–5 نيسان 1998، أصدر عدة قرارات، ودعا لاعتبار يوم صدور القرار يوما عالميا للتضامن مع الشعب العراقي، وتشكيل لجنة تنسيق بين جمعيات حقوق الإنسان العراقية. وتبنت المنظمة العراقية لحقوق الإنسان/ ألمانيا (أومريك) متابعة الدعوة لتطبيق القرار، فتشكلت في الذكرى العاشرة لصدور القرار في مدينة كيمنتس/ ألمانيا " مبادرة 688 " من عدد من المنظمات و الشخصيات العاملة في مجال السلم وحقوق الإنسان ، شعارها : " رفع الحصار و احترام حقوق الإنسان " أصدرت

نداءا دعت فيه الى المطالبة " برفع الحصار الاقتصادي ، ومن أجل تطبيق القرار 688 والعمل على وقف تصدير الأسلحة الى المنطقة، وتشجيع اتخاذ إجراءات نزع السلاح لتشمل إقامة منطقة خالية من أسلحة الدمار الشامل في الشرق الأوسط... إن تنفيذ القرار 688 يفتح سبيلا سلميا لإقامة نظام ديمقراطي، يضمن لكردستان العراق حلا فيدراليا، ويعمل من أجل الاستقرار والحل السلمي في المنطقة" وتطور هذا النداء ليصبح النداء المعروف الذي صدر قبل حرب الخليج الثالثة : " لا للحرب لا للدكتاتورية"، والذي لقى صدى واسعا بين المتظاهرين في ألمانيا المشاركين أيام التظاهرة التي شملت العالم يوم 15 شباط 2002، والتي اعتبرتها النيويورك تايمز بداية تشكل قطب جماهيري عالمي يواجه أمريكا، لكن هذا القطب لم يستطع وقف الحرب على العراق ، ولم يمكن ترسيخه لمدى طويل، فضعف، وازداد الأحباط و اليأس، لكن هبة الربيع العربي التي بدأت شرارتها من تونس أنعشت النفوس وبينت أنه تبقى دائما خلل الرماد وميض نار، يؤجج الشباب جذوتها.

وأفتخر أن هذا السعي ، وخاصة في إطار " مبادرة 688 " كان وراء ترشيحي وانتخابي في المؤتمر التأسيسي لـ " المجلس العراقي للسلم والتضامن " المنعقد في 10/31/ 2003 الى هيئة رئاسة المجلس ، والى منحي جائزة السلام التكريمية لمدينة كيمنتس / ألمانيا في آذار 2009.

* في ظروف العمل في عراق البعث في السبعينات اقترح الحزب علي اختيار إسم مستعار للكتابة الصحفية، لكوني شيوعيا غير معروف لدى أجهزة الأمن آنذاك ، فاخترت إسم **حمدان يوسف**، تقديرا وإكراما واقتداءا، لا تشبها، بحمدان القرمطي ويوسف سلمان فهد، فعرفت بهذا الاسم ، حتى صار لي علما. وبدأت أنشر في الفترة الأخيرة باسمي الحقيقي (صادق البلادي) لذا ارتأيت، وقد بلغت الخامسة والسبعين هذا العام، ٢٠١١، عدم الكتابة بعد باسم حمدان يوسف.

ملف العدد

الاحتجاجات الشعبية
الواقع ... الرهانات ... الآفاق

الاحتجاجات الشعبية

الواقع ... الرهانات ... الآفاق

ذات مرة قال لينين: "**قد تمرّ عقود لا يقع فيها شيء يذكر، وقد تأتي أسابيع تقع فيها عقود**". والواقع أنه في خلال الأسابيع التي مضت منذ أن استشهد التونسي محمد البوعزيزي في يوم 17كانون الأول (ديسمبر) الماضي، انقلبت أوضاع العالم العربي رأساً على عقب.

كنا خلال الفترة الأخيرة شهود زلزالين سياسيين كبيرين حيث تمت الإطاحة بالرئيسين المصري والتونسي، تلتهما العديد من " الهزات الارتدادية " وما زالت المعركة مندلعة في العديد من البلدان. وتحت الرماد يغلي مرجل التغيير في بلدان عربية أخرى من بينها الجزائر وعُمان والأردن والسعودية وبلادنا التي شهدت تظاهرات واسعة في 2/25/ 2011 وما تلاها. فيما " يقاتل " أكثر من رئيس للبقاء في السلطة، وهزّت الاحتجاجات العديد من الأنظمة، الأمر الذي يعد تعبيرا عن أزمة عميقة تعاني منها كل البلدان العربية تقريبا، بهذه الدرجة أو تلك..

اتخذت الأزمات التي مرّت بها تلك البلدان والحراك المجتمعي مظاهر وأبعاداً مختلفة، واعتملت داخلهما وبسببهما تناقضات متنوعة وترتب عليهما تداعيات ونتائج تستحق وقفة تحليلية فاحصة؛ وصولاً إلى تحديد السمات الرئيسية للأزمة وطابعها العام، وبيان آثارها ونتائجها، وانتهاء باستشراف الاحتمالات والآفاق المستقبلية ثم بلورة أهم خلاصاتها الكبرى كدروس مفيدة للعمل اللاحق.

يتضمن الملف عدة مساهمات تحاول كلا منها الاقتراب من الظواهر موضوعة البحث والإجابة على أسئلتها المتنوعة.

وإذ تستهل (**الثقافة الجديدة**) في هذا العدد، الحوار حول الحراك الاجتماعي الذي شهدته العديد من البلدان العربية والذي تنوعت أشكاله، فإننا لا نعتبر الأمر منتهيا بل تقتضي ضرورات بناء معرفة دقيقة عن واقع مجتمعي يتحرك باستمرار أن نبقي الباب مفتوحا لمساهمات جديدة. وإذ نشكر المساهمين في هذا العدد على ما قدموه من قراءات لما حدث، نؤكد على أن الباب يبقى مفتوحا لمن يرغب بالمساهمة في تقديم رؤيته لتفسير الحراك الاجتماعي الذي تشهده مختلف البلدان العربية.

(الثقافة الجديدة)

ديمقراطية التظاهر والتظاهر بالديمقراطية

الأستاذ الدكتور عبد الجبار احمد عبد الله

د. عبد الجبار احمد عبد الله، من مواليد بغداد 1965، استاذ النظم السياسية في جامعة بغداد /كلية العلوم السياسية، دكتوراه علوم سياسية / كلية العلوم السياسية - جامعة بغداد. له العديد من البحوث المنشورة التي تتناول قضايا الديمقراطية وحقوق الانسان والشرعية والاحكام العرفية والطوارئ في " العالم الثالث " والبلدان العربية.

لا يستطيع أي نظام سياسي أن يدعي وصلاً بالديمقراطية ما لم يتقبل قولاً وفعلاً الحق بالتظاهر، باعتبار أن هذا الحق سيكشف العيوب المستورة وغير المستورة الموجودة في ذلك النظام وبما يقود الى تقويم المسارات ويحقق التفاعل والتواصل مابين القمة والقاعدة الاجتماعية، ويحقق مبدأ أصيلاً في السلطة أن المناصب هي تكليف وليس تشريف.

ولذلك نجد التظاهرات، حقاً أصيلاً في جميع الدول الديمقراطية حين يتظاهر المواطنون لإيصال صوتهم بوسائل شتى، ولكنها جميعها سلمية، وهي ممارسة لا تحتاج الى ادعاءات أو تزويق أو مراءاة بالطريقة التي تصبح حق التظاهر، حب الظهور لأن الفارق بينهما كبير.

وبالعكس نجد أن الحق بالتظاهر في الدول غير الديمقراطية تحول الى معنى مغاير لتأخذ معنى المسيرات الحاشدة.

وإذا ما أردنا أن نقارن بين نظامين نجد أن التظاهر في البدء يكون الحشد طوعياً مرهوناً برفع مطلب مقبول ومعقول ومناخ ديمقراطي، أما التظاهر فيكون اكراهياً أو ترغيبياً أو ترهيبياً ... والأولى حتى أن لم تدعِ أنها ديمقراطية أو تتظاهر بذلك فهي واقعة ضمن النطاق الديمقراطي، إما الثانية

فهي دكتاتورية وأن ادعت خلاف ذلك.

وبالمقابل نستطيع القول، هناك فرق مابين الديمقراطي المتظاهر والمتظاهر بالديمقراطية، فالأول متأصلة فيه كل المبادئ الديمقراطية ومن دون انتقائية في التعامل معها كوظيفة وكأداة للتعامل وكفلسفة لفهم الحياة، ومن الطبيعي أن يتقبل فكرة التظاهر والقيام بالتظاهر سعياً لتحقيق مطالب محدودة من غير إهماله من ان هناك وسائل سلمية عديدة ومتنوعة يمكن أن تحقق الغرض المقصود أيضا... ولذلك فأن هذا الديمقراطي المتظاهر لا خوف منه ولا خوف عليه بل لابد من أن تمكنه السلطة والحكومة من القيام بهذا الدور لأنه سيقود الى تحقيق التطابق مابين ادعاء النظام السياسي بأنه ديمقراطي ومابين التطبيق الفعلي لهذا الادعاء.

إما المتظاهر بالديمقراطية، فهو كل من يحاول ان يستفيد من مناخ الديمقراطية واستغلال لكل السبل التي يوفرها النظام الديمقراطي. وهو بالوقت نفسه كاره لها، لكنه يرتدي زياً تنكرياً جوهره الرفض للديمقراطية ومظهره التمسك بها. وهذا النوع هو الذي يثير المخاوف منه وعليه.

وفي إطار تحليل وتقويم معطيات التظاهرات التي حدثت في (25/شباط/2011) ومازالت متواصلة فيمكن القول:

1- من حيث المكان:

ان اختيار ساحة التحرير في العاصمة بغداد فيه ايجابية كبيرة لما فيه من رمزية عالية، حيث نصب الحرية ورائعة جواد سليم وأسم الساحة (التحرير) لما تمثله من قدسية المقصد.

إلا أن اقتصارها على الساحة وحدها يقيد التظاهرة من زخم التفاعل ما بينها وأمكنة أخرى في العاصمة أو في محافظات أخرى التي نلاحظ انها اختارت مجلس المحافظة مكاناً للتظاهر ويبدو انها لم توفق في اختيارها للمكان كما وفقت من اختيار ساحة التحرير ولربما تضرروا من هذه التظاهرات أن لم يكونوا من المؤيدين أو المشاركين فيها.

2- من حيث التوقيت والزمان:

ان اختيار يوم الجمعة للتظاهر فيه ايجابيات أكثر من السلبيات فالايجابية الأولى تتمثل المعنى الاعتيادي للتظاهرة الديمقراطية، لكننا نلاحظ أن الحشد المتحقق لم يصل الى الحشد الذي أدركته القوى المتظاهرة في مصر واليمن...

وكما أن الجمعة لا تعمل فيها الدوائر الرسمية والتي من شأنها أن تعطل انتظام الدوام والنظام في الدوائر.

إما من حيث التوقيت لعمر الحكومة فالحكومة مازالت في سنتها الأولى وهي غير مكتملة الأركان، ولذلك قد يعتقد البعض ان هذا التوقيت غير أو غير صالح للتظاهر، وكان من الأجدر الانتظار لسنة قادمة على اقل تقدير، مع أن المتظاهر كان محملاً بصورة إخفاقات لمجلس النواب السابق أو الحكومة السابقة...

3- من حيث التواتر والتكرار:

التظاهرة التي خرجت في (25/شباط/2011) كانت هي الأولى من نوعها من حيث العدد ومن حيث الشعارات (كثر العدد أم نقص) (قبلنا بالشعارات أم لم نقبل)، وهي الأولى التي اختلفت عن الحشود التي خرجت إثناء الانتخابات (2005) وصعوداً، أو المسيرات التي خرجت في العاصمة وبعض المحافظات.. إلا أن زخمها بدأ

يضعف شيئاً فشيئاً وهذا يكشف عن وجود خلل ذاتي في آليات التظاهر أو خلل موضوعي يتعلق بالفهم الصحيح أو الخاطئ للتظاهرة.

والتواتر والتكرار إذا ما بقي بصيغته الحالية فأنه لن يقود لوجود تغيير حقيقي سواء من حيث الاستجابة أو من حيث النجاح، وما لم تحصل نقلة نوعية في فعل التظاهرة أو كمية الحشد فلا يمكن التعويل على مردود هذه التظاهرات.

4- من حيث الأهداف والشعارات المرفوعة:

من الطبيعي ان يكون لكل متظاهر مطالب محددة تحدد بشعارات مرفوعة قد تتنوع من سياسية واجتماعية واقتصادية الخ.. والمطالب التي رفعت في (25/شباط/2011) غالبيتها اجتماعية وليس سياسية مما يقتضي البحث الجاد عن الحلول التي من شأنها أن ترضي أصحاب تلك المطالب التي لا يستطيع احد ان يعترض عليها او ينكرها أو لا يشجعها. و أي توجه يرمي الى غض النظر عنها أو عدم البحث عن حلول لها سيحولها من مطالب اجتماعية الى مطالب سياسية ومن هذه اللحظة يتحول التظاهر من مبدأ أصيل بالديمقراطية الى أداة للتسلط السياسي مابين مكونات حكومة لم ترتقِ حتى ألان بما لديها وهو وافر وكثير مقابل ما يمتلكه المواطن البسيط.

وربما يمكن رفع مطالب وشعارات سياسية، وهذا ليس فيه عيب، نطالب بتعديل مسارات العمل السياسي بما يؤمن ديمومة التحول الديمقراطي مثل المطالبة بالتخلص من جرثومة المحاصصة الطائفية (السياسية) وإطلاق فرص التعيينات وبشكل عادل ومتساو، ومحاربة الفساد المالي والإداري أو تفعيل أواصر الوحدة الوطنية وغيرها من المطالب.

ومن واجب الحكومة وأعضاء مجلس النواب العراقي الاهتمام بهذه المطالب الاجتماعية السياسية، لكي تدرس وتبوب لمطالب آنية يمكن حلها ومطالب أخرى تحتاج لوقت ما وأخرى قد يتعذر كلياً تحقيقها لكن ينبغي أن تكون الاستجابة صريحة وشفافة وموضوعية.

5- من حيث المعالجات السياسية والأمنية:

في ظل غياب قانون ينظم حق التعبير عن الرأي وحق التجمع وحق التظاهر الواردة في المادة (38) من الدستور العراقي لسنة 2005، يكون من الطبيعي ان يكون سوء فهم من الحكومة وأجهزتها اتجاه التظاهر ومن أصحاب التظاهرات تجاه الحق من التظاهر، والمعالجات حتى تكون وافية وصحيحة لابد أن نجيب عن الأسئلة مفادها كيف نتظاهر؟ولماذا نتظاهر؟ ومتى نتظاهر؟ وكيف نتعامل مع التظاهرة؟

الأسئلة الثلاثة الأولى تتعلق بالراغبين بالتظاهرة، والسؤال الأخير يخص الحكومة وأجهزتها والإجابة التشريعية والقانونية والمفقودة حتى ألآن يتحملها أعضاء مجلس النواب، ولذلك نجد التداخل بالصلاحيات والاختصاصات بين وزارة الداخلية ووزارة الدفاع ومجلس محافظة بغداد وفي جوانب كثيرة.

ولذلك أيضا اختلطت المعالجات وتقدمت الأمنية على ما سواها وهذا ليس بالصحيح، مع إدراكنا أن الحكومة وأجهزتها تريد أن تحمي حقوق من لا يريد التظاهر أولاً وتوفير

الأمن والنظام؟ ومن المتصيدين بالماء العكر أو المبغضين للمسار الديمقراطي في العراق، وينبغي تغليب المعالجات الاجتماعية والاقتصادية على المعالجات الأمنية وأهمها توفير الخدمات بالحد الأعلى أو حتى بالحد الأدنى.

والاصوب وسيلة لتقديم تلك المعالجات الاعتراف والإقرار من ان هناك خللاً في مسار النظام السياسي يحتاج الى تصحيح ووجود إخفاقات في الجانب الخدمي، وهذا الاعتراف سيعني تأكيد أن النظام السياسي الحالي هو ديمقراطي ويتقبل وجهة نظر أخرى مخالفة كانت أم معارضة طالما بقيت هي سلمية ودستورية لا بل وحتى إنسانية.

ومن يتصدى لهذا الاعتراف والإقرار إنما هي الحكومة في إطارها المدني وليس القتالي أو العسكري أو الأمني، لكي لا يحصل تصادم ما بين الحكومة وأصحاب المطالب من المتظاهرين، ومن ثم قد يتحول الموضوع الى سياق الحديث عن شرعية الحكومة، التي بالأصل مبنية بالشكل الديمقراطي. وهنا نذكر بقول (جان جاك روسو) (أن القوة لا تصنع الحق بل الحق هو الذي يصنع القوة). والحق يقول أن أطراف الحكومة المختلفة هي التي اعترفت بهذا الإخفاق الخدمي عبر الاتهامات المتبادلة ما بين بعضهم للبعض الأخر و في إطار هذا الاعتراف لابد أن تكون الاستجابة جماعية تنفيذية وتشريعية (وبلدية على مستوى مجالس المحافظات) لتجاوز هذا الإخفاق سعياً لتفعيل منطوق السلطة الزاهدة والخادمة.

الحجاجات الشعبية وبناء الشرعية الديمقراطية

د.لطفي حاتم

الدكتور لطفي حاتم من مواليد 1946، عميد كلية القانون والعلوم السياسية في الجامعة العربية المفتوحة في الدنمارك، نشر الكثير من البحوث في مجلة (الثقافة الجديدة)، (النهج)، (الطريق) اللبنانية، مجلة الأكاديمية العربية المفتوحة. كما اصدر كتابين: الاحتلال وانهيار الدولة العراقية ، آراء وأفكار حول الطور الجديد من التوسع الرأسمالي. كما له كتاب قيد الطبع هو: موضوعات في الفكر السياسي المعاصر .

أحدث الطور الرأسمالي المعولم كثرة من التغيرات السياسية / الاقتصادية منها نهوض دول قومية جديدة أنتجها انهيار ازدواجية خيار التطور الاجتماعي ومنها عملية الاندماجات بين الشركات الكبرى في مراكز الهيمنة الدولية ومنها ميل العالم نحو بناء التكتلات الاقتصادية الدولية ومنها الديمقراطية وحقوق الإنسان.

أن كثرة التبادلات الدولية والوطنية التي صاحبت الطور المعولم من التوسع الرأسمالي تتطلب جهودا فكرية وبحثية كبيرة من قبل الباحثين والدارسين لهذا أرى ان نشترط حصر مداخلتنا بالتأثيرات الاقتصادية / السياسية التي احدثها التوسع الرأسمالي على البلدان العربية محاولين دراستها من خلال المحاور الأساسية التالية:ـ

أولاً: النظم السياسية العربية والتغيرات الاجتماعية.

ثانياً: الاحتجاجات الشعبية والسياسة الدولية.

ثالثاً:الاحتجاجات الشعبية ونتائجها التاريخية.

النظم السياسية العربية والتغيرات الاجتماعية

أ - النظم السياسية العربية وسماتها التاريخية.

عند استعراضنا لطبيعة الدول العربية ونظمها السياسية نجد الكثير من السمات المشتركة التي تحكمت في نشأتها

وتطورها التاريخي لهذا يمكن القول أن الدول العربية من الناحية التاريخية تعتبر دولا جديدة نسبيا نشأت بمساعدة خارجية اشترطها الطور الثاني من التوسع الرأسمالي المتسم بالمنافسة بين مراكزه الدولية وبهذا المعنى فان نشوء الدول العربية لم يكن نتاجاً لصيرورة تاريخية نابعة من تطور المصالح الاقتصادية لمكوناتها الاجتماعية.

ـ ترافق بناء الدول العربية بمساعدة خارجية وسلبية أخرى تجسدت في غياب الكتلة الاجتماعية القادرة على بسط هيمنتها السياسية /الثقافية وما نتج عن ذلك من غياب المرجعية الوطنية.

ـ فشل الدول العربية على اختلاف نظمها السياسية من بناء موازنة سياسية اجتماعية بينها وبين تشكيلتها الاجتماعية ناهيك عن بناء مستلزمات وحدتها القومية.

ـ اتسمت النظم السياسية العربية باحتكار السلطة السياسية، غياب الديمقراطية السياسية وسيادة النزعة البوليسية انطلاقا من شرعيتين أساسيتين شرعية وراثية وأخرى انقلابية تغلفت (الشرعيتان) بأطر تاريخية أسرية أو أيديولوجية.

ـ تشارك كلا النموذجين ـ الوراثي والانقلابي ـ في احتكار الدولة للثروات الوطنية حيث زاوجت النخب الحاكمة بين احتكار السلطة والهيمنة الاقتصادية الأمر الذي ساعد على تحول القوى البيروقراطية الحاكمة الى قوى طبقية طفيلية جديدة تتسم بالنهب والاغتراب عن مصالح بلادها الوطنية.

ـ ان تحالف السلطة مع رأس المال المتلاحم والفساد الاداري أضاف شروخا جديدة بين السلطات الحاكمة وبين مكوناتها الاجتماعية وما نتج عن ذلك من سيادة العنف في الحياة السياسية.

ـ ترابطت سمات وخصائص النظم السياسية العربية المتسمة بالاستبداد السياسي مع سيادة أحزاب سياسية تسلحت بأيديولوجيات شمولية وأخرى عنصرية معتمرة الروح الانقلابية مترافقة ـ السيادة ـ وغياب التيار الليبرالي بسبب تبعثر قاعدته الاجتماعية وضعف فعاليته السياسية.

ان اللوحة السياسية لمنظومة البلدان العربية ـ السلطة، الأحزاب السياسية ـ جرى عليها الكثير من التعديل بعد انهيار ازدواجية خيار التطور الاجتماعي وسيادة السوق الليبرالية حيث بات معروفا ان الطور الجديد من العولمة الرأسمالية وشروطه الاقتصادية وأيديولوجيته الليبرالية اجبر الكثير من الدول على الأخذ بهيكلة اقتصادية تستند إلى ركائز أساسية(1) الخصخصة لقطاعات الدولة الإنتاجية/ الخدمية (2) تحرير الدولة من وظائفها الاجتماعية إزاء تشكيلتها الاجتماعية.(3) السماح للشركات الدولية بالمشاركة في الاقتصاد الوطني بعد اعتماد الاقتصاد الحر وسياسية الأبواب المفتوحة.

لقد احدثت اعادة هيكلة الاقتصاد واعتماد السوق الليبرالية في اغلب البلدان العربية الى كثرة من التبادلات الحاصلة على سلطة الدول وتشكيلتها الاجتماعية لذلك دعونا نتوقف عند تلك التغيرات.

ب – النظم السياسية العربية والتغيرات الاجتماعية

رافق بناء سلطة الدول العربية الكثير من الإشكالات السياسية الاجتماعية

الناتجة عن الركود الاقتصادي وتفشي البطالة بسبب السياسات الاقتصادية الفاشلة ناهيك عن هدر الثروات الوطنية على التسلح وبناء الأجهزة الأمنية/ البوليسية.

لقد تفاقمت تلك المشاكل بعد تجاوب هذه الدول مع الليبرالية الجديدة واقتصاد السوق الذي اشترطها الطور المعولم من التوسع الرأسمالي والذي شكل بداية لتهميش الدول العربية وتشكيلاتها الاجتماعية.

ان موضوعة تهميش الدول العربية وتشكيلاتها الاجتماعية تستمد شرعيتها من الوقائع التالية:

ـ أفضى تخلي الدولة عن وظائفها الاقتصادية بعد اعتماد الليبرالية الاقتصادية والأسواق الحرة الى تحولات كبيرة في السياسة الاقتصادية الوطنية ونتائجها الاجتماعية أهمها تزايد اغتراب سلطة الدولة عن مكوناتها الاجتماعية بسبب تحررها ـ الدولة ـ من التزاماتها الاجتماعية المتمثلة بالتشغيل وتطوير شبكة الضمان الاجتماعي وتدهور شروط حياة الشرائح الاجتماعية الفقيرة ووضعها أمام خيارات معيشية صعبة.

ـ اقترن اغتراب سلطة الدول العربية عن مكوناتها الاجتماعية بتحول القوى الاجتماعية الماسكة بالسلطة الى شرائح اجتماعية مستأثرة بالخيرات المادية خاصة تلك الفئات التجارية، المالية، العقارية ومالكي الأراضي الزراعية وفي هذا الإطار نلاحظ ان الشرائح الاجتماعية المتنفذة المتشابكة مع الجهاز البيروقراطي في الدولة ورغم تعدد فصائلها إلا ان بناءها الاجتماعي ووحدتها الطبقية لم يكتملا بسبب حداثة تشكلها واعتمادها على سلطة الدولة في صيانة مصالحها الطبقية.

– توصيف طبيعة القوى الطبقية الحديثة الناهضة في الدول العربية يكتمل بعد تحديد سماتها الجديدة المتمثلة بكونها قوى طبقية غير منتجة ومنها ان شرائحها المالية تشكل الفئات الرئيسية القائدة للقوى الطبقية الجديدة ومنها ترابطها والشركات الدولية عبر ما يسمى بالوكالة التجارية، وآخرها ان القوى الاجتماعية الحديثة لا يمكنها التحول الى كتلة تاريخية وطنية بسبب ترابط مصالحها الاقتصادية مع الشركات الاحتكارية الامر الذي وضع تطورها السياسي/ الاقتصادي في صلب ألازمات الاقتصادية التي يعيشها الاقتصاد العالمي.

– اعتماد الدول العربية على وصفات الليبرالية الجديدة واقتصاد السوق وما نتج عنه من ترابط الاقتصاد الوطني مع الشركات الدولية فضلا عن انتعاش الشرائح الطفيلية وتحكمها في توجهات سلطة الدولة أفضى الى تحول الكثير من القوى المنتجة الى قوى هامشية نتيجة لاختلال التوازن بين هياكل الدولة الاقتصادية وسيادة القطاعات الخدمية/ الاستهلاكية.

ـ ان تفكك الروابط الاقتصادية السياسية بين القوى المنتجة ساهم في تحولها الى كتل سكانية غير فاعلة سياسياً وما نتج عن ذلك من ميلين اساسيين الأول منهما هو تخلخل روابطها الطبقية والثاني تبعثر القوى والأحزاب المعبرة عن مصالحها السياسية بسبب غياب عدتها الفكرية والتنظيمية المتجاوبة والطور المعلوم من التوسع الراسمالي وما

نتج عنه من تحول الكتل الشعبية الى الاحتجاج المعبر عنه بانتفاضات جماهيرية مناهضة للفقر والاستبداد السياسي.

ـ شكلت الطبقة الوسطى الرافعة الاجتماعية للحركات الثورية واليسارية في العقود المنصرمة فضلا عن مساندتها لسلطة الدولة الوطنية الا أن الدور الاجتماعي للطبقة الوسطى تبدل نتيجة التغيرات الاجتماعية التي أحدثها الطور الاخير من تطور سلطة الدولة العربية الذي أدى الى حدوث حزمة من التحولات في بنية الطبقة الوسطى أهمها:

(أ) التباين الكبير بين صفوفها بسبب اندماج أقسام منها مع الشرائح المنتفعة من التغيرات الجديدة وتحول الأغلبية منها الى صفوف الكتل السكانية الفقيرة والمعدمة.

(ب) تزايد افتراقها عن سلطة الدولة حيث ان الطبقة الوسطى لم تعد تشكل قاعدة اجتماعية للنظم السياسية العربية بسبب اعتماد سلطة الدولة على القوى الطفيلية الجديدة.

(ج) تشابك روحها الاحتجاجية مع رؤيتها السياسية المطالبة بإعادة البناء الديمقراطي للدولة الوطنية.

الاحتجاجات الشعبية والسياسة الدولية

أحدثت الحركات الشعبية المطالبة بالإصلاح والتغيير الديمقراطي إرباكاً في مسار السياسة الدولية وتبدى ذلك الإرباك بين تأييد شعارات الحركات الشعبية المتجاوبة وحقها في بناء أنظمتها السياسية الديمقراطية وبين الخشية من إحداث تغيرات راديكالية تتعدى المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى وبهذا فقد أدى تسارع الاحتجاجات الداخلية في البلدان العربية الى تأخر دبلوماسية الدول الكبرى وتعثرها في اتخاذ القرار المتجاوب والتعهدات الدولية.

إن تغير مواقف الدبلوماسية الغربية تجاه الحركات الشعبية اشترطته كثرة من العوامل الوطنية والإقليمية أهمها: ـ

ـ تباين المصالح الاستراتيجية لمراكز الهيمنة الدولية أدى الى تأخر الإجماع الدولي في كيفية التعامل مع الحركات الشعبية وبهذا المنحى فقد ارتكز الموقف الدولي ـ رغم تباينه ـ على ثلاثة خطوط سياسية للحفاظ على مصالحه الاستراتيجية تمحورت بين الإدانة الدبلوماسية الناعمة للعنف وبين الصمت على انتهاكات الأنظمة الاستبدادية لحقوق الإنسان وأخيرا التدخل العسكري لأهداف إستراتيجية بذريعة حماية المحتجين.

ـ اندماج القوى الإسلامية في الحركة الاحتجاجية وعزوف فصائل الإسلام السياسي عن الأنشطة المتطرفة أفضى الى نزع مبررات التدخل الخارجي لصالح القوى الاستبدادية بحجة الإرهاب.

ـ ضعف المكون الطائفي في الحركات الشعبية المطالبة بالإصلاح والديمقراطية أفقد العامل الدولي حرية التدخل لصالح القوى الحاكمة ورغم ذلك فقد شكل المكون الطائفي أساساً لتدخل دول الخليج لصالح النظام البحريني لخشيتها من التوسع الفارسي وخوفها من انهيار أنظمة الشرعية الوراثية (**1**).

ـ أدى تشتت الحركة الديمقراطية المنبثق من ضعف تنظيمها وعدم انتشارها في المدن الكبيرة الى التدخل الخارجي

لغرض حمايتها من بطش النظم الديكتاتورية.

الاحتجاجات الشعبية ونتائجها التاريخية

بداية لابد من التأكيد على أن الشعارات السياسية التي حملتها الحركات الاحتجاجية تماثلت في مطالبها السياسية الهادفة الى إعادة بناء الدولة الوطنية على أسس ديمقراطية. ورغم ذلك التماثل فإن المطالبات السياسية تباينت لدى الحركات الشعبية بسبب اختلاف شكل الحكم في الدول العربية وطبيعة المؤسسات التمثيلية التي اعتمدتها النظم الاستبدادية.

على أساس تماثل تلك الشعارات السياسية دعونا نتابع التغيرات التي فرضتها المطالبات الشعبية على النظم السياسية وأجهزتها السيادية (2).

1- **المؤسسة العسكرية.** مثل انحياز المؤسسة العسكرية الى جانب الحركات الشعبية ومطالبها السياسية تطورا نوعيا في مسار المطالبات الديمقراطية وعاملا في حسم النزاع السياسي لصالح القوى المطالبة بالتغيير وقد ارتكز هذا الانحياز على كثرة من الأسباب منها تشابك روحها الوطنية مع تطلعاتها القومية، ومنها حيازتها وأدارتها لكثير من المصانع العسكرية ذات الأهداف الاستراتيجية ومنها الخشية من تهميش دورها في الحياة السياسية وآخرها تغيرات استراتيجيتها العسكرية المتمثلة بتعزيز مهمتها الدفاعية وايكال إدارة سلطة الدولة الى قوى سياسية مدنية.

2 ـ **الأجهزة الأمنية.** شكلت الأجهزة الأمنية أدوات قمعية بيد السلطات التنفيذية وبهذا فقد تجلت وظائفها الأساسية في الهيمنة على آليات القمع الدموي الموجه ضد القوى الديمقراطية وكسر قوة المنتفضين.

ان الوظيفة القمعية للأجهزة الأمنية والاستخباراتية في النظم الاستبدادية تحولت وبسبب غياب الرقابة الشعبية الى أجهزة خاصة لحماية الأنظمة الاستبدادية فاقدة بذلك سماتها الوطنية لذلك فقد اشترط التغيير الديمقراطي حل الأجهزة القمعية وتحويل وظائفها لخدمة النظام السياسي الديمقراطي.

3 - **الحزب الحاكم.**

طالبت الاحتجاجات السلمية بتفكيك البنى السياسية للنظم الاستبدادية وإلغاء شرعية المؤسسات التشريعية والمجالس البلدية ناهيك عن نزع شرعية الأحزاب الحاكمة بعد أن أحدثت الحركة الاحتجاجية خللاً في أبنيتها القيادية بعد انحياز بعض طواقمها الى صفوف الحركة الشعبية.

لقد تزامنت تلك المطالبات مع تعرية رموز الفساد الاداري التي استحوذت على الثروة الوطنية ومحاكمة سياستها المقامرة بمصالح البلاد الوطنية.

4- **الأجهزة الإعلامية.** بسبب وظيفته المضللة وقدرته على صياغة وعي جماهيري فارغ شكل الإعلام الرسمي أداة مهمة من أدوات الضبط الاجتماعي في النظم الاستبدادية. ورغم ذلك شكل الإعلام العابر للحدود وشبكات التواصل الاجتماعي أداة تحريضية وتعبوية جماهيرية وبهذه المعنى تطفو على السطح الأفكار اللينينية المتمثلة بكون الصحيفة قائدا ومعبأ ومنظما للحزب الثوري ولكنها

هـذه المـرة تصبح ـ شبكـات التـواصل منظماً أممياً بفعل الثورة التكنولوجية.

استناداً الى تغيرات الأنظمة السياسية وتبـدل أدوات الضبط الاجتماعي فيها تواجهنا الإشكالات التالية:

– هل يقود انحياز المؤسسة العسكرية الى استبدال الأنظمة الاستبدادية بأخرى ديمقراطية؟

– وهل تفضي التبدلات التي أحدثتها الانتفاضات الشعبية على بعض النظم السياسية العربية الى تأكيد انتصار الثورة؟

– وأخيراً ما هي الأفكار الجديدة التي يمكن اعتمادها لمواصلة الكفاح الجماهيري؟

في محاولة التقرب من الإشكالات المثارة سنحاول التعرض الى النتائج السياسية/الفكرية التي أنتجتها الانتفاضات الشعبية والتي يمكن تلخيصها بالتالي:

أ ـ النتائج السياسية:

ـ أدت الحركات الشعبية الى تفكيك الشرعية السياسية للنظم الانقلابية ومحاولة بناء الدولة على أسس الشرعية (الشعبية) (3) المتمثلة بـ:

(أ) إرساء النظام السياسي على قاعدة دستورية تعني بالتداول السلمي للسلطة على اساس الشرعية الانتخابية.

(ب) الفصل بين السلطات وتفعيل دور السلطة القضائية بمستوياتها الرقابية والتفسيرية على حماية الدستور ونزاهة الشرعية الانتخابية.

(ج) إطلاق حرية العمل السياسي والإعلامي وما يعنيه ذلك من إشاعة الديمقراطية بمضامينها السياسية.

ـ مهدت الحركات الاحتجاجية الطريق أمام القوى المطالبة بالديمقراطية لاغناء كفاحها السياسي بمضامين طبقية تستند الى التوازن الاجتماعي المحمي بالضمانات الاجتماعية.

ـ أكدت الحركة الشعبية إمكانية تجاوز الأبعاد الدينية رغم محاولة قوى دولية وإقليمية إضفاء أبعاداً طائفية على بعض الاحتجاجات السلمية.

ـ فشل التعويل على التدخلات العسكرية الخارجية المغلفة بشعارات ديمقراطية من خلال الربط بين شعار الديمقراطية الشعبية وبين الدفاع عن المصالح الوطنية.

ـ تقود النتائج السياسية التي أفرزتها الحركات الشعبية الى بناء علاقات عربية ـ عربية متوازنة تستند الى مراعاة حقوق الإنسان والدفاع عن المصالح الوطنية، إضافة الى فتح الأبواب أمام تعاون إقليمي يرتكز على موازنة المصالح الوطنية/ الإقليمية.

ب ـ النتائج الفكرية:

ـ أغنت الحركات الاحتجاجية الشعبية الحياة السياسية العربية ومدتها بقوى اجتماعية من شرائح وكتل طبقية مختلفة مناهضة للاستبداد والتهميش.

ـ وظفت الحركات الشعبية شعارات الليبرالية الجديدة لصالح التغيير الديمقراطي المساند دوليا رغم تعارض التغيرات الديمقراطية التي حملتها الحركات الشعبية مع المصالح الاستراتيجية للدول الكبرى.

ـ قدمت الاحتجاجات الشعبية نهجاً كفاحيا جديدا لبلوغ التغييرات السياسية على قاعدة سلمية وجعلت الشارع موقعاً

أساسيا لتغيير موازين القوى لصالح قوى الإصلاح والديمقراطية وبهذا أعادت الروح السلمية لتلك الانتفاضات النظر بمفاهيم أساسية ـ الإرهاب والتطرف والعنف الثوري الانقلابي ـ بكلام آخر قدمت الحركات الشعبية أساليب كفاحية جديدة تتسم بالروح السلمية المناهضة لكل أشكال العنف الامر الذي مدها بمرونة في مواجهة آلة القمع الاستبدادية.

ـ تشترط النتائج السياسة التي أحرزتها الحركات الشعبية مواصلة الكفاح الوطني نحو إحداث تغييرات ديمقراطية لصالح التوازنات الطبقية وبهذا تستطيع القوى اليسارية الديمقراطية دفع عملية التغيير الاجتماعي عبر تبني مصالح القوى الاجتماعية ذات الانتماءات الطبقية المتعددة بعد إعادة بناء مفهوم السياسية ونقله من علاقة قوة بين الطبقات الاجتماعية المتنازعة الى علاقة قوة بين التكتل الديمقراطي المتعدد الأطياف الطبقية وبين السياسات التخريبية للطور الجديد من التوسع الرأسمالي.

استنادا الى تلك الملاحظات التحليلية العامة لابد من إيراد بعض الموضوعات الختامية التي أراها ضرورية:

أولاً: أفضت الحركات الاحتجاجية الى دخول البلدان العربية مرحلة جديدة من مراحل تطورها سمتها الأبرز المطالبة بالديمقراطية والإصلاح وما يشترطه ذلك من تفكك شرعية النظم الاستبدادية المرتكزة على احتكار السلطة وهدر حقوق الإنسان.

ثانياً: قدمت الانتفاضات الشعبية السلمية تجربة جديدة تمثلت في الابتعاد عن الشعارات المتطرفة الأمر الذي أجبر الأسرة الدولية على احترامها ومساندة مطالبها الديمقراطية.

ثالثاً: رغم التغييرات الكبيرة التي أحدثتها الحركات الشعبية على طبيعة الأنظمة السياسية تبقى سلطة الدولة سلطة القوى الاقتصادية/ السياسية الفاعلة ما لم تترابط تلك التغيرات مع الديمقراطية الاجتماعية.

رابعاً: تقود التغيرات السياسية التي حملتها الموجة الجديدة من الانتفاضات الشعبية الى تغيير ميزان القوى الاقليمي وما يتضمنه ذلك من بناء علاقات عربية/ إقليمية/دولية ترتكز على توازن المصالح الوطنية/الدولية.

الهوامش

(1) أدى التدخل العسكري لمجلس التعاون الخليجي في البحرين الى إجهاض حركة الإصلاح الديمقراطي الهادفة الى تغيير البنية السياسية الطائفية للنظام الحاكم وما يعنيه ذلك من اختلال العلاقات الإقليمية بين إيران ودول مجلس التعاون الخليجي .

(2) تتحدد مضامين المداخلة بالنتائج السياسية التي حققتها الانتفاضتين الشعبيتين في مصر وتونس.

(3) لا يوجد هناك مفهوم دستوري للشرعية الشعبية بل هناك شرعية ديمقراطية للحكم أنتجتها الثورات البرجوازية في أوربا وشكل محتواها السياسي الركائز الأساسية للنظم السياسية الديمقراطية بكلام آخر الشرعية الشعبية هي شعار يتماثل والشرعية الديمقراطية .

قراءة مختصرة عن الانتفاضات الشعبية في المنطقة العربية

الدكتور حافظ علوان حمادي الدليمي

د. حافظ علوان حمادي الدليمي، أستاذ في جامعة بغداد/كلية العلوم السياسية، حاصل على شهادة دكتوراه دولة في العلوم السياسية من جامعة مونبيلية/فرنسا. له العديد من المؤلفات من بينها: مدخل الى علم السياسة، النظم السياسية لأوربا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية، فن المفاوضات في ظل الدبلوماسية المعاصرة، قراءة معاصرة لموضوعة حقوق الإنسان.

أكاد ازعم بأن ما نشهده اليوم وما سوف نشهده غدا من انتفاضات شعبية عربية اندلعت هنا وهناك ومن المحتمل أن تندلع في أي مكان آخر من المنطقة العربية، أقول بأنها تأخرت كثيرا في اندلاعها وانفجارها، فما كان لها موضوعي أن تنفجر اليوم وإنما قبل هذا الزمان. فما عاشته شعوب المنطقة العربية وما تعيشه من ظلم اجتماعي وفقر اقتصادي، ومن ظلم واستبداد وقمع سياسي لم يعرفه شعب آخر على وجه البسيطة. فكان على الشعوب العربية أن تنتفض من زمان بعيد وان تتمرد وتثور قبل هذا التاريخ، أي منذ الثورة الفرنسية التي أيقظت شعوب وحررت عندما بشرت بأن للإنسان حقوقاً وخلقاً ليعيش حرا وسعيدا. جاءتها فرصة ثانية مرة أخرى كي تثور على حاكمها و أوضاعها ومرة أخرى تضيع من الشعوب العربية للانتفاض على واقعها وحكامها، على أثر انهيار النظام السوفيتي وانتفاض شعوب دول أوروبا الشرقية ومطالبة بحقوقها وحرياتها، وبدت الشعوب العربية وكأنها سلمت ذاتها ووجودها ورضت بقدرها الذي حتم عليها العيش في ظل حكام مستبدين وأنظمة فاسدة.

وفي لحظة وكأنها خارج سياقات الزمن الذي تعيشه المنطقة العربية، اندلعت بانتفاضات شعبية عربية هنا وهناك واسعة في شعبيتها وجماهيريتها وسرعة في نتائجها وعظيمة في أهدافها وتضحياتها وكأن الشعوب العربية تسمع لأول مرة بأن لها حقوقاً قد سلبت وحريات قد قيدت. وكان البطل التونسي الذي حرق نفسه "بوعزيزي" لينير الطريق لعشاق الحرية والحقوق، وليعلنها صرخة في وجه كل حاكم ظالم ومستبد ولصٍ عتيدٍ من قادة العرب وزعمائها من ملوك وجمهوريين يمينيين أو يساريين أحرارا أو محافظين ومتدينين. وما يمكن تسجيله عن هذه

الانتفاضات هو التالي:

1- إن الانتفاضات الشعبية العربية كسرت حاجز الخوف كانت نتيجته انتقال الخوف من المحكوم والمظلوم إلى الحاكم الظالم، فساد الخوف كل قادة ورؤساء العرب من شعوبهم أولا من فقدان السلطة ثانيا ومن محاسبتهم شعبيا ورسميا ثالثا.

2- قادة هذه الانتفاضات ووقودها هم من الشباب فهي حركات شبابية في الأصل ومن ثم انظمّت إليها جماعات وأحزاب والساسة والسياسيون. وهذا الأمر جديد في كليته اذ من المعروف بأن الأحزاب هي التي تقود الانتفاضات وتخطط لها وتفجرها وليست الشعوب هذا من جانب.

ومن جانب آخر انتقال مركز اتخاذ القرار السياسي وشرعيته، من قبة البرلمان ومؤسسات الحكومة الرسمية، إلى الشارع والمنتفضين بمعنى إن آليات صنع القرار تغيرت من آليات رسمية إلى آليات شعبية.

3- كما كان للعولمة بكل آلياتهاوانجازاتها عونا لهذه الانتفاضات في شموليتها والسرعة في تفجيرها، من خلال مايعرف بوسائل التواصل الاجتماعي:الانترنيت والهواتف النقالة والفيس بوك والتويتر. وهذه كلها منحت المنتفضين القدرة على تبادل الآراء ونقل المعلومات والاتفاق على الأهداف والخطوات وعلى التجمع واللقاء وعلى تحديد الزمان والمكان، باغتة السلطة في سرية عملهم وسرعة تجمعهم بعيدا عن استراق عيون السلطة ومما أعانهم على امتلاك القدرة على تمويه وإخفاء موعد ومكان اندلاع الانتفاضة مما أربك وشل عمل الأجهزة الأمنية.

4- انكفاء نشاط تنظيم "القاعدة " فخلال الانتفاضات السابقة والحالية لم نشهد أي نشاط مسلح لهذا التنظيم ماعدا أحداث طفيفة في اليمن.

لربما الانتفاضات، وما رافقها من شعارات، وما أنجزته من أهداف أخذت القاعدة على حين غرة فعنصر المفاجأة دفعها إلى التوقف مؤقتا لالتقاط الأنفاس وتنظيم الصفوف وتحديد الأولويات.

5- التحول الكبير في مواقف الدول الغربية، وبالذات الولايات المتحدة الأمريكية.

فكانت هذه الدول ساندا ومؤيدا للانتفاضات الشعبية العربية وداعما لها ومطالبين الرؤساء بضرورة التنحي عن السلطة وتركها والرحيل عنها. هذا ما كان يصرح به أكثر الرؤساء الغربيين، وبالذات الرئيس الأمريكي، ومن وحي العبارات التي كان يطلقها وهو يخاطب الرؤساء العرب المعنيين بالقول: "فما عليك إلا الرحيل.. ارحل ألآن.." حتى يتصاعد حماس المنتفضين وتتصاعد مطالبهم ويتعاظم إصرارهم في رحيل من كان على رأس السلطة أمثال الرئيس المصري "حسني مبارك "، علما أن مواقف وتصريحات المسؤولين الغربيين، وبالذات الأمريكان، لم تكن على مستوى واحد في مخاطبة الرؤساء العرب.

6- كما أسهمت القنوات الفضائية

وتحديدا "الجزيرة والعربية والفرنسية الرابعة والحرة عراق وبي بي سي"، من خلال نشر الأخبار وتصوير الأحداث والانتهاكات، في استمرار الانتفاضات واتساعها وتأجيج الغضب الشعبي داخليا وخارجيا. لقد ادى ذلك كله الى تنامي حجم الأنصار والمؤيدين الدوليين، شعبيين

ورسميين، حكومات ومنظمات. ورافق ذلك تصاعد وتيرة مطالب المنظمات والحكومات الأجنبية بضرورة تنحي الحكام العرب عن مراكزهم والاستماع لشعوبهم مما منح المنتفضين زخما وإصرارا على تحقيق مطالبهم.

7- لم يرفع أي شعار خلال الانتفاضات أو هتاف ضد الغرب عامة والولايات المتحدة الأمريكية خاصة، وهذا أمر ملفت للنظر تماما.

8- وأخيرا، لايمكن أن نحكم ونقيّم حقيقة ونتائج تلك الانتفاضات حاليا كونها لاتزال في مرحلة الصيرورة (التكوين). ولكننا نجزم بأنها أثارت حالة صحية في وعي الشعوب من جانب وتحسب حساب الحكام العرب من جانب آخر.

تصورات حول تطورات الوضع السياسي مع اشارة خاصة الى الوضع في كردستان

د.كـــــاوه محـمـــــود

د. كاوة محمود من مواليد محافظة كركوك عام 1958، حصل على شهادة البكالوريوس من كلية القانون والسياسة من جامعة بغداد عام 1979. نال شهادة الماجستير والدكتوراه في مجال العلوم الاسلامية (اسلامولوجيا) وزير الثقافة والشباب في حكومة اقليم كردستان، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي الكردستاني - العراق، وعضو مجلس تحرير مجلة (الثقافة الجديدة).

يشهد إقليم كردستان تطورات سياسية نوعية تتطلب دراسة عميقة للتناقضات المركبة والمعقدة السائدة في الإقليم انطلاقا من أخذ خصوصياته بنظر الاعتبار، إضافة الى دراسة ما يجري في العراق وفي المنطقة بشكل عام من تغييرات نوعية وتأثيراتها المتبادلة، بما يتطلب الوصول الى استنتاجات جديدة وفي مجالات مختلفة تشمل بالأساس دراسة مجتمعاتنا بشكل عميق وتحديد وفرز القوى المجتمعية الجديدة المؤثرة في الساحة السياسية وعملية التغيير الاجتماعي، ودراسة مدى فاعلية الأطر التقليدية والأساليب المتبعة سابقا في مجال العمل الجماهيري المطلبي، وأشكال التنظيم الجديدة ومدى تأثير التطور العلمي التكنولوجي في مجال الاتصالات وشبكات التواصل الاجتماعي، وحجم انعكاس هذه الظواهر بشكل نسبي على مجمل أوضاع المنطقة.

إن مجمل هذه التطورات تتطلب دراسات معمقة ومتخصصة وفي مجالات عديدة، وبشكل جماعي، عبر تحديد منهجية واضحة مبنية على أساس تحديد واضح للتناقضات الداخلية والخصوصيات المجتمعية بعيداً عن نظرية المؤامرة أو التركيز على البعد الواحد، أو استنساخ التجارب، آخذين بنظر الاعتبار الملفات السياسية الأساسية في الساحة الكردستانية وخلفية الصراعات السياسية، وتأثير سياسات الدول الإقليمية، ومدى تأثير وانعكاس الصراعات السابقة والتعامل مع تصفية آثارها.

وبعيداً عن طروحات آنية سريعة أو استنتاجات نهائية، لابد أن نطرح جملة من النقاط الأساسية التي يمكن التعامل

معها كمدخل أولي فيما يخص التعامل مع التطورات العامة في المنطقة، إضافة الى الاستحقاقات الضرورية الناجمة عن الاحتقان الداخلي في بعض مناطق كردستان وكيفية التعامل معها وسبل تجاوزها بما يخدم حماية مكتسبات التجربة ومعالجة ثغراتها بعيدا عن افتعال الأزمات والتركيز على مصالح حزبية ضيقة والسعي لتصفية ملفات تتعلق بآثار الاقتتال الداخلي.

1 ـ لا يمكن الحديث عما يجري في المنطقة بمعزل عن خلفية التطور التاريخي لبنية دول المنطقة وكيفية تأسيسها بعد الحرب العالمية الأولى بفعل العامل الخارجي وضمن نموذج الدولة القومية والتي كان من السهل إضفاء طابع القدسية عليها نتيجة التراث السياسي المتراكم في المنطقة والتي ساوت بين الدولة والحاكم، واحتاج الحكام إضفاء صفة المقدس السياسي وحتى الديني على الدولة من اجل الاستمرار في الحكم. وقد عمل الحكام الجدد الذين أتوا بانقلابات عسكرية على أضفاء القوى السياسية الفاعلة في المنطقة صفة الثورة الشعبية عليها، لإنشاء أنظمة سياسية قمعية مبنية على الولاء للحاكم أدعت بأنها تنجز الاستقلال السياسي والاقتصادي وتحقق وتائر عالية من التنمية ضمن خطاب شعبوي مبني على أساس إثارة المشاعر وهدر الطاقات البشرية والاقتصادية. كما استغل هؤلاء الحكام حقبة الحرب الباردة والثنائية القطبية لترسيخ أنظمة قمعية تفننت في انتهاك الديمقراطية والتجاوز على حقوق الإنسان. وأتت برامج جملة من الأحزاب السياسية لتكييف نفسها وايجاد التبريرات اللازمة لسلوك الحكام ولتجاوز الديمقراطية البرلمانية والحريات الأساسية للفرد بذريعة كون الصراع الرئيسي في المنطقة مع الامبريالية العالمية. وفي هذه النقطة انسجمت قوى ديمقراطية ويسارية في المنطقة مع حكامها الديكتاتوريين في الحديث عن طابع الصراع الرئيس وكون المهمة الأساسية مقاومة الامبريالية ومخططاتها في المنطقة، وبهذه الشاكلة جرى كبح التطور التاريخي الطبيعي لهذه المجتمعات.

وبعيدا عن الطابع المتناقض للتطورات الجارية، فإنها تبدو وكأنها عودة طبيعية الى سياق التاريخ الطبيعي للتطور، ضمن عملية سيرورية لإجراء التغيير الاجتماعي بالاعتماد على الإرادة الحرة للناس وضمن خياراتهم، وبالاعتماد على أشكال النضال الديمقراطي المدني السلمي. ولا يتناقض هذا الاستنتاج مع اضطرار الناس الى الدفاع عن نفسها ضد القمع المؤسساتي للدولة التي ترفض تلك الأساليب النضالية وتمنع التداولية والانتخاب الحر، دون أن يعني هذا الاستنتاج التعامل بعقلية الحتمية الميكانيكية في استشراف مستقبل الأحداث، بل ضمن البدء بمرحلة انتقالية تتصارع فيها الأفكار والمشاريع السياسية ضمن السعي لتوجيه الصراعات وحسمها وفق آليات الديمقراطية.

2 ـ واستمرارا في الحديث عن الخلفية التاريخية للأحداث، يجب أن نشير الى آثار انهيار القطبية الثنائية وما جرى من تطورات نوعية كبيرة في العالم بعد تفكك الاتحاد السوفيتي وانهيار المنظومة الاشتراكية. وقد تأخرت تلك الانعكاسات على المنطقة، حيث تأثرت بالدرجة الأولى الأحزاب الشيوعية واليسارية التي تبنت أطروحات تلك المنظومة. وتصور الحكام بأن الآثار التي انعكست على أوروبا

الشرقية وبعض بلدان العالم سوف لن تنعكس على أوضاع بلدانهم التي ستكون بمنأى عن التغيير. وطيلة الفترة بين انهيار القطبية والأحداث الأخيرة في المنطقة، شدد حكام المنطقة من آليات احتكار السلطة وتكييف الدساتير مع المصالح الآنية للحاكم وجرى تحويل الحزب الحاكم الى جهاز قمعي سلطوي الى جانب أجهزة الأمن والمخابرات المتعددة. وقد أتت مجريات الأحداث في العراق منذ انتفاضة آذار 1991 لصالح خطاب السلطات في المنطقة العربية الذي تطابق وتماهى الى حد ما مع خطاب من هو خارج السلطة من القوى القومانية والإسلامية السياسية وحتى بعض أوساط اليسار. وجرى اعتبار أي موقف دولي سواء من الدول أو من الرأي العام تدخلاً في الشؤون الداخلية. كما جرى التركيز على وجود مؤامرة امبريالية تستهدف غزو شعوب المنطقة وحريتها. وضمن هذا السياق أيضا يجب الإشارة الى عامل حيوي آخر ساهم في تأخير التحرك من أجل التغيير. ويتجلى هذا العامل في دعم الولايات المتحدة الأمريكية لبعض دول المنطقة ومنها مصر واليمن ضمن سياسة مكافحة الإرهاب والحرب ضد القاعدة، الى الحد الذي منح وهما الى تلك الأنظمة كونها غير مستهدفة من قبل العامل الدولي، وبالأخص الولايات المتحدة الأمريكية لكونها تحارب الى جانبها ضد الإرهاب، وفي وقت أذكت تلك الأنظمة مشاعر العداء لسياسة الولايات المتحدة الأمريكية في العراق في الأوساط الشعبية داخل بلدانها. وبهذه الشاكلة مارست اللعبة السياسية لتطمين القوى الداخلية والقوى الدولية في آن واحد، ولتخطط من أجل المزيد من نهب خيرات البلاد والاستمرار بالتمسك بالحكم.

3- إن مجمل التطورات التي جرت في السودان وتونس ومصر وليبيا، واليمن وسوريا والبحرين تعبر عن حالة وحاجة موضوعية للتغيير في مجالين أساسيين:

- المجال الأول يتعلق بإشكالية بنية الدولة الوطنية في المنطقة العربية وإشكاليات تأسيسها في بدايات القرن الماضي.

- والمجال الثاني يتعلق بطبيعة الأنظمة السياسية الحاكمة، أنظمة الحزب الواحد والقائد الذي يحصل في كل عملية انتخابية على أكثر من 90% من أصوات الناخبين، الأنظمة التي غيبت الديمقراطية وإرادة الناس، وفشلت في تحقيق التنمية. وبالتالي نجمت عن التحركات الجماهيرية، تغييرا في بنية الدولة كما حدث في السودان، وتغييرا في بنية النظام السياسي وحل الدستور والمجالس الصورية الحاكمة كما جرى في مصر وتونس.

4- كانت القوى السياسية المحركة للتغيير وكذلك طبيعة التغيير في السودان مختلفة عن القوى السياسية الجديدة التي عبرت عن حضور فعلي للطبقة الوسطى والتيار الليبرالي الذي نظم نفسه في نموذج مصر بشكل أفقي متجاوزا الأشكال الهرمية. وإذا تحدثنا عن الوضع في اليمن يجب أن نقر بأن العلاقات القبلية والتي هي جزء من العلاقات التقليدية اللامدنية هي التي تقرر في المحصلة النهائية مسألة التغيير. كما أن الجانب الطائفي يظهر بشكل أو آخر في الوضع البحريني الذي يعلن الجانب الإيراني دعمه للتغيير فيه من منطلق طائفي، في حين يقمع النظام الإيراني بشكل شرس المحاولات الجماهيرية من أجل التغيير والإصلاح.

وعليه يجب أن نشير بأن الرغبة في التغيير وضرورة الإصلاح في المنطقة،لا تعني بأن هذه العملية ستجري في مختبرات للعلوم الطبيعية، وأنها ستكون متماثلة من حيث القوى المحركة لها وتحديد مساراتها، ففي بعض البلدان سيكون هناك دور للقوى المدنية والمجتمعية الحديثة، في حين ستكون القوى التقليدية ومن ضمنها حركات إسلامية قوى أساسية في توجيه الأحداث، ولا يخلو الأمر من أجندة ومشروع الإسلام السياسي في المنطقة ضمن توجهات أسلمة الدولة، وأسلمة المجتمع. وعلى العموم فان دور اليسار سيكون متواضعا بشكل عام في هذه التغييرات على الرغم من وجود شعارات العدالة الاجتماعية والديمقراطية والتمدن بشكل عام في الحركات الاحتجاجية وهذه الشعارات في جوهرها مطالب لليسار.

5ـ يتسم الوضع في العراق بشكل عام بسمات تختلف عن أوضاع كل من مصر وتونس وليبيا واليمن. فقد جرى تغيير في طبيعة الدولة العراقية منذ عام2003 نتيجة العامل الخارجي، ولا تزال العملية السياسية في العراق غير مستكملة. وقد أفرزت التغييرات في العراق قوى مجتمعية جديدة بعد عام 2003 مصنفة على أساس الولاءات الطائفية والمذهبية والقومية، في ظل ضعف واضح لقوى ولدور الطبقة الوسطى والتيار الديمقراطي الليبرالي بشكل عام. ولا تزال الحاجة لبلورة قوى مجتمعية جديدة بعملية تراكمية لا تنجز أو تستكمل بشكل إرادوي مبني على الرغبات، دون أن نعني بهذا التوجه عدم تفعيل العامل الذاتي من أجل تنظيم الجماهير وتعبئتها وضرورة التحلي بالنفس الطويل، لأن الأمر لا يتحقق من خلال القفز على عامل الزمن الضروري لعملية التراكم المطلوب.

6ـ واستكمالا للصورة أعلاه فيما يخص الوضع في العراق تستشري مظاهر الفساد وسوء استخدام السلطة وإهدار الثروة الوطنية، مما يهيئ الأرضية المناسبة لإيجاد تململ شعبي ورفض لتلك المظاهر. غير أن فقدان القوى الاجتماعية المؤثرة والطلائع السياسية المنبثقة عنها لتوجيه الاحتقانات باتجاه مصالح الجماهير والرغبة في إصلاح الأمور ومواجهة الفساد، جعلت من هذه الإشكاليات والاحتقانات مجالاً لتصفية الصراعات السياسية بين القوى السياسية المتنفذة في العملية السياسية وفي حدود مجالس المحافظات، واستغل بقايا النظام المنهار تلك الإشكاليات من أجل مخططاتهم ضد العملية السياسية، مما يتطلب من قوى التيار الديمقراطي دراسة وضع كل محافظة على حدة وتشخيص طبيعة الصراعات ومسعى القوى المتنفذة سياسيا في توجيه سخط الفئات المعدومة لتصفية الحسابات الحزبية حتى في إطار الأحزاب ذات الطابع الطائفي الواحد. وهذا الأمر من شأنه زيادة تعقيد مهمة قوى التيار الديمقراطي وتوجيه سياساته وتحركاته من أجل أخذ تلك التعقيدات بنظر الاعتبار عند خوضه النضال المطلبي، وتحشيد الشارع، وتحديد الأهداف الآنية بما يساعد على ديمومة التحرك الجماهيري من جهة، وعدم استغلاله كورقة من قبل جهات معينة لتصفية حسابات مبنية على مصالح طائفية أو فئوية أو حزبية ضيقة.

7- يتسم الوضع في كردستان بخصوصيات تميزها عن الوضع في العراق وعموم المنطقة عبر المظاهر التالية:

ـ طبيعة المرحلة الانتقالية وتحقيق مكتسبات ملموسة بالتزامن مع وجود ثغرات جدية ومظاهر للفساد وسوء استخدام السلطة، وعدم استكمال توحيد الإدارتين والتدخل الحزبي المفرط في شؤون إدارة الدولة والعمل الحكومي، إضافة الى إشكالية العلاقة بين السلطة والمواطن في مجتمعاتنا التي تبدو عموماً شائكة، يتخللها التعقيد والتشابك أحياناً، وضعف الثقة من قبل الطرف الثاني بالأول. ولا يمكن تصور هذه التعقيدات، والحديث عن معالجات ممكنة من أجل صياغة علاقة مبنية على استمداد السلطة بالمعنى العام مشروعيتها من إرادة المواطن، وخلق حالة من التوازن بين طرفي المعادلة، وإشاعة جو من الثقة والتعاطي المتبادل، والتفاعل الحيوي، دون تشخيص المعوقات التي تحول دون ذلك. وهذه المعوقات في جوهرها ليست وليدة اللحظة، فهناك تراكم من الممارسات المبنية على القسر والإلغاء، والتفكير نيابةً عن الآخرين، وشبكة من الوشائج والعلاقات الاجتماعية السياسية المهيمنة على التفكير السياسي، التي تعتبر تعبيراً عن العلاقات التقليدية التي تسبق مرحلة الحداثة الرأسمالية.

إن هذا الوضع يوفر الأرضية لطرح مطالب عادلة عبر أساليب النضال الديمقراطي المدني السلمي، تلك الأساليب التي طالما أكدنا على مشروعيتها في إطار احترام القانون والسلم الأهلي والحفاظ على الممتلكات العامة والخاصة، وما تحقق من مكتسبات بفضل نضال الشعب الكردستاني، والأخذ بالقضية الوطنية الكردستانية بنظر الاعتبار.

ـ ضرورة التمييز بين هذه المطالب المشروعة للجماهير وبين سياسات حركة التغيير والتيارات الإسلامية (الاتحاد الإسلامي، الجماعة الإسلامية) التي تخوض صراعا حزبياً ضمن مسعى التيارات الإسلامية لطرح البديل الإسلامي سواء من خلال أسلمة المجتمع أو أسلمة النظام السياسي، إضافة الى صراع حركة التغيير مع الديمقراطي الكردستاني أساسا ومع الاتحاد الوطني بسبب اتفاقه الاستراتيجي مع الديمقراطي الكردستانيَ. وقد مارس الحزبان الإسلاميّان وكذلك حركة التغيير سياسة افتعال الأزمات المستمرة عبر تشويه قانون تنظيم التظاهر وطرح بدائل غير واقعية. وتوجت تلك الحركة سياستها في توجيه حركة المطالب الشعبية بالضد من جهة محددة من السلطة عبر تخطيط الهجوم على مقرات الأحزاب السياسية. وركزت حركة التغيير جهودها من أجل تهيئة الظروف اللازمة لإفشال التحالف الاستراتيجي بين الديمقراطي الكردستاني والاتحاد الوطني.

ـ تعامل الجانب الآخر بردود فعل انفعالية ففي مقابل الهجوم على مقرات الحزب الديمقراطي الكردستاني في السليمانية وما نجم عن ذلك من تداعيات، هاجم الحزب المذكور عبر مناصريه مقرات حركة التغيير في أربيل ومناطق أخرى، وتعامل بعقلية تحشيد قواه الحزبية عبر مظاهرات التأييد.

كان موقف قادة في الاتحاد الوطني خلال بداية الأحداث في أواسط شباط في مدينة السليمانية موقفا قريبا من التفرج ومراقبة الأحداث وكأن المدينة قد سقطت بيد حركة التغيير والقوى الإسلامية، وكأن الأمور موجهة لإضعاف الحزب الديمقراطي الكردستاني. وبدا هذا الموقف بعيدا عن مناصرة حليفه الاستراتيجي، بغية إضعافه بسبب استمرار تنافسهما

غير المشروع في إدارة السلطة رغم تحالفهما الاستراتيجي.

وانفرد في هذا الموقف رئيس الوزراء في الإقليم الذي تصدى بمرونة وبوضوح للمحاولات الرامية الى تفجير الأوضاع في المدينة. وتغيير الأمر بعد زيارة زعيم الاتحاد الوطني للسليمانية وتوجهاته أمام الحشد الجماهيري المحتفل في 7 آذار بذكرى تحرير المدينة في انتفاضة آذار 1991. وأصبح التنسيق بين حزبي السلطة أكثر فاعلية بعد ذلك التاريخ.

يبدو أن كل الأطراف التي تسمي نفسها بالمعارضة وتلك التي تسمى نفسها بالسلطة تدير صراعاتها بعقلية ومنهجية سنوات الاقتتال الداخلي، وتستخدم القوى البشرية وتستغل حاجات الجماهير والولاءات الحزبية التقليدية بدلا من القوى المسلحة التقليدية (البيشمركة) كما جرى إبان الاقتتال الداخلي، إضافة الى توظيف الدين والفتاوى في الصراع من قبل الأطراف المتنازعة. حيث أشار رجال دين محسوبين على الاتحاد الإسلامي الى إعلان الجهاد ضد الحكومة في السليمانية في حين قام رجال دين محسوبين على الديمقراطي الكردستاني في ابريل بحث الناس على عدم التظاهر.

- مارست الأطراف السياسية الحالية في المعارضة صراعاتها وسياساتها على أساس خطاب شعبوي، مستخدمين الخطاب الديني حيناً، والحديث عن المجتمع المدني والحريات حيناً آخراً. وقد بدأ هذا الخطاب جليا أثناء الحملات الانتخابية للبرلمان الكردستاني ولمجلس النواب العراقي، وفي مسألة التصويت للكابينة السادسة لحكومة الإقليم، وفي مناقشة قانون الميزانية لعام 2010، والموقف من قانون التظاهر، وفي إثارة الطلبة ضد القرارات المتعلقة بإصلاح النظام التعليمي وتأهيل الجامعات، وجرى التركيز على إثارة الخصوصيات المحلية والتقليل من أهمية القضية الوطنية الكردستانية. وظهر جلياً سياسة افتعال الأزمات لتعطيل العمل وكبح خطوات الحكومة حتى تلك التي فيها جوانب إصلاحية أو تتعلق بحاجات ومطالب الناس الآنية. وقد استغلت تلك القوى الإرث الثقيل الناجم عن السياسات السابقة ومظاهر التقسيم الإداري وعدم استكمال توحيد الإدارتين، إضافة الى تفشي مظاهر الفساد الإداري والمالي، وعدم قدرة الحكومة على اتخاذ إجراءات سريعة وفاعلة تستجيب لضرورة الإصلاح، رغم الإشارة إليها في البرنامج الحكومي.

- يسود تيار واسع من الشعبوية في مجال الثقافة ويغلب على الإعلام. ويتغلغل وسط صفوف القوى السياسية بشكل واسع. وقد مارست القوى الإسلامية وحركة التغيير شكلا من أشكال الإرهاب الفكري من خلال ذلك الخطاب الشعبوي الذي قدّم للمتلقي بشكل عام ما يحب أن يسمعه ويراه وليس حقيقة الواقع بدون تزوير أو تبديل. لقد غاب تحليل الواقع المعايش في هذا الخطاب وجرى الاكتفاء بترديد الشعارات بصوت عالٍ في أدعاء معرفة حلول كل القضايا، دون الالتفات الى محاسبة النفس والنقد الذاتي والمسؤولية السابقة لهذه الأطراف عن الأوضاع ومشاركتها في الصراعات الدموية أثناء الاقتتال الداخلي. فما أن تجد أحدا يقول شعارا عالي الصوت دون حجة أو أي برهان أو تفصيل حتى تجد جمهرة من الآخرين يتحمسون و يهللون

لصاحب الشعار دون تدقيق. يركز هذا الخطاب في كوردستان على الخصوصيات المحلية، فخلال التظاهرات التي جرت في الآونة الأخيرة جرت المحاولة الى إضفاء الطابع المحلي المناطقي وكأن الصراع بين السليمانية وأربيل.

لقد أثر هذا الخطاب بشكل معين على السلم المجتمعي، وبدا الاضطراب السياسي والفكري جليا لدى أحزاب في السلطة وفي المعارضة على حد السواء، من خلال استواء الغرائز والمشاعر بدلا من العقل والعقلانية على السلوك اليومي والتعامل مع الأحداث، وساهم إعلام الأطراف المتضادة في خلق حالة من التخندق على أساس الانتماء الى المناطقية.

ووجد الإعلام الشعبوي فرصة لكسب الشعبية من خلال التمجيد الزائف في النفس واحتقار الآخرين. وتورط في هذا الأمر إعلاميون وعاملون في مجال الثقافة.

يركز الخطاب الشعبوي على العفوية وتبسيط التناقضات والابتعاد عن التحليل العميق وكأن العالم ينقسم بين الخير والشر، أو بين الأبيض والأسود، بشكل مبسط، دون الأخذ بنظر الاعتبار طبيعة التناقضات القائمة. وينقسم إقليم كردستان وفق هذا الخطاب الى قسمين معارضة أو سلطة، بهدف تسطيح التناقضات وتمرير المشاريع السياسية الشمولية.

إن هذه الطريقة تقود أصحابها الى المغامرة واستخدام العنف في ظل أجواء تتوفر فيها إمكانية النضال الديمقراطي المدني السلمي.

تخلق الشعبوية حالة من الوعي المزيف ونقصد به هو تعطيل العقل عن النقد ومراجعة المعلومات المقدمة له، بشكل لا يمكنه من تشكيل موقف حقيقي منها بل الانجراف مع ماهو سائد من ثقافة قد تروج لها أطراف في السلطة أو في المعارضة من خلال منطق الهيمنة، وقبول التلقي على أساس المصدر والجهة المنتجة لا من خلال تدقيق جوهر المعلومة.

- وبمقابل هذا الخطاب من الضروري أن يركز خطابنا العقلاني على جوهر الصراع الاجتماعي، لا من خلال كسب المستمع بشكل آني، بل نعتمد على أساس منهج عقلاني جدلي يركز علي الدور الفاعل للشعب ولا ينظر الى الشارع والى الجماهير ككتلة صلدة وجامدة، بل من منظور كون الشارع مجالا لتفاعل وصراع المشاريع السياسية، وضرورة اتخاذ الموقف السياسي انطلاقا من مشروعية الطرح ومدى انسجامه مع مشروعنا للتغيير الاجتماعي المبني على أسس الديمقراطية والتمدن والتقدم الاجتماعي، وعدم تسويغ العنف لفرض المشاريع السياسية.

إن هذا التوجه يخلق حالة من الوعي الحقيقي المبني على قدرة العقل على إدراك الأمور إدراكاً حراً مستمداً من تجاربه الذاتية، ورؤيته للمصلحة التي تحقق إنسانيته وحريته ورغباته الحقيقية، وليست تلك المصالح المرتبطة بالحاجات الآنية الجزئية فقط. ولدى الفرد القدرة على الوصول لهذا الوعي من خلال حركة دؤوبة مستمرة للعقل في نقده للمجتمع على أسس علمية، وعلى أساس تشخيص المرحلة التاريخية وتحديد مهامها وتشخيص قوى التغير ومعوقاته.

- تدور هذه الصراعات الداخلية في ظل تدخل وتأثير عوامل محلية وإقليمية. فقد جرت اتصالات بين حركة التغيير

وإيـران. ويتـسم الـوضع في المنـاطق المستقطعة من كردستان والمشمولة بالمادة 140 باحتقانات جدية ومسعى واضح من قبل القوى الشوفينية العربية وبقايا البعث المقبور لتصفية الوجود الكردي في تلك المناطق.

- إن المخـاطـر الحـاليـة التي تـواجه كردستان لا تنتقص من حقيقة المطالب الشعبية وضرورة وجود مشروع سياسي للتغيير الاجتماعي مبني على أساس الحفاظ على المكتسبات وتعميقها ومواجهة الفسـاد وضـرورة الإصلاح الـسيـاسي والإداري والاقتصادي في إطار الشرعية وصناديق الاقتراع وتعميق الديمقراطية، بعيـدا عن عقليـة الانقلابـات والاقتتـال الداخلي.

- غير أن هذا التوجه لا يعفينا من مسؤولية الإشارة الى المخاطر الجديدة التي قـد تنسف التجربـة من الداخل، وبالأخص هناك قـوى إقليميـة وداخلية عراقية وقوى دولية تسعى لصياغة النظام السياسي في العراق على أساس فدرالية المحافظات.

- إن عملية الإصلاح في الإقليم بكافة محاورها تتطلب الإرادة السياسية وتهيئة مستلزماتها ومنها الأمن والاستقرار والبرنامج السياسي الواضح البعيد عن تصفية الحسابات. أما الاحتقان الحالي والتعامل مع الأحداث بعقلية سنوات الاقتتال الداخلي المقيت، فمن شأنه إلحاق أفدح الأضرار بعملية التغيير الاجتماعي والإصلاح الشامل.

- وتظهر في مثل هذه الحالات المخاوف من احتمال تقسيم جديد شبيه بالتقسيم الذي جرى أبان الاقتتال الداخلي. غير أن التقسيم الجديد سيكون مبنيا على أساس تعميق الهويات والثقافات المحلية وإضفاء الطابع المحلي على الصراع، مما يشكل خطرا على وحدة أراضي الإقليم.

- إن من مهماتنا الأساسية تحليل الوضع على أساس خطاب عقلاني واقعي بعيدا عن الخطابات الحالية التي تساهم في تأجيج المشاعر وإثارة النزعات المحلية وطرح برنامجنا السياسي للإصلاح والمبادرة للقاء مع القوى السياسية للترويج لمشروعنا المبني على المصلحة الكردستانية الحقة وتعميق الديمقراطية وتحقيق السلم الأهلي والتقدم الاجتماعي والتمدن.

- وينبغي بهذا الصدد أن نؤكد على توجهات أساسية آنية منها:

1. التأكيد على حق التظاهر المدني السلمي في إطار احترام القانون.
2. تخطئة واستنكار كافة مظاهر التجاوز على الحريات ومظاهر الهجوم على المقرات الحزبية، أو مقرات الصحافة، والاعتداء على الصحفيين، وكذلك إطلاق النار على المتظاهرين أو إطلاق النار على رجال الشرطة.
3. التحرك الملموس من أجل تطبيق برنامج للإصلاح السياسي والإداري والاقتصادي يأخذ بنظر الاعتبار مستلزمات التنمية ومصالح الكادحين وفتح حوار وطني بشأنه وبكيفية تطبيقه ومساهمة القوى المختلفة فيه.

الانتفاضات الشعبية في البلدان العربية.. بعض الدروس والخلاصات ×

د.صالح ياسر

الدكتور صالح ياسر خريج جامعة بغداد عام 1972، وحاصل على درجة الدكتوراه في العلاقات الاقتصادية الدولية من المدرسة المركزية للتخطيط والإحصاء في وارشو/بولندا وذلك في عام 1981. وللدكتور ياسر العشرات من المقالات والأبحاث والدراسات العلمية المنشورة في العديد من المجلات المتخصصة في العراق والعديد من البلدان العربية. كما اصدر عدة كتب من بينها: العلاقات الاقتصادية الدولية. الأبستمولوجيا –الأنطولوجيا –الأكسيولوجيا (2006)، و روزا لوكسمبرغ وإشكاليات التحليل الاقتصادي للرأسمالية (2009). الاقتصاد السياسي للأزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي (2011)

تتيح متابعة المسارات الكبرى التي اتخذتها الانتفاضات الشعبية في العديد من البلدان العربية بلورة **الخلاصات الكبرى التالية:**

– **الخلاصة الأولى**: أن نظم الطغيان والاستبداد مهما طال أمد هيمنتها، **هي وضد المجرى الموضوعي للتاريخ ولابد أن تحل اللحظة التي يتوجب عليها مغادرة مسرح التاريخ الى غير رجعة بعد أن تستنفذ طاقتها على ممانعة ديناميات التطور الموضوعي وحركة المجتمع.**

فرحيل بن علي وحسني مبارك، وآخرين على الطريق، يثبت جدوى القاعدة

السوسيولوجية القائلة: " **إن كل نسق مهما كانت صلابته مهدد بالتلاشي**"، **لأنه** " **يتوفر على كم محدود من الطاقة التي يقوم بصرفها للحفاظ على توازنه**". فكلما ازداد تصلب النسق وأدار ظهره للحراك الاجتماعي من دون حل المشاكل الفعلية، كلما تضاعفت سرعة انحداره نحو التلاشي. وبحكم طبيعتها الأمنية والمتصلبة، لم تستطع تلك الأنظمة أن تلتقط الإشارات التي شكلت في السابق مؤشرات على تدهور الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. وفي هذا السياق يقول صاحب نظرية الأنساق السوسيولوجي الفرنسي ادغار موران " تستطيع الأنساق حفظ استمراريتها بالانفتاح، إنها محتاجة في كل وقت وحين لاستدخال طاقات جديدة، أفكار متجددة، وبنيات حديثة. أما الأنساق المغلقة فمحكوم عليها بالتلاشي". مثال نظام صدام حسين ماثل للعيان.. وغيره كثيرين.

– **الخلاصة الثانية: إعادة الاعتبار لمفهوم التغيير الاجتماعي باعتباره ليس عملا فوقيا، انقلابيا تهندسه مجموعة من المتآمرين الطامحين للسلطة والهيمنة، بل من صناعة الجماهير الطامحة للحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية.** وأكدت الأحداث في هذا المجال على **ثلاثة جوانب هامة:**

الجانب الأول: إن دحر القوى المهيمنة ممكن أيضا عن طريق الانتفاضة الشعبية السلمية.

الجانب الثاني: أن أشكال وأساليب التغيير لا تتحدد سلفا عبر تنميط مفروض مسبقا، فالأمر كله مرتبط بجملة من العوامل وتناسبات القوى في اللحظة التاريخية الملموسة، وموقف القوى الحاكمة والأساليب التي تستخدمها في مواجهة الحراك الجماهيري.

الجانب الثالث: أهمية التدرج في رفع الشعارات. لا بد من الإشارة هنا أن الاحتجاجات الاجتماعية التي جرت في العديد من البلدان العربية لم تحدد أهدافها النهائية مسبقا بل تدرجت في ذلك، وربطت تصعيد مطالبها بردة فعل الأنظمة الحاكمة على الاحتجاجات التي انطلقت لتصعد شعاراتها من " الشعب يريد إصلاح النظام " مرورا بالمطالبة بالديمقراطية والحريات وتحسين مستويات المعيشة صعودا الى رفع الشعار العتيد: " الشعب يريد إسقاط النظام".

وكما في المثال التونسي والمثال المصري والليبي وغيرها من الأنظمة المماثلة، كانت المواجهة، مع عناصر **النموذج الاستبدادي الجديد** المستند على **التحالف البيروقراطي- الكومبرادوري – الرأسمالي التبعي**، الذي نما باطّراد خلال العقدين المنصرمين في البلدان العربية، وجمع بين: الاستبداد والتبعيّة غير المشروطة والليبرالية الزائفة.

– **الخلاصة الثالثة: جدلية العلاقة بين الديمقراطية الاجتماعية والديمقراطية السياسية وفشل محاولات الفصل بينهما أو تغليب احدهما على الآخر.**

ومن هنا لا بد من تخطئة النظرة أو الاعتقاد، أن مجرد رفع المستوى المعيشي للمواطن وتوفير القدر المعقول من احتياجاته المادية من مأكل وملبس ومسكن وتعليم وصحة....الخ، كاف لأن يلتزم هذا المواطن

الصمت ويرضى بحكم الطغيان والاستبداد. وقد برهن مجرى الأحداث الفعلي على أن أي نظام ينفرد بالحكم ويتحكم بالسلطة والثروة، ولا يوفر الفرص المتساوية للمشاركة الحقيقية، ويتجاهل احتياجات المواطنين على تنوعها، سيجد دائما من يقاومه.

كما بيّن مسار الأحداث في هذه البلدان أن هناك **علاقة وثيقة بين الخبز والحرية**، فعلى الرغم من وعود بن علي ومبارك مثلا بحلّ مشكلة البطالة وتوفير الأسعار المناسبة للاحتياجات الغذائية الأساسية، فإنّ ثورة الجماهير لم تتوقف. رأى الشباب والشرائح الاجتماعية الأخرى أنّ لقمة العيش مربوطة بحرية الصحافة، ورفع القيود عن الإنترنت.

– **الخلاصة الرابعة: التغيير ليس وليد الصدفة، وإنما هو نتاج عملية تطور تراكمي متواصل ومديد، يتولد من خلال المعاناة والشعور بالغبن وضرورة إزالته**. والوعي بالتغيير يأخذ شكله المنظم والمرتب في اتجاه تحوله الى أفعال نضالية ملموسة وشعارات محددة. وهذا لن يتم من خلال العفوية بل من خلال التنظيم الذي تتولاه القوى المنظمة القادرة ليس على إجبار الأنظمة الحاكمة على الرحيل وإنما أيضا وهو المهم على تقديم بدائل قابلة على الحياة.

وهنا لا بد من ملاحظة استدراكية ضرورية للغاية للرد على ما يقال عن دور الطبقة العاملة والكادحين عموما في هذه الانتفاضات ومسعى بعض الباحثين، لأسباب إيديولوجية ومن مواقع الطبقات المهيمنة، الى **تقزيم** (أو على الأقل **استبعاد أو تهميش**) دور هذه الطبقة والفئات الكادحة عموما في عمليات الصراع الطبقي والحراك المجتمعي وتقديم ما حدث وكأنه مقطوع الجذور عن الفترة التي سبقت اندلاع الانتفاضات الشعبية. فالتطور البطيء للصراع الطبقي خلال العقود الثلاثة الأخيرة في العديد من البلدان العربية لم يكن يعني علامة ضعف الطبقات الكادحة وفي مقدمتها الطبقة العاملة في مساعيها للتحرر من الاستبداد والاستغلال والتهميش الاجتماعي، وإنما كان ذلك البطء عنوانا لعنف المواجهات الطبقية التي ظلت تختمر وتتهيأ للانفجار . فهذه الطبقات والفئات والشرائح الاجتماعية والمهنية لم تبق كما كان الشأن في ظل الصراعات الطبقية لعقدي الستينات والسبعينات وإنما في مواجهة برجوازية مهيمنة/تابعة مدججة حتى الأسنان بالأسلحة وتستعمل ضد النضالات التي تخوضها تلك المجموعات آلياتها الإيديولوجية القمعية المتنوعة.

– **الخلاصة الخامسة: القدرة على دمج الاجتماعي بالديمقراطي في مطالب الجماهير وخصوصا الشباب منهم**. فقد بيّن مسار الأحداث أن حساسية المتظاهرين من البطالة وعداؤهم للنظام الاقتصادي النيوليبرالي مربوطة بحساسيتهم بأهمية العدالة الاجتماعية والكرامة والحريات الفردية والجماعية. ويعني هذا إذاً، أن الانتفاضات في تونس ومصر، وغيرهما، هي عبارة عن حركات اجتماعية اندمج فيهما، البعد الكلاسيكي الطبقي مع البعد المدني الجديد.

– **الخلاصة السادسة**، وتتمثل في اللحظة المهمة التي ينبغي تسجيلها هنا وهي **الانتقال من التعبيرات الصامتة لدى**

الشباب أو اللامبالاة بالشأن العام والانصراف عن السياسة، كما كان يزعم الكثيرون، ليتحولوا الى قاطرات محركة لعمليات الحراك الاجتماعي.

ثمة ملاحظة مهمة هنا تحتاج الى توضيح.

في سياق الاحتفاء بـ "ثورات الشباب " في المنطقة، يصر البعض على حث الشباب لرمي الأحزاب السياسية وراء ظهره باعتبارها أصبحت موضة قديمة ! الأمر الذي يثير العديد من الأسئلة وعلامات الاستفهام.

فالأحزاب السياسية نشأت كما معروف كضرورة موضوعية لا يمكن نفيها بسهولة. صحيح يمكن أن يتغير شكلها أو وسائل عملها أو خطابها، لكن مشروعية بقائها تظل موضوعية مادام هناك صراع اجتماعي عموما وصراع طبقي على وجه الخصوص.

- الخلاصة السابعة: البعد الرمزي للانتفاضات اخذ أقصى مداه. لقد كشفت الاحتجاجات فاعلية شبكة الانترنت في نقل أخبار الاحتجاجات وتوثيقها وتعميم خبراتها، وأنها – كوسيلة أو أداة نضالية جديدة – تشكل عالماً موازياً خاض المحتجون والأنظمة الحاكمة معاركهم فيه بالتوازي مع معارك العالم الواقعي بحيث تحوّلت الشبكة العنكبوتية إلى أداة معرفية وتعبوية حاسمة.

- الخلاصة الثامنة: يخطأ من يتصور أن ما حدث في العديد من البلدان العربية هو توقيت ذاتي ارادوي لانفجار الأحداث. فالأمر ليس كذلك البتة، فقد شهد العالم في العقود الأخيرة تحولات و تطورات كثيرة لا بد من التوقف عندها لفهم أسباب وجذور ما حدث عبر قراءة اقتصادية – سياسية لها.

ومع الإقرار، بداية، بان ما حدث هو نتاج تفاعل جدلي بين مجموعة متنوعة من العوامل، الداخلية والخارجية، فإن **الانتفاضات الاجتماعية الأخيرة التي حصلت في العديد من البلدان العربية تشير، في معظمها، بما لا لبس فيه إلى أن الأثر السلبي للسياسات الليبرالية الجديدة**(2) **في العالم العربي** قد بلغ حالة من الخطر لا يمكن الاستهانة بها وهي التي هيأت الظروف لمقدمات الانفجارات الشعبية.

وإذا أردنا أن نضع هذه الأحداث في موقعها الصحيح فانه يمكن القول أنّ هذه الموجة من الانتفاضات الشعبية التي تجتاح معظم البلدان العربية اليوم، هي امتداد **للموجة الأولى التي شهدناها في نهاية سبعينيات القرن المنصرم وثمانينياته**، بدءاً من انتفاضة 18 و19 كانون الثاني / يناير سنة 1977 في مصر، مروراً بالسودان وتونس والمغرب، وعودةً إلى مصر وتونس والمغرب والسودان، ثم إلى الجزائر والأردن والمغرب.

هذه الانتفاضات حدثت بعد البدء بتحقيق "تحرير الاقتصاد" انطلاقاً من وصفة صندوق النقد الدولي الذي فرض ما سمّي بـ " سياسات التصحيح الهيكلي" بحيث أصبحت مهمّة الدولة بموجب هذه السياسات تسهيل نشاط الرأسمال الإمبريالي، والمال المضارب، وحمايته، من خلال إصدار قوانين تحمي نشاطه تحت شعار استقطاب

الرأسمال الأجنبي !

وفي الحقيقة، ولكي نفهم ما يحصل في العديد من البلدان العربية من حراك مجتمعي يجب أن نتذكّر بأن الليبرالية الجديدة قد تمّ استيرادها في السياسات الاقتصادية العامة العربية على **مرحلتين تاريخيتين** (3):

المرحلة الأولى: من سياسة "الانفتاح" إلى أزمة المديونية الخارجية.

المرحلة الثانية: تعميق وانتشار سياسات التحرّر الاقتصادي والمالي.

وفي هاتين المرحلتين (منذ نهاية السبعينات إلى اليوم) تم احتكار الاقتصاد العربي عموماً، ونهبه من قبل التحالف البيروقراطي الكومبرادوي الطفيلي، وتزايدت الهوة الطبقية بصور وأشكال غير مسبوقة في تاريخ هذه البلدان الحديث والمعاصر، الأمر الذي كان طبيعياً معه أن تشعر الطبقات الشعبية بأنّها لم تعد قادرة على القبول بتراكمات معاناتها وإذلالها واستغلالها، وبالتالي وجدت في الانتفاضة الشعبية فرصتها للقضاء على هيمنة هذا التحالف ومجموعاته التي تنهب كل شيء، وتتحكم بكل سياسات الدولة وأجهزتها، وتزيد من قوة الدولة البوليسية والاستخبارية.

ومن جانب آخر كانت السنوات الأخيرة هي سنوات الأزمة الاقتصادية العالمية، التي تمظهرت في البداية على هيئة أزمة مالية عالمية البعد، والتي لم تقتصر آثارها على الولايات المتحدة، بل هزت كل بقاع العالم بدرجات متفاوته ووصلت آثارها بشكل مباشر وصريح الى الكثير من البلدان النامية وبضمنها تلك البلدان المدللة لدى الولايات المتحدة، ولدى صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية. وما حصل في مصر وفي تونس مثلا، يؤشر وبالدليل القاطع **خطل النهج اللبرالي الجديد**.

إذا كانت هذه الثورة قد أنتجت دروسا على الصعيد السياسي، وعلى الصعيد الفكري فلها، أيضا، **دروس على الصعيد الاقتصادي**. فما معروف، كانت تونس ومصر نموذجين لتطبيقات وصفة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي. ولهما موقع بمنظمة التجارة العالمية، بكل ما تعنيه هذه الوصفات من تغييرات هيكلية، محورها الرئيس تصفية قطاع الدولة وان الخصخصة الرهان الوحيد الذي يجب أن ينتشر ويسود ويفرض منطقه. ويدلل التاريخ الفعلي لهذين البلدين، وليس وحدهما، أن الليبرالية التي طبقت في هذه البلدان وهمية تماماً، حيث بيعَ القطاع العام أو فُكّك حصراً لمصلحة نخبة فاسدة، ولم ينل منه القطاع الخاص المحلي كما يزعم نصيباً يذكر، ولم يترتب على ما قيل إنه تحرير للاقتصاد زيادة في الإنتاجية أو تحسين للكفاءة. وعوضاً عن إطلاق آليات السوق كما زعم صقور هذا الخيار وحمائمه، أطلقت دورة تحويلات مالية مشبعة بالزبائنية والفساد، ولم تراع السلطات في الحد الأدنى من متطلبات الأمن الاجتماعي حتى بالحدود الضيقة جدا التي تشجع عليها المؤسسات الدولية، بل أدارت عملية إعادة توزيع معاكسة ضخمة لمصلحة غير المنتجين ولحساب من هم في أعلى هرم السلطة (4).

خلاصة القول، إن انسحاب الدولة من القيام بدور الدولة التنموية، وترك تطور الاقتصاد إلى عفوية السوق والياته الطليقة وإهمال الجوانب الاجتماعية أدى الى جملة آثار من بينها(5):

– تدهور الإنتاج الصناعي والزراعي من ناحية ونمو القطاعات الخدمية والسياحية والعقارية من ناحية أخرى.

– ومن الناحية الاجتماعية، كانت آلية التوزيع في القطاعات الخدمية تعاني من التحيز الاجتماعي ضد الفقراء، فهي لا تخدم سوى الفئات الثرية في المجتمع والسياح وأثرياء البترول، على حين لا يجد المواطن العادي خدمات صحية أو تعليمية لائقة. ونفس الشيء نجده في القطاع العقاري الذي ابتعد تماما عن سكن الفقراء أو حتى الفئات الوسطى، وتركز على القصور والفيلات ومدن الأحلام.

– **تفاقم أزمة البطالة بشكل عام حيث** يقدر متوسط معدل البطالة في الدول العربية بـ 14.8 في المئة في 2009، ويفوق هذا المعدل معدلات البطالة في أقاليم أخرى من العالم. ويقدر عدد العاطلين عن العمل في الدول العربية بنحو 14 مليون شخص في 2009 أي ما يمثل سبعة في المئة من مجموع العاطلين عن العمل عالمياً. وتختلف الدول العربية اختلافاً واضحاً في معدلات البطالة فيها، إذ تجاوزت ثماني دول عربية هذا المتوسط فبلغت 15 في المئة في اليمن ولبنان و34 في المئة في الصومال و50 في المئة في جيبوتي، وسجلت تونس والعراق 14.7 في المئة لكل منها، بينما سجلت 11 دولة عربية معدلات تراوحت ما بين12.8 في المئة في الأردن و0.3 في قطر(6).

ومن المفيد الإشارة هنا الى البطالة عند العنصر الشاب المتخرّج في الجامعات تتنامى بأعداد متزايدة سواء بسبب المعدّلات العالية للنمو السكاني أو بسبب سياسات توسيع المؤسسات التربوية والجامعية في الفترات السابقة لاستيعاب زيادة عدد الطلاب.

– **تعاظم استقطاب الدخل والثروة خلال هذه المرحلة.** صحيح أنّ الفئات الثرية قد توسّعت عدداً إثر موجة زيادة أسعار النفط ابتداءً من عام 2003-2004 وما نتج عنها من فورات اقتصادية في دول الخليج المصدّرة للنفط والغاز، وكذلك فورات في البورصات الخليجية وبعض البورصات العربية الأخرى وأيضاً من جراء الفورات في القطاعات العقارية (التي أدّت إلى أزمة حادّة في إمارة دبي عام 2009). غير أنّ معظم الفئات السكانية الأخرى وبشكل خاص الفئات الريفية وفقراء المدن قد زاد عددها أضعافاً بالمقارنة مع زيادة عدد الأثرياء أو الشطر الأعلى من الفئات المتوسطة الدخل، الأمر الذي يؤكد مجددا أن هذا النمط من " التطور الرث " يعيد إنتاج الاستقطاب الاجتماعي ويفاقم الثروة من جهة والفقر من جهة أخرى. وقد ثبت بالدليل القاطع أن "الانفراج" المحدود وفقا لتوجهات البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، أسفر في واقع الحال عن "تآكل القاعدة الاجتماعية" وتعرض الجماهير الشعبية الفقيرة لمزيد من الحرمان والإفقار والتهميش.

والخلاصة انه وبعد مرحلة "التحرر الاقتصادي" الشكلي و"الانفتاح السياسي المحدود" خرجت الدولة العربية أكثر تسلطا عما كانت عليه. لقد ترعرعت مصالح الشرائح البيروقراطية – الكمبرادورية – الطفيلية في ظل آليات الخصخصة والانفتاح، وانفتح الباب على مصراعيه لسيطرة رأس المال الطفيلي والمضارب، واستشرت ظاهرة الثراء الفاجئ غير

المشروع، وتضخمت ظاهرة الفساد بكل أنواعه في السياسية والاقتصاد والإدارة والعلاقات الاجتماعية.

وفي الإطار العام، فقد كانت أزمة السبعينيات وما بعدها في الدول العربية لحظة فارقة في تاريخ النظم السياسية العربية. فتحت وطأة الركود الاقتصادي، وفشل الخطط التنموية، وافتقاد المؤسسات للفاعلية، والفساد الإداري، وتفاقم الأزمة المجتمعية بوجه عام، اضطر العديد من النظم العربية لاتخاذ خطوات "التصحيح الاقتصادي" في إطار مواكبتها "للسياسات النيوليبرالية العالمية" وفقا لشروط صندوق النقد الدولي (برامج التثبيت والتكيف الهيكلي). وقد جاء ذلك تحت "وهم" أن فتح المجال أمام اقتصاد السوق، وإطلاق المبادرة الفردية، ومجاراة تطور الاقتصاديات العالمية، هي خطوات كافية لإخراج الدول العربية من أزمتها(7) .

ولكن شواهد الواقع أثبتت أن هامش الانفتاح السياسي في بعض الدول العربية، والذي وصفه البعض "بالإصلاح الليبرالي" لم يكن سوى "**إدارة لتناقضات المجتمع السياسي**"، ولم تفقد أي نخبة حاكمة سيطرتها على السلطة، ولم تتغير إلا قواعد وأساليب ممارسة هذه السلطة (8).

وفي هذا الإطار، وقفت حدود الديمقراطية عند مشهد فرز الأصوات الانتخابية بعد تزويرها لتتحول إلى "مجرد تقنية لإبقاء الاستبداد وعدم المساس به ". أو كما يسميها البعض مجرد التغيير في آلية الفن الاستبدادي، والانتقال من القهر السلطوي دفعة واحدة إلى القهر على دفعات أو مراحل غير مباشرة (9) .

الخلاصة التاسعة: تنوع محتويات ترسانة القمع في مواجهة الانتفاضات.

فمن خلال الانتفاضات التي تفجرت في العديد من البلدان العربية يمكن استخلاص نماذج متباينة للتعامل مع المنتفضين لحظة اندلاع انتفاضاتهم (10) :

1. النموذج الأول – تونس. مواجهة التحرك الشعبي مباشرة، وفي ساعاته الأولى، بالسلاح.

2. النموذج الثاني – مصر. مواجهة تجمع بين قدر من القمع والكثير من التحايل.

3. النموذج الثالث – اليمن. المواجهة بالتنازلات التدريجية التي تشجع الثورة على الاندفاع الى الحد الأقصى ولكن من دون انهيار النظام.

4. الاستخدام السافر والمفرط للقوة العسكرية والرهان على الخيار الأمني لتحقيق " مكاسب " على الأرض وتوظيفها لإجبار المنتفضين للجوء الى طاولة المفاوضات مع السلطة وهي في موقع " المنتصر ".

5. المواجهة بالقوة المفرطة التي تأتي بالقوات الأجنبية بذريعة الفصل بين الطرفين المتواجهين. وفي النموذج الليبي، مثلاً، رد نظام القذافي على المحتجين بعنف بالغ، بدلاً من الاستماع إليهم، ومحاولة تفهم مطالبهم والوصول الى تسوية تحفظ استقلال البلاد ووحدة الشعب. وكان للرد بالقوة نتيجة مباشرة: اتسعت الهوة بين قوى الانتفاضة وبين النظام وما تبعه ذلك من نتائج.

6. النموذج السادس يتمثل بمواجهة غضبة الشعب بالتجاهل، أو بالرد على تظاهرات الاعتراض بتظاهرات التأييد لكنها، في الغالب الأعم، لم تنجح في حسم الأزمة التي لا تزال مشتعلة.

7. ينفرد النموذج السابع بكونه من طبيعة مختلفة دمغ الانتفاضة بالطائفية وبالتالي الرد عليها بحملة عسكرية سافرة. فمثلا اتخذ الرد على الانتفاضة الشعبية في البحرين شكل محاولة دمغها بالمذهبية والرد عليها بحملة عسكرية وسير الجيوش (بما فيها قوات أجنبية ممثلة بدرع الجزيرة) لقمعها بعد حملة إعلامية واسعة لإبراز " الهوية المذهبية الشيعية " وبالتالي لا بد من وأد هذا الصراع تجنبا لـ " احتراب طائفي"...

لقد استخدمت المحنة البحرينية في توسيع وتبرير التدخل الأجنبي في منطقة الخليج العربي، بذريعة منع "الفتنة الجديدة بين المسلمين ".

- الخلاصة العاشرة ، هي اختلاف المضامين الأيديولوجية والطبقية للانتفاضات في البلدان العربية مما يعني أن آفاق هذه الانتفاضات - بسبب تركيبتها - تحمل في طياتها العديد من الاحتمالات في ضوء تباين القوى الطبقية والتنظيمية ذات القدرة على التأثير في مجريات الوضع الراهن والمستقبل المنظور.

إن قيام حركات شعبية ترفع مطالب سياسية طموحة، بالاعتماد على الوعي المكتسب وحده، من دون وجود قاعدة اقتصادية - اجتماعية مناسبة، هو خيار جريء لكنه محفوف بالمخاطر، خاصة عندما يترافق مع **غياب البدائل السياسية الجاهزة** لإدارة النظام الجديد وفقا للتوازنات الاجتماعية التي رست عليها الانتفاضات.

وفي ضوء ذلك لا بد من التحذير من المحاولات المستميتة لقوى النظام القديم التي تحاول إيقاف عملية التفكيك وإعادة البناء وتحول دون أن تحقق الانتفاضات العديد من المكاسب الشرعية. وهنا لابد من التحذير من إمكانية استئثار أطراف سياسية بثمار الانتفاضات والقفز على المستجدات واحتكار التكلم باسم الشعب وإعادة إنتاج المنطق القديم في الإقصاء والاحتكار والتمركز والهيمنة على السلطة.

وعندما نشير الى الملاحظة أعلاه لا ننطلق من فراغ بل الى وجود محاولات لعودة سلطة النظام ليس من خلال الوسائل العسكرية المباشرة، بل من خلال ثورة مضادّة أكثر نعومة وخلسة. وما جرى في تونس ومن ثم في مصر في الأسابيع التي تلت الانتفاضات في البلدين، وليس وحدهما، يدلل على هذه المحاولات المحمومة بما فيها إثارة الاضطرابات الطائفية.

خلاصة القول انه ومهما كانت مآل الحراك الاجتماعي الذي شهدناه ونشهده الآن فإن مرحلة جديدة قد بدأت، من **سماتها أننا أمام طور انتقالي متعرج ومفتوح** ويختلف في مدته الزمنية من بلد عربي الى آخر.

* جزء من عمل اكبر يشتغل عليه الباحث.

1 لمزيد من التفاصيل قارن: عبد السلام أديب، أية آفاق للانتفاضات المغاربية؟ متاح على الانترنيت على الرابط التالي:
http://www.hespress.com/?browser=view&EgyxpID=26763

2- لمزيد من السياسات الليبرالية الجديدة قارن: د. صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات الاقتصادية في النسق الراسمالي العالمي –محاولة في فهم الجذور، دار الرواد المزدهرة، بغداد 2011.

3- جورج قرم، الاضطرابات الاجتماعية: حدود النيوليبرالية في العالم العربي. مقال على الانترنيت متاح على الرابط التالي:
http://www.aljazeera.net/NR/EXERES

4- قارن: عبد الحليم فضل اللّه، جولة في مواجهة ثلاثيّة الاستبداد الجديد، مقال على الانترنيت متاح على الرابط التالي:
http://www.al-akhbar.com/node/2373

5- قارن: د. صالح ياسر حسن، الاقتصاد السياسي للازمات...، مصدر سابق.

6- لمزيد من التفاصيل قارن: ذكاء مخلص الخالدي، البطالة تستنفد النمو الاقتصادي للدول العربية. مقال منشور في " الحياة اللندنية " عدد 16 مارس 2011.

7- للمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين الديمقراطية والتحولات الاقتصادية انظر:
Georg Sorensen, Democracy and Democratization: Processes and Prospects in Changing World (U.S.A: West View Press, Ist published, 1993).

8- قارن: جمال عبد الجواد (وآخرون)، "التحول الديمقراطي المتعثر في مصر وتونس" (القاهرة: مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، 1998)، ص 3 ولاحقا.

9- قارن: ثناء فؤاد عبد اللّه، آليات الاستبداد وإعادة إنتاجه في الواقع العربي، مصدر سابق.

10- لمزيد من التفاصيل قارن الرابط التالي:
http://www.assafir.com/Article.aspx.

حـــــــــــــــوارات

(الثقافة الجديدة) تحاور الرفيق حميد مجيد موسى (أبو داود) سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي حول الحراك الاجتماعي والاحتجاجات الشعبية الأخيرة التي شهدتها العديد من البلدان العربية

حاوره رئيس التحرير د. صالح ياسر

كنا خلال الأشهر الأخيرة شهود زلزالين سياسيين كبيرين تلتهما العديد من " الهزات الارتدادية ". فقد نجحت " ثورة الياسمين " في تونس وثورة " ميدان التحرير " في مصر بالإطاحة بنظامي حسني مبارك وزين العابدين بن علي. وبالمقابل ما زالت المعركة مندلعة وتحت الرماد يغلي مرجل التغيير في العديد من بلدان أخرى. وإذا كانت الأحداث لم تنجل تماماً، ولم تكتشّفت احتمالاتها كلها بعد، لكنها من دون شك تنتمي إلى زمن آخر، زمن يمكن فيه لشعوبنا أن تفاجئ العالم وتخطف أنفاسه. حملت (*الثقافة الجديدة*) طيفاً من أسئلة متنوعة وحاورت الرفيق أبو داود حولها في محاولة لتعميق فهم ما حدث وتفسير الانتفاضات والحراك المجتمعي الذي شهدته العديد من البلدان انطلاقا من منهجية علمية، مادية وجدلية وتاريخية.

***الثقافة الجديدة:** ومن المفيد الإشارة هنا الى أن هذه الانتفاضات لم تكن بنت لحظتها بل تكون وراءها مجموعة من العوامل والأسباب فهل لكم رفيقنا العزيز أبو داود أن تحدثنا بمزيد من التفصيل عن الأسباب الاقتصادية – الاجتماعية والسياسية وغيرها التي يمكنها أن تفسر ما حدث على أساس علمي بعيدا عن التحاليل السهلة والمقاربات المتعجلة التي ترجع ما حدث الى عامل واحد؟*

من المؤكد أن تطور الحراك الاجتماعي في كل بلد من البلدان موضوع حديثنا ووصول هذا الحراك

الى لحظة الانتفاض على الوضع القائم هو نتاج الخصائص والظروف الملموسة لكل بلد ومستوى تطوره وخصائص أوضاعه الاقتصادية- الاجتماعية ومستوى تطور حركته السياسية والوعي الاجتماعي.. الخ. ولكن رغم ذلك فان ثمة ما هو مشترك، عام، في ما حدث. يهمنا أن نسمع رؤيتكم بشان الدروس الكبرى المشتركة مما حدث في مصر وتونس وغيرها من البلدان العربية، وبما يفيدنا نحن في العراق من هذه الدروس؟

● **أبو داود:** بداية انتهز هذه الفرصة للتعبير عن إعجابنا بما أنجزه الشعبان التونسي والمصري من انتصار توج برحيل الدكتاتورين: بن علي وحسني مبارك، وعن تضامننا وإسنادنا لحركة الشعب التونسي وجماهير الشعب المصري وشعوب البلدان الأخرى المنتفضة ضد أنظمة الاستبداد والدكتاتورية، ومن اجل بناء أنظمة الحكم الديمقراطية المدنية ولاستعادة الحقوق الاجتماعية لأبنائها.

نعم ماجرى ويجري في تونس وفي مصر وما نتوقعه لهذه الأحداث التاريخية الهامة من تأثيرات ايجابية على حركة الجماهير في البلدان العربية ومنطقة الشرق الأوسط، أقول أن هذه الأحداث وهذه التطورات إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الأحداث الكبيرة والتغيرات الجوهرية هي بقدرة الشعوب إذا ما وعت مصالحها فهي كما كنا دائما نقول، وما زلنا وسنظل، أنها صانعة التاريخ ...الشعب التونسي والمصري عملا ما باستطاعتهما وبثقة عالية بالنفس وبدون تدخلات أجنبية للتعبير عن إرادتهما ولصنع مستقبلهما الذي نأمل بان يكون تاريخ الحرية وتاريخ التقدم والعدالة الاجتماعية.

جرت الأحداث وهي أحداث كبيرة لم تهز المنطقة فقط وإنما هزت العالم أيضا. فإذا كان لنا من وقفة فإنها ضرورية لأننا بحاجة ماسة الى استيعاب ماحصل، والكشف عن جذور هذه الأحداث واستخلاص الدروس العامة المشتركة التي تصلح لكل شعوب بلداننا. فالمهم هو ليس فقط الانبهار بمجرياتها وبمآثرها وهناك مايستدعي الانبهار ويستدعي الإعجاب، ولكن بالنسبة لنا –كشيوعيين – فان هذا لا يكفي. فلسنا ممن يعيشون بالأحلام الرومانتيكية وإنما نحن نستخلص الدروس الواقعية التي ترفدنا في تقديم تضامن وإسناد لنضال هذه الشعوب من ناحية، ومن ناحية ثانية نقتدي بما هو جوهري فيها في نضالنا الحالي والمستقبلي.

نعود الى العوامل. بداية، أقول أن من الخطأ الحديث عن عامل واحد مسبب للأحداث. بالعكس من ذلك، هناك الكثير من العوامل تظافرت كلها، وانعكست بشكل مباشر أو غير مباشر، محسوس أو غير محسوس.

نحن لا نبحث فقط في تحليلاتنا العلمية عن تلك العوامل والمؤثرات المباشرة الظاهرة، ففي المجتمع وفي التاريخ، هناك الكثير من الظواهر، العوامل غير المباشرة، غير المرئية تفعل فعلها في إنضاج واختمار الحركات الثورية، في التمهيد وخلق الأجواء لها. هذا ماجرى في تونس ومصر. طبعا، إن العامل الأساس، المحرك الرئيس هو العوامل الداخلية. وحين نتحدث عن العوامل الخارجية وتأثيراتها إنما نريد أن نؤكد، بأن

لها فعلا وتأثيرا وهي تتفاعل مع ما هو داخلي، الذي نعتبره المحرك الأساس لها. لقد ركزت شعارات الثورتين وكذلك التظاهرات والاحتجاجات التي تشهدها مدن عربية عديدة على الشؤون الداخلية في بلدانها، على قضايا اقتصادية معيشية تتعلق بالبطالة ورغيف الخبز واستئصال الفساد، وبعضها الآخر كانت سياسية تدعو لسقوط الدكتاتورية والاستبداد ورفض التمديد والتأبيد و التوريث، ومن اجل إقامة أنظمة ديمقراطية تطلق الحريات للشعب. وكانت الشعارات، بحكم طبيعة القوى الشبابية التي فجرتها، تختلف طبعا، وهذا ليس عيبا، وتتمايز بدرجة واضحة عن الشعارات الكبيرة و الإستراتيجية التي رددتها أحزابنا ومازالت منذ عقود عديدة.

فكيف عاشت جماهير الشعب التونسي؟ ماذا كشفت الإحصاءات والحقائق، عن الوضع الاقتصادي والاجتماعي؟ البطالة، التضخم، الفقر، الخدمات، التعليم، الصحة. هذه محركات رئيسية والمواطنون يرون ناهبي ثروات الشعب يعيشون في بحبوحة. وهم يرون الفساد باجلى صوره متمثلا في تسلط عائلة بن علي والبطانة المحيطة به على ثروات الشعب التونسي وممتلكاته، فيما عاش التونسيون والتونسيات الجوع والذل والحرمان والمرض والتهميش والإقصاء.

بالتأكيد هذا هو العامل الأساسي الذي حرك الجماهير. فمن يتصور انه بمجرد الحديث عن شعارات سياسية، فوقية أو مطلبية، يحرك أوسع الجماهير أو يدخل أعماق الجماهير فهو واهم. هذه التحركات بدأت في حركات مطلبية ، بدأت في الدفاع عن حقوق ومعيشة الكادحين. هذه الحركات بدأت من اجل مستوى معيشة لائق، من اجل فرص عمل كريمة، من اجل تعليم، خدمات، من اجل صحة وحياة نظيفة. التطلع الى البديل هو الذي شجع الناس للانخراط في حركات ونشاط ثوري شجع الناس على مواجهة سلطات الاستبداد والقمع والدكتاتورية. هذا هو الطريق الذي يفضي بشكل سليم الى السياسة، الى الشعارات السياسية، الى المطالب السياسية. قد تكون هناك أزمات ذات طابع سياسي، مما يتوجب على الثوريين أن يوظفوها ويستغلوها لتوعية الجماهير وتحريكها وبلورة الشعارات الملموسة المعبرة عن مطالبها وتطلعاتها.

ونفس الأمر ينطبق على مصر. كان المناضلون ضد نظام مبارك في مصر على قناعة بان خطوات مبارك الترقيعية لن تمر وإنهم سيملكون القوة لإزاحته وإزاحة نظامه. ولم يكن ذلك بعيدا عن دور الجماهير الكادحة و النقابات والعمال في مختلف المحافظات ومواقع العمل المختلفة الذين انخرطوا في العملية الجارية، وهذا أعطى زخما كبيرا، ثوريا لمعاني الأحداث. نعم كان هناك حكم استبدادي، وهناك سجون، وممارسات قمعية وهناك تعدٍ و تضليل إعلامي، وهناك نشاط مخابراتي، وهناك شراء ذمم، وخونة، كانوا يساعدون الجلادين على أبناء جلدتهم. لكن رغم ذلك كله استطاع الشعب أن يقف على أقدامه، منطلقا من رغبة عارمة في حياة جديدة، حياة تؤمن لطالب العمل عمله، وللعوائل حياة مطمئنة. إذاً العامل الأول اقتصادي- اجتماعي – مطلبي، والعامل الثاني، السياسي المتمثل بمواجهة نظام الاستبداد والموقف من المستبدين وضرورة تغيير الحياة والنهج

السياسي السائد في البلد، هو الذي يتداخل ويخدم وينسجم ويتفاعل مع العامل الأول. إن العوامل الداخلية الأساسية والمهمة ساعدتها وهيأت لها أيضا العوامل الخارجية ظروفا دولية وأجواء إقليمية مناسبة للانفجار ولتحقيق المكاسب.

لاحظوا أن العالم كله، عدا القذافي وحكام السعودية، لم يمتلك الجرأة في الدفاع عن حكام هذه البلدان، بل أن موجة تضامن عارمة شملت العالم من أقصاه الى أدناه للإسناد، وبالتالي حالت دون التدخل الخارجي لمن كانوا يناصرون بن علي ومبارك. إن هذه ظاهرة مهمة وتلفت الانتباه.

هكذا إذن وعند متابعتنا للأحداث ومجرياتها فان المطلوب منا، انطلاقا من منهجيتنا العلمية، أن نبحث عما هو جوهري وعميق. فالتفاصيل كثيرة واليوميات متنوعة، بل أحيانا ثمة ما هو مسلٍ للثوريين وهم يرون كراسي وعروش الطغاة تتدحرج أمام مسيرة الجماهير وحركتها الهادرة.

نعم هذا ضروري ومنعش ولكن يبقى الأهم هو عدم الاستغراق في التفاصيل، فلكل بلد خصوصياته ولكل بلد ملموسياته وتوازن القوى السائد فيه في لحظة ملموسة، وتاريخه وظروفه. فعلينا إذن ونحن نتابع هذه الحركات والانتفاضات أن نتجنب التعامل مع ما يجري في هذه البلدان من موقع المقلد المستنسخ لتفاصيل هذه التحركات وهذه النشاطات الثورية. فالمهم، بالنسبة لنا، أن نستلهم منها ماهو جوهري وأساسي ونوظفه في مسيرتنا خصوصا وإننا عانينا الكثير ولسنوات طويلة من مظالم الدكتاتورية ومن فقدان الثقة وتدهور المعنويات وخصوصا بعد أن جرى التغيير في العراق بالطريقة التي جرت، بالتدخل الخارجي الواضح وعبر خيار الحرب واستحقاقاته.

لقد كنا نحن الشيوعيين نؤكد دوما على أننا نراهن على الشعب وعلى قدراته الذاتية، وعلى ضرورة الصبر الثوري، وضرورة تنظيم الذات وتوحيد القوى، لكن ليس قليلا هي تلك القوى وتلك العناصر التي ليس فقط من خالفتنا الرأي، فالخلاف في الرأي مقبول، ولكن حاولت أن تصفنا بمختلف النعوت وان تدمغنا بالكثير من الأوصاف السيئة. هذا هو الشعب التونسي اسقط دكتاتوره وبطريقة سلمية حفظت للبلد ثرواته وإمكانياته وتفوت على الأشرار فرصا كبيرة، وتوفر للثوريين إمكانيات غير قليلة، وها هو الشعب المصري استجمع قواه وأزاح نظام حسني مبارك في خطوة أولى غير مكتملة لحد الآن، وزعزع أركان الدكتاتورية والاستبداد. وهذا يدفعنا للقول أن الشعوب إذا ما وعت مصالحها واستجمعت قواها فإنها ستكون قادرة على أن تخلق المعجزات، علما انه وكما أكدت التجارب الملموسة في مناطق مختلفة من عالمنا المعاصر أن التدخلات الخارجية والغزو والحروب ليست فقط لا تؤمن مسارا سلساً وسليما للتطور اللاحق، وإنما على العكس من ذلك تخلق من التعقيدات والمخاطر ما لا يعد ويحصى. وها نحن نواجه مثله الآن. هذا هو الدرس الأول الذي يجب أن نضعه اليوم أمام جماهيرنا لأنها قادرة بقواها وبتنظيم نفسها والاعتماد على طاقتها، على إلحاق الهزيمة بعهد الدكتاتوريات... نحن أمام حاجة لتحليل ما حصل واستخلاص الدروس منه والتأكيد على أهم الخلاصات فالذي حصل له مقدمات ومجريات فهو ليس ابن لحظته الراهنة.

وللتدليل على هذه الملاحظات لا بد من التذكير بان أحداث تونس من الخطأ تفسيرها بالعمل المأساوي الذي قام به الشاب بوعزيزي. فهذا النهوض الثوري العارم الذي حصل لا يمكن تفسيره فقط بان ينهض شاب يعاني من الحرمان والبطالة والاضطهاد ويقوم بحرق نفسه احتجاجا على سلوك البوليس السياسي التونسي ونجعل من هذا العمل السبب الرئيس.

ومن دون التقليل من مأثرة الشاب بوعزيزي فان الأمر ليس كذلك. ما دفع وأدى الى حصول هذا الانفجار الجماهيري سببه وعوامله أعمق من ذلك. هذا الذي قام به بوعزيزي هو ما نسميه بالمفاهيم الفلسفية والماركسية هو العذر، المبرر، مثلما كان قتل الدوق في يوغسلافيا هو العذر أو المبرر لانفجار الحرب العالمية الأولى.

إذن يجب أن لا ندع الناس ترى في الحدث الفردي فقط ما هو ظاهر وبدائي، فقد حرق غيرهم أنفسهم في بلدان أخرى ولكن هذا الحريق بمفرده وتكراره واستنساخه كممارسة ضد الأنظمة لن يؤدي الى انفجار الشعوب.

الانفجار ولدته عوامل أخرى أعمق وهذا ما يجب أن نركز عليه، ونحن نستعين بشعبنا لتفعيل إرادته في تعديل وتصحيح المسارات السياسية.

ملخص القول انه لا يجوز تفسير ما حدث بالركون الى حدث واحد أو عامل واحد بل أن ما جرى في العديد من البلدان العربية تقف وراءه مجموعة من الأسباب والعوامل الاجتماعية – الاقتصادية – الثقافية – السياسية. فهي التي أدت الى ما وصلت إليه الأحداث والى ما أسفرت عنه من نتائج.

الأحداث ليست بعيدة عن المتغيرات في العالم

–ث.ج: *هناك بعض المقاربات التي تركز على العوامل الداخلية وتهمل أو تمنح دورا ثانويا للعوامل الخارجية وما يجري في العالم من أزمات في البلدان الرأسمالية المتطورة، وكأنها بذلك تريد إجراء فصل تعسفي بين مجموعتي العوامل الداخلية والخارجية. ثمة إذن محاولة إيديولوجية لتزييف واقع ما يجري بتبرئة القوى والمؤسسات المالية والنقدية الدولية عن الأزمة في بلداننا وما آلت إليه من نتائج كارثية كانت من الأسباب الأساسية لتراكم الغضب الشعبي وانفجاره في العديد من البلدان. هل من تعليق لديكم على ذلك؟*

● بداية، أشير الى أن مثل هذه المقاربات لا تقدم تحليلا علميا لمسار الأحداث بل هي تدخل في إطار التعتيم الإيديولوجي. فهذا الذي حدث في تونس و في مصر وفي العديد من البلدان العربية الأخرى لا يمكن أخذه بمعزل عما يدور في العالم عن ما يدور في المنطقة. يخطأ من يتصور أن هذا الانفجار هو توقيت ذاتي ارادوي لانفجار الأحداث. لا، الأمر ليس كذلك البتة. فكما هو معروف شهد العالم خلال السنوات الثلاث الأخيرة تحولات و تطورات كثيرة هزت الكثير من القناعات والكثير من المعاقل. فهذه السنوات هي سنوات الأزمة المالية الاقتصادية العالمية التي انفجرت في الربع الأخير من عام 2008، ولم تقتصر آثارها على الولايات المتحدة الأمريكية، بل هزت كل العالم وان بدرجات متفاوتة. وقد وصلت أثارها بشكل مباشر

وصريح الى الكثير من البلدان النامية وبضمنها تلك البلدان المدللة لدى أمريكا، ولدى صندوق النقد الدولي، البنك الدولي، ولدى منظمة التجارة العالمية. لو وجه احدنا سؤالا لأحد الخبراء الأمريكان قبل فترة.

ماهي الأشياء التي تفتخرون بها والتي تعتقدون إنكم ساهمتم بصناعتها لشعوب المنطقة؟ لأشار أولا الى تونس وثانيا الى مصر. الآن نلاحظ كيف تتصرف الإدارة الأمريكية إزاء هذه الأحداث. الآن يؤيدون الشعب المصري، على الأقل علنيا،، لكن لايعني هذا أن هناك تغييرا قد حصل في جوهر السياسية الأمريكية. الذي حصل هو تكييف وليس تغيير جوهري، العالم تغير وتكتيكاتهم تتغير، المهم هو جوهر المصالح وهو ما يريدون الحفاظ عليه. واحد أهم ملامحه هو أن يكون هناك نظام مصري، سلس في علاقته مع إسرائيل.

وبغض النظر عن الأهداف الكامنة وراء ذلك، فان ما كان يتدفق على هذه البلدان من دعومات ومن اسنادات مالية كان يخفف الى حد ما من معاناة هذه البلدان أو من أزمات هذه الأنظمة. أما وقد شح السيل وجفت الينابيع فقد طفح الكيل. هكذا إذن كان تأثير ذلك على سوق العمل، على مستوى حياة الكادحين وعلى سعر صرف العملة في تلك البلدان، على الحالة الاقتصادية التي تعيشها الشعوب في تلك البلدان.

وما حصل في تونس ومصر وغيرهما من البلدان العربية ليس بمعزل عما جرى في العالم، ليس بمعزل عن حركات ونشاطات الحركة الديمقراطية و الثورية في العالم. قد يقال أن بعض البلدان النفطية لايشملها مثل هذا التأثير . نعم قد يكون ذلك ممكنا بحكم ما لديها من ريوع نفطية هائلة تمكنها من أن تعالج بها بعض المشاكل. ولكن علينا أن نذهب الى الوجه الثاني من العملية ونتساءل: لمن تدفقت تلك المساعدات وتلك الهبات وتلك الدعومات؟ ولمن تتدفق الريوع النفطية ؟ الجواب على ذلك لا يحتاج الى جهد كبير، إنها لا تتدفق لتحسين مستوى المعيشة ، ولا تتدفق لتحقيق التقدم الاقتصادي والصناعي والزراعي ، ولا لتوفير طاقات إنتاجية. على العكس من ذلك كله، إنها مصدر للإثراء ولتعميق التمايز الطبقي وتعظيم التفاوتات الاجتماعية والتهميش. لاحظوا، وبحسب ما تسرب من أخبار، في مصر الفقيرة كانت عائلة الرئيس السابق حسني مبارك تمتلك 70 مليار دولار ، في حين تبلغ ديون مصر 30 مليار، والملايين تعيش في المقابر.. وملايين تعيش حياة الكفاف. لقد ربطت الجماهير، بتجاربها الملموسة، بين الثراء الفاحش للنخب والعوائل الحاكمة بما جرى من نهب لثروات شعوبنا باسم سياسات الانفتاح، والترويج لليبرالية الجديدة واقتصاد السوق المنفلت والزواج غير الشرعي بين المال والسياسة. نعم هذه البلدان بنت عمارات وعبدت طرقاً وأنشأت بنى تحتية لخدمة الرأسماليين الطفيليين. هذا التقدم المظهري ، هذا التزويق الخارجي لايلغي هذا الاستقطاب الطبقي العميق، لكنه قد يغطي، لفترة. وحتى هؤلاء الحكام الذين أرادوا أن ينأوا بأنفسهم عن ما حصل في البلدان الرأسمالية المتقدمة من أزمات، ومن أوضاع غير طبيعية كشفتهم وثائق (ويكيلكس) فظهروا، بأنهم شخصيات هزيلة ضعيفة، مهزوزة، مزدوجي الشخصية، منافقين يقولون شيئا ويفعلون شيئا. كل هذه كانت

مقدمات وظروف وأجواء عالمية وغيرها كثير، هي التي تؤطر ماحصل وماسيحصل في بلدان عربية أخرى.

وبالمقابل، لابد أن نأخذ أيضا بالاعتبار الوضع الإقليمي عند تحليل ما جري ويجري. فهناك حالة استعصاء تشهدها المنطقة، ومشاكلها لم تحل، وموقف الحكام هزيل ومؤذٍ ، وها نحن نرى مايحصل في كثير من البلدان. وعلى صعيد القضية الفلسطينية التي يعتبرها الحكام، نفاقا وزورا، هي القضية الأولى أين وصلت؟ وما هو أفق حلها أمام التعنت والانفلات الإسرائيلي في تجاهل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني في إقامة دولته المستقلة وفي تجاهل الحل السياسي.

وثمة قضية أخرى مهمة لا بد من إبرازها هنا، ولو بتكثيف. حين نتحدث عن العوامل التي أثرت وتؤثر لايمكن أن نتجاهل تأثير النجاحات التي تحصل في بلد ما على مجرى الأحداث الجارية في بلد أو بلدان أخرى. لقد كنا أمام عملية جدلية حيث بدأت ظاهرة جديدة، إذ استطاع الشعب التونسي أن يسقط حاكمه. صحيح انه كان أمام التونسيين مشوار طويل لإسقاط النظام ومؤسساته ومعالمه، ولكن انتفاضة هذا الشعب بما رافقها وما أنتجت شكلت في الواقع عاملا إضافيا ومحفزا للشعب المصري. كما قدمت انجازات الشعب المصري ونجاحات المنتفضين والثوار المصريين حافزا للشعوب العربية الأخرى.

لنلاحظ الآن كيف تعامل الحكام الآخرون؟ تطور الأحداث بيّن انه ولا حاكم في المنطقة يستطيع أن يتجاوز هذا وما يمكن أن تنتجه من هزات شعبية في بلدانهم. مثلا الملك الأردني غيّر الوزارة ، واطلق زيادات رواتب، وملك السعودية اعتمد سلسلة واسعة من الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية حيث أصدر أكثر من 20 امرأ ملكيا بلغت تكاليف تنفيذها ما يتجاوز السبعين مليار دولار، والكويت هذا البلد النفطي يدفع أرزاقاً ورواتب لـ 15 شهرا. سوريا تتخذ الخطوات ومنها الخطوات السياسية ، إطلاق الاتصالات والفيسبوك الذي كان الشعب محروما منها وتحت الرقابة، وأخيرا العمل على إلغاء حالة الطوارئ. من جانبه اليمن، وهي المرشح الأنضج لحصول تغيرات فيها، يخرج رئيسه علي عبد اللّه صالح ويقول: لن أترشح لمرة جديدة وارفض التوريث، ويتحدث عن تعديل الدستور وإجراء انتخابات، ويدعو للتفاوض والحوار!

معركة المفاهيم توازي معركة الخبر والديمقراطية والعدالة الاجتماعية

– ث. ج: منذ لحظة سقوط نظام بن علي في تونس وبعده نظام حسني مبارك في مصر اندلع سجال كانت ساحته الشارع وأيضا بين النخب. فرغم مرور فترة على سقوط النظامين أصبح مشهدا عاديا حدوث تظاهرات تطالب بالتغيير.. ويؤكد العديد من النخب السياسية وقطاعات من الناس الذين أنجزوا مهمة الإطاحة بالنظامين أن السؤال ما زال مطروحا وهو: ماذا بعد سقوط النظام؟

هنا ينطرح سؤال آخر: لقد أنجز الشعبان انتفاضتيهما بالإطاحة بالنظامين ولكن بمقابل ذلك لم يجرِ تغيير جذري فما زالت بقايا النظامين السابقين مهيمنة على مفاصل الحكم

والسلطة.. نحن إذن لحد الآن أمام انتفاضات شعبية وليس أمام ثورة بالمعنى العلمي. هل يمكن أن نسمع تعليقكم على هذه القضايا من خلال التمييز بين مفهومي الانتفاضة والثورة منهجيا ومن ثم تطبيق ذلك على الملموس، على التجربتين المصرية والتونسية لحد هذه اللحظة؟

● أنا أميز بين انتفاضة وثورة. فمن شروط المعالجة المنهجية العلمية وجوب أن نأخذ هذا الفارق في الاعتبار لأنه لا يجوز التلاعب بالمفاهيم خصوصا ونحن لا نستغرق في تأمل نظري بل نسعى لتشخيص المرحلة وطبيعة قواها المحركة وتناسبات القوى السائدة فيها، في مثل هذه اللحظات المتوترة والمفتوحة على مختلف الاحتمالات.

نعم هذه الانتفاضات مجيدة، هذا لا يقلل من أهميتها، ولكن لابد أن نرى الأحداث على حقيقتها. هؤلاء ثوار ولكن الثورة لم تنجز بعد بحسب ما نعنيه نحن كماركسيين. الثورة تعني تغيير النظام الاجتماعي، تعني تغيير النظام واستبداله بنظام جديد بملامح جديدة. وهذه العملية لم تستكمل بعد هي في مراحلها الأولى، مرحلة الانتفاضة الثورية السلمية التي هزت العروش وأسقطت رموزاً ولكنها لا زالت لم تؤسس البديل المطلوب.

فالثورات المكتملة مهمتها هي ليس فقط إسقاط رأس النظام السابق وإنما رسم ملامح وتأسيس وترسيخ النظام الجديد، إي وضع البديل المنشود موضع التطبيق الفعلي.

هذا الذي حصل في تونس ومصر هزّ الجميع وآثار ردود فعل غير قليلة فكل يريد أن يقطف ثمار هذا أن لم يكن على المستوى المباشر وهذا ما تقوم به القوى السياسية في هذه البلدان وهي متنوعة مختلفة ولا يستثنى من ذلك الحكام السابقون. فكما ترون فإن العمليات المتدرجة المتصاعدة لزعزعة النظام السابق يقابلها بالمقابل محاولات محمومة ولا تخلو من ذكاء من منطلق المصلحة والدفاع عن المصلحة ولا تخلو من خبث ولا تخلو من تجربة لاحتواء الحركات الثورية والالتفاف عليها خصوصا وان هذه الانتفاضات وبما تميزت به لم تستطع حتى اللحظة من وضع قيادات على رأس إدارة الشؤون السياسية في هذه البلدان. ولا زال كثيرون، على المستوى المركزي وعلى المستوى المحلي – اللامركزي، يتمتعون بسلطات وبمواقع يخشى و لابد أن يخشى ولا بد أن يتنبأ المناضلون في تونس وكذلك في مصر من أن النظام السابق يملك قواعد ويملك ممكنات وركائز غير قليلة أن لم يجيدوا، أن لم يحسنوا أن لم يتيقظوا، إن لم يحذروا.

وبالمقابل، لازال أمام المناضلين المبهورين الفرحين بنتائج النصر مهمات كبيرة، خطيرة، تتعلق بها وترتبط بها مصائر الثورة، مصائر التغيير، مصائر الانتفاضة، فلا بد من الحذر. فالكثير من بقايا النظام السابق لا زالوا يبحثون عن الفرص المناسبة لاستعادة المواقع ولإعادة بناء ركائز فقدت، لاحتواء واستيعاب ما جرى ومن ثم الالتفاف عليه وإفراغه من محتواه المطلوب.

وعلى الصعيد العالمي تجدون " كل يدعي وصلاً بليلاه ". فالأمريكان الذين أتوا ببن علي وساندوه ودعموه كنموذج وبعد أن رأوا أن الشعب التونسي حقق ما حقق تخلوا عنه وعن ممارساته وهم الذين يقولون ويتحدثون عن حقوق الإنسان والديمقراطية. هم كذلك كانوا يعتبرون مبارك ونهجه ونظامه

السند الأساسي لسياستهم في منطقة الشرق الأوسط. ولكن عندما اندلعت الانتفاضة لاحظنا تقلبات سياستهم وتذبذباتها صعودا وهبوطاً في التأييد وفي النقد وفي التباطؤ، مما يؤكد مرة أخرى أن هؤلاء لايمكن الركون إليهم.

الشعب المصري هو القادر الأساسِ والوحيد على قيادة الثورة الى نهاياتها السليمة وان يحقق ما عجز مبارك الذي كان يستجدي هو ووزراؤه الموقف الأمريكي ويذكرون الأمريكان بأنهم كانوا دائما أصدقاء أوفياء للنهج الأمريكي، ويحذرون الأمريكان من إنهم سوف يخسرون إذا ما انتصر الثوار ونجحت الانتفاضة !!

من اللافت للانتباه هنا هو انه حين تتحدث الإدارة الأمريكية وتطالب بتنحي الحكام يبقى الضغط متواصلا، وحينما تدعو الى الحوار يندفع الحكام الى الانتقام من الجماهير المنتفضة كما يحصل في البحرين ، وهو ما يحصل، أيضا، في اليمن حيث الإصرار الأمريكي على التفاوض مع الحكومة هناك. حتى ما يحصل في ليبيا ليس بعيدا عن الموقف الأمريكي وعدم اتخاذهم موقفا يقترب من الفرنسيين.

هنا يمكن أن يدرك المرء كيف تدار السياسة الأمريكية وما هو تأثيرها. أمريكا قد تكون غير مرتاحة لحالة جمود وركود سياسات بعض الحكام، لكن لاترغب بحصول مفاجآت، لها نتائج غير مرغوبة.

ولا بد من التذكير هنا بان الطابع المدني العلماني للتحركات التي شهدتها تونس و مصر اظهر أن التلويح بالتهديد الأصولي، الذي روجت له تلك الأنظمة الدكتاتورية المستبدة و معها الولايات المتحدة، باعتباره البديل الوحيد لهذه الأنظمة لم يكن أكثر من فزاعة لتبرير بقاء تلك الأنظمة ودعم سياساتها.

وإذا أردت تلخيص ملاحظاتي حول هذه النقطة فإنني أود الإشارة الى أن انتفاضتي الشعبين التونسي والمصري قد انتصرتا عندما تمكنتا من إزاحة كابوس الاستبداد و الدكتاتورية و الفساد في هذين البلدين، ولكن مايزال أمامهما طريقا وعرا وطويلا من اجل بناء دولة الديمقراطية و العدالة الاجتماعية. وسيشهد المجتمعان، التونسي والمصري، صراعا حادا في الاتجاهات و المواقف والآراء، و تنافسا بين القوى حول طبيعة ومدى التغيير المطلوب؛ وفيما إذا يجب المضي بالتغيير نحو مزيد من التجذير ليشمل لا فقط تغيير القادة والمسؤولين الكبار ومحاسبة الفاسدين وإصلاح النظام، بل ليمتد إلى إحداث تغيير جذري في بنية الحكم و طبيعة النظام القائم. المعركة إذن ستظل مفتوحة حول طبيعة ومضمون البديل الذي يستحقه الشعبان، وغيرهما طبعا.

-ث.ج: ثمة ملمح مهم من ملامح الانتفاضات التي اندلعت في العديد من البلدان العربية وربما من أهم الملامح وهو دور الشباب في هذه الانتفاضات لدرجة أطلق عليها ثورات الشباب. ثمة إذن لحظة مهمة ينبغي تسجيلها هنا هي الانتقال من التعبيرات الصامتة لدى الشباب أو اللامبالاة بالشأن العام والانصراف عن السياسة، كما كان يزعم الكثيرون، ليتحول هؤلاء الى قاطرات محركة للانتفاضات الشعبية التي اندلعت أخيرا في أكثر من بلد. هل من تعليق لديكم حول هذه النقطة؟

● نعم كلنا كنا نعيش لحظات نندب فيها حظ الشعوب بان شبابها قد غرق بالحرمان والجهل ومارست عليه قوى ظلامية وخارجية أنواع المؤثرات لحرف اهتماماته ولإبعاده عن التفاعل مع قضايا شعبه. كان هناك حديث عن شباب "مايع" وقسم يقول "هؤلاء لا خير فيهم". وكلما حاولنا نحن الشيوعيين أن نستنهض العمل بين الشباب كانت هناك قوى وجهات أجنبية تسعى لتخريب قناعات وعقول ووعي الشباب تسعى لإفساد ذلك. ولم نتراجع يوما عن حقيقة أن لا نجاح لثورة بدون الشباب وان الشباب هم الجسر الديناميكي الحيوي المتحمس والوقود الفعال لأية ثورة. هكذا عملنا بوعي وقناعة.

طبعا هذا الشباب يستكمل قدرته التأثيرية وفعله الثوري حينما يتفاعل مع خبرة وحكمة أبناء الشعب الآخرين من الأجيال الاخرى.

وقد وجدنا في الممارسة العملية أن الشباب تتضافر جهوده مع شعبه نتيجة ما تراكم من المآسي والمعاناة، ويطمح لعالم جديد وبناء جديد، وينغمر في التيار النضالي. لكن بالمقابل نجد أن هناك من يريد تشويه معالم مساهمته بالنفخ، أقول بالنفخ الكاذب بقدراته على حساب الأجيال الأخرى، وبذلك يسعون لتأزيم الثورة لإجهاضها باسم الثورة وشبابية الثورة حينما يفتعلون عن وعي أو لا وعي هذا الصراع بين الأجيال في هذه اللحظة التاريخية الحاسمة التي تتطلب وحدة الأجيال، وحدة قوى الثورة. علما أن مقولة " صراع الأجيال" هي مقولة إيديولوجية (بالمعنى السلبي لكلمة الايدولوجيا) وليست علمية.

هل من المنطقي، ومن المعقول الآن أن يتم " نفش " هذا الصراع بشكل مفتعل بين جيل وآخر؟ أم أن المطلوب تحشيد كل الطاقات وان تحترم كل القدرات مع الثقة العالية بالشباب لصالح المضي قدما بالثورة وإتمام مراحلها المتدرجة المتصاعدة؟ للأسف، لا يقتصر الأمر على بعض مراكز الإعلام الموجهة، صاحبة التوجه الأيديولوجي المزيف (علما انه ليست كل أيديلوجية مزيفة) ، التي تحاول أن تربك المشهد وتدفع الشباب، أقول ليس هؤلاء وحدهم يدركون ماذا يعملون ويريدون، ولكن للأسف الشديد حتى البعض من المحسوبين على اليسار والديمقراطيين، أيضا، يقعون في هذه المطبات، عن ضعف وعي، أو في اندفاعات غير مبررة أو ركوب موجة أو محاولات تفرد أو غيرها. اعتقد أن هذه التوجهات مؤذية خصوصا ونحن نتوجه لتوسيع نشاط الشباب. وقد لا نأتي بجديد حينما نؤكد هنا على أن مساهمة الشباب ظاهرة ملهمة ومهمة.

وارتباطا بما جاء أعلاه أود التوقف عند نقطة أرى أنها مهمة تتمثل بخوض الشباب معركة مزدوجة. فإلى جانب مواجهتهم للقمع السافر لأجهزة السلطة كانت تدور أيضا معركة على صعيد العالم الافتراضي بينهم وبين هذه المؤسسات.

ويمكن القول أن احد الملامح المنعشة والجميلة فيما حصل، هو استخدام منجزات الثورة العلمية التكنولوجية وتطويعها وتوظيفها لمصلحة النضال الثوري وللالتفاف والتجاوز على الحواجز والقيود التي وضعتها الأجهزة الأمنية المخابراتية بوجه الشعوب، بوجه الشباب، للاجتماع واللقاء وللحوار، وتبادل الرأي.

ما أهمية ذلك كله؟ في واقع الأمر أن هذا

يعد منجزا كبيرا، يؤكد أن الحركات الثورية، والشباب في قلبها، ليست حركات متكلسة جامدة، إنما تتفاعل مع كل منجز حديث، مع كل تقدم تكنولوجي وتوظفه، أقول توظفه، لمصلحة نشاطهما. الثورة إذن هي ليست ثورة (الفيسبوك) بل هي ثورة الجماهير، والشباب هم الذين استطاعوا أن يوظفوا (الفيسبوك). الثورة لا تخرج من الآلة، إنها تخرج من الشباب والعقول الواعية التي توظف الآلة. حذار من أن نقع في هذا المطب، حذار أن تكرر البدايات حين انتفض العمال في بريطانيا ضد الآلة باعتبارها عدوهم وأنها هي التي جاءت بالبطالة! مسيرة البحث العلمية، والتحول العلمي متواصلة، لكن كيف نستخدم منجزات العلم والتكنولوجيا. فحينما لا توظف، لا تستخدم بشكل صحيح، تأتي منجزاتها سلبية. اكتشاف الذرة وتصنيعها مثلا، هو اكبر منجزات البشرية ولكن كيف وظفتها الامبريالية، كيف وظفها تجار الحروب؟ في بناء قنبلة نووية كما هو معروف، بدلاً أن يطوعوها لخدمة البشرية وحل مشكلة الوقود ويحلوا مشكلة الكهرباء، ويحلوا كيفية استخداماتها السلمية العديدة. نفس الشيء مع تكنولوجيا الاتصالات، مع منتجات ثورة الاتصالات، مع الكومبيوتر، مع الانترنت، مع الفيسبوك واليوتيوب الخ.

-ث.ج: *لننتقل الى قضية أخرى، وهي أن ما حدث في تونس ومصر وفي البلدان العربية الأخرى أيضا، يرتبط شديد الارتباط بالنهج اللبرالي الجديد ومن راهنوا عليه وتطبيق وصفات المؤسسات المالية والنقدية الدولية. فهذا النهج، بحسب كثير من المحللين والخبراء، هو الذي أدى الى تعاظم الاستقطاب الاجتماعي ومفاقمة الفقر وتركز الثروة في أيدي حفنة قليلة على حساب تهميش قطاعات واسعة من المجتمع. وفي مثل هذه الأوضاع، حيث يتم إقصاء قطاعات واسعة من حقلي الإنتاج والاستهلاك، تصبح القوى الاجتماعية المقصاة قنابل اجتماعية موقوتة، وبذا لن تكون الانفجارات الشعبية ممكنة فحسب، بل مؤكدة. هل من تعليق على هذه الموضوعة؟*

● بداية، أود الإشارة الى أن ما حصل في مصر وفي تونس، يؤشر بالدليل القاطع خطل وتفاهة النهج اللبرالي الجديد. إذا كانت الانتفاضات التي نجحت في تونس ومصر قد أنتجت دروسا على الصعيد السياسي، وعلى الصعيد الفكري فلها، أيضا، دروس على الصعيد الاقتصادي. كانت تونس ومصر نموذجين لتطبيقات وصفة صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، ولهما موقع بمنظمة التجارة العالمية، بكل ما تعنيه هذه الوصفات من تغييرات هيكلية، وهذا يطرح سؤالا ملحا: ماذا يريدون من وصفتهم ؟ ببساطة شديدة: إنهم يريدون تصفية قطاع الدولة وطرده من النشاط الاقتصادي، وان الخصخصة يجب أن تنتشر. هنا علينا أن لا نخلط بين خصخصة وقطاع خاص. فنحن أيضا نطالب بقطاع خاص وطني، لكن ليس بالضرورة أن يكون قطاعاً خاصاً على حساب ممتلكات ودور الدولة. الساحة واسعة وتسع للكثير من النشاط والإبداع والاستثمار وغير ذلك. بوصفتهم يريدون إيقاف الدعومات وزيادة الأسعار، يريدون تقليل سعر الصرف،

يريدون زيادة أسعار البنزين، وإلغاء البطاقة التموينية. هذا هو ما يوصون به، بحجة ضرورة ذلك كي يستقر الاقتصاد، كي تستعيد العملة قوتها وقيمتها.

ماذا تعني هذه الأمور لذوي الدخل المحدود، ولذوي الأجور؟ كما بينت التجربة الملموسة لهذين البلدين، وليس لوحدهما قطعا، فان هذه الإجراءات تنفع المتخمين، تنفع الأثرياء للحفاظ على أموال المستثمرين القادمين ولكنها، وبال وقسوة، وانتهاك لحقوق الشعب. إننا ونحن نواجه بهذه السياسة من الكثير من رموز السلطة، حتى عندنا في العراق وفي العالم العربي، فان هذا التقديس والتهويل لمنجزات اقتصاد السوق الحر، يجب أن نضعه بالمحك. لدينا هذه التجربة في مصر وتونس. هذا ما أدت إليه وصفاتهم: حرماناً وفقراً وجوعاً لملايين وثراء فاحشاً لأقلية صغيرة. إن هذا يعد في الواقع سلاحا مؤثرا ونحن نخوض نشاطنا الفكري، بين جماهيرنا، بان نوضح لهم مآل السياسات الخاطئة، النهج الخاطئ والذي لا زال الصراع يجري عليه، في بلدنا، ولم يحسم بعد. هناك مصالح متضاربة، أوضاع غير مستقرة، كي نساهم ونؤثر. هذا النموذج، هو أحسن فرصة للتأكيد على خطل هذه التوجهات، الذي يريده بعض من رموز السلطة ومواقع القرار في بلادنا أن يفرضوها على الشعب العراقي.

يهمني الإشارة هنا ونحن نناقش هذه القضايا، الى أن هناك مدرستين ، مدرسة حريصة على مصالح الشعب العراقي، حريصة على الاقتصاد الوطني العراقي، على رأسمال العراق. وهناك أخرى حريصة على تطمين مصالح طبقات وفئات اجتماعية منافعها كومبرادورية، مندمجة عضويا بالاقتصاد والرأسمال العالمي، وتنظر الى الانفتاح كسوق حرة للتجارة وليس كصناعة وطنية ، وليس سوقاً لانتاج محلي.

نحن نرى العملية بتعقيداتها كاملة. صندوق النقد الدولي، يدعو الى رفع الدعم عن الأسعار، الدعم الخاص بالخبز، يريد إنهاء البطاقة التموينية، يريد أن تصعد أسعار النفط والبنزين الى الأسعار العالمية . لكن هناك مقاومة عراقية، هناك مقاومة وطنية عراقية، وليس "مقاومة " الإرهابيين. هناك مقاومة من ناس يشعرون بالمسؤولية الوطنية، وقفوا بوجه هذه التوجهات، ومنعوا تدهور السياسة والانبطاح أمام وصفات صندوق النقد الدولي. لقد رفعوا أسعار المحروقات، فانقلبت الدنيا، بعد ذلك لايستطيعون أن يفعلوا أكثر، يريدون أن يقلصوا أو يلغوا البطاقة التموينية، هناك من يستنكر، هناك من يقف، هناك جماهير ترفض. و لكن بالمقابل هناك من مصلحتهم مع التجار وتجار البطاقة التموينية حتى تنتعش أسواقهم وأرباحهم وعقودهم تنتعش وبالتالي يستفيدون.

قضايا فكرية تستحق التوقف

-ث.ج: *هذا الذي حصل في مصر وتونس والعديد من البلدان العربية يثير الكثير من القضايا الفكرية، وهناك أيضا الكثير من القضايا السياسية التي تستحق التوقف. ففي مجرى الانبهار والانفعال بمجريات الأحداث وتفاصيلها قد تطرح في ساحة النقاش مفاهيم خاطئة ومقولات غير سليمة أن تركناها دون معالجة*

فسيكون تأثيرها من باب أولى على الذين يتصدرون النضال في تلك البلدان وأيضا بالنسبة لنا الذين نتعايش ونتفاعل مع منعشات وتأثيرات وقبس هذه الثورات سيكون تأثيرها مضراً. ما هي برأيكم ابرز هذه القضايا التي تستحق وقفة أعمق تساعد في منع تضبيب الرؤية على المستوى الفكري؟

● ثمة الكثير من القضايا تستحق التوقف وتتطلب تدشين نقاش عميق بشأنها.. وقد يكون من الصعب في هذه الفسحة أن نتحدث عن كل القضايا لكنني سأتوقف بسرعة عند البعض منها.

1- **إشكالية العفوية/الوعي**. لعل في مقدمة هذه القضايا الفكرية التي تستحق التوقف تتعلق بنقاش ليس ابن لحظته وإنما له جذور تاريخية قديمة ونقصد بذلك **إشكالية العفوية/الوعي**. ففي النقاشات الدائرة لفهم ما جرى يقال بان ما حصل هو عفوي و لا علاقة له بالقوى السياسية والأحزاب المنظمة بل هو من بناة أفكار البسطاء ومن نتيجة أحداث حصلت في لحظتها كما اشرنا (عركه هنا) ونزاع هناك.

مثل هذا النمط من التفكير مؤذٍ وغير مقبول ويتعارض مع منهجنا الماركسي، المادي – الجدلي – التأريخي، الذي من بين قوانينه هو قانون التراكمات الكمية تؤدي الى تغيرات نوعية.

تعني الملاحظة السابقة أن الذي حصل هو محصلة تراكم طويل الأمد. نعم قد يقال أن المناضلين لم ينجحوا، في السنوات الماضية، من أن يحققوا الانتفاضة والنصر. ولكن بالمقابل لا يمكن إنكار حقيقة أنهم أسسوا، بنوا ركائز، بنوا قناعات، ربوا ودربوا، كانوا عنصرا مهما في التحفيز والدفع. فلا يمكن نكران ما تراكم من نضالات المناضلين وما عانوه من السنين سجناً وآلاف الأرواح قتلا وإعداما تحت أيدي الجلادين.

نعم، العوامل الموضوعية هنا من حرمان وكبت ومعاناة وإذلال سياسي واقتصادي واجتماعي لعبت دورها الأساسِ. وبالمقابل كان هناك تخلف العامل الذاتي، إذا كان المقصود به الأحزاب. ولكن ما العيب الذي تتحمله الأحزاب حينما لم تستطع بعد أن قدمت ما قدمت من تضحيات؟ وهل من الصحيح ونحن نناضل أن نكتفي بالعفوية ؟ العفوية ليست الطريق السالك المضمون لانتصار الثورة الكامل.

وحتى لا تفهم الملاحظة أعلاه في غير محلها، ثمة ملاحظة توضيحية هنا. فمع التقدير بأن هناك تحركات عفوية واسعة فانه يجب أن لا نضعها في تقاطع وصراع مع ما تقدمها من تراكمات سياسية ونضالية هذا أولا. وثانياً أن لا نبدأ بطريقة ساذجة سطحية بتقديس، أقول بتقديس، العفوية، وكأن دور التنظيم قد انتفى ودور العمل المنظم قد اسقط. يبقى السؤال دائما، إي بديل نريد؟ من سيصوغ ملامح هذا البديل؟ أليست هناك اليوم حاجة لوجود منظم، لوجود قيادات واعية سياسية متمكنة؟ أليست هناك حاجة لجبهات سياسية توحد القوى وتدير الحوار مع "الثعالب"، مع بقايا النظام السابق ليستخلصوا حقوق الشعب من بين ما يحصل من مناورات ومؤامرات وألاعيب. هنا اعتقد انه يجب أن نحذَر تلك المقولة التي تقدس وتزهو بالعفوية كما لو أن

"بلاء" الشعوب هو التنظيم والأحزاب أو كما يسميها البعض، من راكبي الموجات، الأحزاب التقليدية، ويعنون بذلك الأحزاب الثورية التي لم تستطع، لسبب أو لآخر، أن تحقق نجاحات في إسقاط الأنظمة. نحن بحاجة إذن الى تجميع طاقة كل هذه القوى في تيار واحد جارف.

2- **قيادة التحولات**. الإشكالية الثانية ترتبط بالإشكالية الأولى، ونعني بها قضية القيادة في التحولات النوعية، في الثورة. بدون قيادة متمرسة يصعب انجاز الثورة بالمعنى العلمي الذي نقوله، والمقصود هنا ليس فردا وليس حزبا، بل قيادة تعكس تحالف الفئات والطبقات الاجتماعية المعنية بانجاز تشكيل البديل لمظالم الاستبداد والدكتاتورية.

وهناك حاجة ونحن نناضل من اجل البديل أن نصوغ برنامجا واضحا، فلا يكفي أن نزهو بشعارات ومطالب محددة (ارحل... ارحل) فهذا شعار مهم، (يسقط بن علي.. يسقط مبارك.. الخ) شعار مهم، لكن هل تبني هذه الشعارات لوحدها وطنا جديدا؟ نظاما ديمقراطيا وما هي ملامحه الاقتصادية؟ ما هي ملامحه الاجتماعية؟ هناك من يطالب بزيادة الأجور، وهذا يطالب بتخفيض الضرائب، وذاك يطالب بتحسين الخدمات فكيف ستتحقق هذه؟ هنا أيضا الحاجة لوجود برنامج متكامل واضح المعالم.

حيثما يتواجد التنظيم بمعانيه الواسعة؛ حينما تتواجد القيادات المحترفة الموحدة التي تقيم الحوارات وتنظم التحركات والدراسات، وتربط هذه الشعارات في كل واحد، وتؤسس لتغيرات قاعدية أساسية، عندها نستطيع أن نضمن وضوح رؤيا للثوار وبالتالي تحقيق الثورة.

الملاحظات السابقة تدفعنا للتأكيد على أن الذين ينتشون بالعفوية ويزهون بها إنما يريدون قتل الحركة. لاحظوا دائما وحتى في التجربة العراقية تحدثنا في أكثر من مرة عن هذه القضية. فحتى الأمريكان يغيضهم أن تتواجد قيادة متماسكة واضحة الرؤيا ومتسلحة ببرنامج واضح. وحينما غزوا العراق ودخلوا أرادوا منذ اللحظة الأولى، وحتى قبلها، أن لا يتعاملوا مع الأحزاب، بل أن يتعاملوا مع " أشخاص مستقلين ".

نعم هناك الذين يريدون أن يدفعوا اتجاهات الثورة لمصالحهم. أن يوثقوا انجاز الثورة لأغراضهم ويضيرهم أن يتواجد عمل منظم ، يضيرهم أن يملك الثوريون المنتخبون برنامجا واضحا لبناء البديل الديمقراطي المدني. هذه أيضا من الدروس التي يجب أن نضعها أمامنا وان تكون احد معالم نشاطنا الفكري، حيث مجتمعنا يعيش كل هذه التفاعلات مما يستلزم توعية الناس بالطريق الصحيح استنادا واستلهاما لتجربة تونس ومصر وغيرهما.

3- **أشكال النضال** والحاجة الى العودة مجددا الى الأطروحة اللينينية: التحليل الملموس للوضع الملموس واختيار الشكل النضالي الملموس من دون افتراض مسبقا لهذا الشكل أو ذاك دون غيره. من خلال متابعة مسار الأحداث الفعلي، يبدو انه ثبت بالدليل القاطع، أن الشعوب تواقة للتغيير ولاستحصال حقوقها بالأساليب السلمية. وهذا اثبت انه لو تركت الفرصة للشعوب فلن تكون هي المبادرة بالعنف واستخدام السلاح بل تفرضه عليها القوى المهيمنة عندها تحجب الحريات وتلجأ الى العنف السافر

عندها لم يعد أمام الجماهير إلا اللجوء الى العنف. هذا ما تحدثنا عنه نحن الشيوعيين، أن العنف هو أمر مفروض على الحركة، على الشغيلة، للدفاع عن نفسها وعن حقوقها. فحينما سارت الشعوب وتمكنت من تحقيق مطالبها في الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية فإنها لا تحتاج الى السلاح والعنف وإنما بقوة الضغط الجماهيري تستطيع تغيير موازين القوى وان تفعل ما تراه في الساحة السياسية. فقط.. فقط حينما استعان نظام مبارك بالبلطجية وحين حاول نظام ابن علي أن يوظف الأجهزة السرية بدأت بعض المناوشات ولكن المد الجماهيري العارم، استطاع أن يخمدها. فالعنف دائما هو من صنع الأشرار، وصنع الميليشيات المأجورة، من صنع العصابات المسلحة (البلطجية) الذين يكرهون ولا يقوون على مقارعة الحجة بالحجة أو الرأي بالرأي، والصوت بالصوت. هذا هو الذي أثبتته دروس تونس ومصر. لقد حصل التغيير فعلا، ولكن مسألة مآله ومداه، التغيير الجزئي، أو الجذري، آفاقه. كل هذا وذاك أسئلة مطروحة برسم المتابعة، والدراسة والتأويل، وعلينا أن نكون قريبين من الحدث ومعطياته بوسائل منهجية علمية، وعند استخدامها نستطيع أن نستخلص دروسا لمصلحة شعبنا.

4- دور المؤسسة العسكرية وإمكانية تحييدها. تعلمنا من الأدب السياسي عموما و الماركسي على وجه الخصوص أن المؤسسة العسكرية في أي بلد تشكل إحدى أجهزة القمع بيد السلطة الحاكمة تستخدمها عندما تعجز الوسائل " المدنية " عن ضبط الصراع. لكن ما جرى في تونس و مصر هو أن الجيش ظل محايدا (حتى الآن على الأقل)، لا بل انحاز بدرجة ما الى جانب المنتفضين، هذا درس آخر نحتاج الى التمعن به.

- ث.ج: *أطلقت الانتفاضات الشعبية التي حصلت في العديد من البلدان (وما زال مرجل التغيير يغلي في بلدان أخرى)، أطلقت تلك الانتفاضات " المارد من القمقم" وحركت قطاعات واسعة. وعلى الصعيد السياسي - الفكري تدور معركة واسعة حول آفاق التحولات وبالخصوص على مستوى البدائل المطروحة. ومن المؤكد أن قوى اليسار والأحزاب الشيوعية ليس بمعزل عن هذا الحراك حيث لاحظنا خلال الفترة الأخيرة تزايد الاتصالات وعقد مؤتمرات إقليمية. هل لكم أن تتناولوا هذه القضايا بمزيد من التفصيل؟*

● أمامنا، كقوى يسارية وشيوعية، ما يقتضي منا بحثه باستمرار، والتواصل مع الأحداث. وحقا أن الناس عندما تكون مطلعة بدقة ويوميا على مجريات الأحداث، فان هذا يعد أمرا مهما جدا، ولكن شريطة أن يجري في إطار منهجية صحيحة ، في إطار تصورات سليمة ، تنطلق من الحرص على فهم جوهر الأشياء، وليس الانبهار بشكليات الأمور، وبسطحياتها، فلنبحث بعمق المسائل، لنتأكد من معاني ما يجري. الأحداث، بمعنى ما، كانت مفاجئة لبعض القوى ومفاجئة لبعض الدول الكبيرة والمؤثرة في العالم وتحتل مواقع أساسية فيه.

بالنسبة لليسار العربي نحن طموحون وكان لنا دائما رغبة صادقة ، في تطوير

نشاطه ، ونحن قبل هذا الوقت أي في أواخر عام 2010 ، كان لنا حضور في الاجتماع الذي عقد في بيروت لمناقشة التطورات، ولكن مع الأسف الشديد يبدو انه لم تكن، موضوعة ما يجري اليوم هي الموضوعة السائدة في النقاش آنذاك. حيث أن إخواننا ورفاقنا وأصدقاءنا في اليسار، كانوا مركزين على الامبريالية وفلسطين، ومطالعاتنا في الاجتماع يجب أن تقرأ مجددا حتى تعرفون مدى مساهمتنا في وضع اليسار ، على الطريق الصحيح. نحن قلنا لهم، انه ومن دون التقليل من دور الامبريالية في منطقتنا الذي نعرفه جيدا، فان ما يهم شعوبنا هو أولا وقبل أي شيء كيفية إقامة نظم ديمقراطية تؤمن بالعدالة الاجتماعية، فانتم بدل أن تذهبوا الى الخارج لا بد من متابعة ما يجرى في بلدانكم ، ماذا يحدث فيها ، اطلعوا على معاناة شعوبكم وما يحصل لها. فتجربة هذه البلدان وشعوبها أكدت بما لا يدع مجالا للشك انه بالديمقراطية وحرية الشعوب وبالعدالة الاجتماعية تكون الشعوب أقوى في مواجهة الامبريالية والصهيونية.

هذا الخطاب ليس ابن هذه اللحظة. إحدى مشاكلنا مع بعض قوى اليسار العربي وحتى مع بعض أشقائنا تكمن في تحدي الأولويات وكيفية ترتيبها. وكما معروف فإننا ومنذ سنوات ، طويلة، ومن يراجع وثائق الحزب، سيجد أننا كنا نقول (ولا نزال طبعا) أن النضال ضد الامبريالية لن يكون فاعلا وقويا إلا حينما تؤسس داخليا أنظمة ديمقراطية في بلداننا. وهكذا فانه ومنذ أواخر التسعينات بدت بعض التباينات بيننا وبين بعض أشقائنا، ومن يريد متابعة ذلك فالوثائق موجودة. مع ذلك أننا لم نتبرأ من اليسار رغم نواقص التوجه، وقد شاركنا في لقاء يومي 18و19 شباط 2011 وعبرنا هناك عن وجهة نظرنا بكل وضوح وشفافية، عن واجب اليساريين في الانخراط والاندماج والتفاعل مع كل معطيات الرياح الثورية التي هبت على تونس وعلى مصر وستشمل العالم العربي ومنطقة الشرق الأوسط .

ومن جانب آخر كنا أثناء الأحداث وانتفاضة تونس ومصر على صلة مع رفاقنا في البلدين للتعبير عن أقصى درجات التضامن مع نضالهم وسعادتنا لتتويج نضالات الشعبين بالانتصار. كما كنا نؤكد لهم بما وصلنا له من تجربتنا الخاصة، وننبههم ونحذرهم من الطارئين أن يستولوا على ما أنجزوه ، فالأجهزة القديمة هي حقا باقية. وأكدوا لنا أنهم واعون لهذه القضية.

إننا اليوم إذن أمام إعادة اللحمة للتضامن القومي والأممي، التضامن مع نضال الشعوب في المنطقة لصالح التقدم والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، نعيد ألق التضامن الأممي الى سابق عهده الذي جرى عليه تشويه خلال الفترة الماضية.

-ث.ج: *إن ما جرى من حراك اجتماعي واسع وانتفاضات شعبية في العديد من البلدان العربية يطرح سؤالا ملحا: هل سيتأثر الوضع في العراق بما يحدث في البلدان العربية الأخرى؟ نطرح هذا السؤال وفي الذهن ما تمارسه القوى المتنفذة التي تتعامل مع الأمور وكأن " دار السيد مأمونة " لان " كل شيء على ما يرام " . وما هو تقييمكم للحراك الجماهيري الذي شهدته البلاد خلال الأشهر الأخيرة؟*

● هذا الوضع المتشكل في المنطقة له تأثيره المتبادل، وما يدور في أي بلد هو متأثر فيما يحصل في البلد الآخر. ما يحصل له تأثيراته وترابطه فيما يحدث في العراق، كمحفزات إضافية لاعتماد الجماهير على نفسها لانتزاع حقوقها. وان العراق لن يكون استثناءً مما يحصل، فهناك في التطورات ما هو عام مشترك وبالذات الحرمان والتهميش وسوء توزيع الثروة والمعاناة في أوساط قطاعات واسعة من الناس، كذلك قضية الحريات ودولة القانون والمؤسسات..الخ. فان حصّن العراق نفسه من الجانب السياسي بهامش الحرية الموجود، فان **الشق الاجتماعي** لا يمكن الاستهانة به، إذ يوجد اليوم في العراق أكثر من 7 ملايين مواطن تحت خط الفقر، وتبلغ البطالة والبطالة المقنعة، والعمالة الناقصة، نسباً مرتفعة قد تتجاوز 30 بالمائة، والشباب أكثر فئات المجتمع تعرضاً لآفة البطالة التي تفاقمت بمديّات واسعة، ولا ننسى الفساد الذي اتخذ طابعا مؤسسيا وكذلك سوء الخدمات وتدني مستوى التعليم والصحة ... الخ.

وما جرى من مظاهرات خلال الفترة الأخيرة في بلادنا ليس إلا تعبيرا عن عمق التفاوتات الاجتماعية والتوزيع السيئ للثروة وانسداد الأفق أمام قطاعات واسعة من الجماهير وتعاظم ما تعانيه من حرمان وتهميش وإقصاء عن المشاركة في صناعة القرار. والذي هز الجماهير في كل مكان، هز جماهيرنا أيضا وترون ما يحصل يوميا ومنذ أسبوع من تظاهرات وكيف تتفاعل الأجهزة.

ما يجب أخذه بالحسبان، انه كلما اتقنا واجدنا استخلاص الدروس ووضفناها بالشكل الصحيح ، كل ما كانت نتائج تحركنا ونشاطنا أثمر، واثر تأثيرا ملموسا على المجريات السياسية في بلدنا ولخدمة شعبنا وجماهيرنا.

لكن حذار من الاستنساخ !

ومن جهة أخرى لا بد من التنويه بان هذا الذي حصل ويحصل لن يكون العراق استثناء منه ولن يكون بمنجى من تفاعلاته، لكن الظروف العراقية قد تختلف عن ظروف اليمن وعن ظروف الأردن، عن ظروف مصر، فلكل بلد خصوصياته. المطلوب منا إذن أن نقوم باستلهام الدروس العامة، وان لا ننسى أوضاعنا الخاصة وإمكانياتنا الفعلية.

وحذار من التقليد، حذار من الاستنساخ، حذار من التكرار الفوقي، فما يصلح هناك من الأشكال والتكتيكات والأساليب قد لا يصلح لبلد مثل العراق. إذاً علينا أن نبدع أساليبنا، أن نستخلص تكتيكاتنا آخذين بالاعتبار توازن القوى، طبيعة العلاقات السياسية القائمة ، مع طبيعة الظروف العامة السائدة في العراق.

نحن من حيث الجوهر، لا أقول من حيث الشكليات أو الظواهر، لسنا بعيدين عما ولد هذه الإرهاصات، وهذه الانتفاضات، فالبلد كما تعرفون، وقد تحدثنا كثيراً عن ما سبق الانتخابات وما أفرزته من نتائج وآثار. واعتقد أن الكثير مما تحدثنا عنه واستنتجناه وما أشرناه من ملامح الوضع السياسي، قد أثبتت الحياة صحته. فالحكومة اليوم تدور في دوامة، في حلقة مفرغة، فقد مرت أكثر من سنة على الانتخابات ولم يستكمل تشكيل الحكومة. ما هو الانجاز الذي يمكن أن نؤشره، على

صعيد المتطلبات الأساسية والمجتمع يحتاج الى حل لمشاكل هذه المتطلبات الأساسية، الى حل شامل ضد الفساد. وربما ينطرح سؤال: لماذا التركيز على الفساد؟ لان كل الملفات الأخرى مرتبطة بالفساد، الإرهاب مرتبط بالفساد، التنمية والاستثمار مرتبطان بالفساد، الأجهزة الأمنية وفاعليتها مرتبطة بالفساد، الكهرباء والماء مرتبط بالفساد. فقبل فترة قرأت في جريدتنا (طريق الشعب) خبرا نقلا عن رئيس دائرة مكافحة الرشوة في النزاهة. ماذا يقول الخبر؟ يقول: أن 90% من مبالغ الاستثمارات تذهب الى بطون المفسدين و 10% يتم الاستفادة منها. المليارات تهدر هناك حيث يغتني بها الطفيليون الرأسماليون الجدد حديثو النعمة، الذين لا يتورعون عن نهب كل شيء. يجب علينا أن نراعي الناس وهم يطالبون بنظام أجور عادل يقلص الفجوة بين الحدود العليا والدنيا، ويحفظ ويسحب من الرؤساء صلاحيات الصرف غير المبرمج، علينا أن لا ننسى، أننا في بلد رأسمالي أسوأ وأقبح أساليب الرأسمالية فيه. وعوامل تراكم الرأس تأتي بأبشع الصور، بالسرقة، والنهب، والقتل من قبل العصابات والمافيات. هذا هو الذي يجري في الواقع، مما يتطلب توجيه الناس الى الطريق الصحيح مما يؤدي الى كشف الحقيقة، كما هي كاملة.

كثير هي الأمور التي تستحق التوقف ولا أطيل عليكم، ونحن نعيش ما يعيشه الناس من حرمان، ومن بطالة، ومن فقر، ومن تضخم. والأمر المهم هنا هو كيف نتفاعل مع ما يجري من المهمات التي نضعها لأنفسنا، كي نتفاعل مع الحدث بأفضل ما يمكن من التفاعل، وأفضل ما يستخلص من الدروس، ولتوظيف هذه الدروس لتطوير عملنا الحزبي.

هناك 270 مليار دولار ميزانية الدولة خلال السنوات السبع الماضية! ماذا نرى عندما نسير في الشوارع؟ كم يوجد من المدارس، من خدمات؟ هناك مأساة، وهذا الذي نراه على شاشات التلفاز هل من المعقول ؟ هل هذه مناطق يعيش فيها بشر؟ زبالة على زبالة، على مستنقعات، على خرائب.. الخ.

نناقش موضوع الفساد بارتباط أيضا مع مناقشة الموازنة. تعرفون أن الميزانية طرحت للتصويت، من الشهر العاشر العام الماضي (2010)، ولكن عدم تشكيل الحكومة والمناورات والمحاصصات ونزعة الهيمنة على الغنائم، عطلت إقرار الميزانية. الآن ورياح الثورة التونسية، والمصرية وتحرك الشعوب بدأت تهب لتصل العراق، استيقظ البعض من العراقيين، ممن ناموا في نعيم السلطة في هذه الفترة، حيث بدأوا يطالبون في آخر فترة، يطالبون بحسم 15%من الميزانية للتوزيع المباشر على السكان ؟!!، وهم الذين عملوا ومنذ عدة اشهر على تعطيل الموازنة من اجل مليار، كيف الآن عشرة مليارات نطلقها ونقسمها في لحظة (ملاحظة: المقابلة جرت في أواسط شباط/فبراير 2011 – المحرر).

وبشأن تقويمنا للحراك الجماهيري، أود التأكيد على **القضايا التالية**:

– إن ما حصل ويحصل من تظاهرات وحراك جماهيري واسع ، هو شيء يستحق التقدير والتثمين وبالتالي لابد من استثماره لتعزيز تقاليد نضالية راسخة، لتفعيل مساهمة الناس في الحصول على حقوقها. هذا الحراك أدى الى تحريك "المياه الراكدة "

واتساع مزاج الإصلاح والتغيير.

– ما حصل يرسخ الديمقراطية، وقد أكد حقيقة مهمة هي أن الديمقراطية ليست انتخابات وأصوات انتخابية فقط، بل أن إصرار الناس والجماهير على ممارسة حقها في التظاهر هو احد وسائل ترسيخ الديمقراطية ومؤسساتها.

– ما حصل أدى الى ارتفاع معنويات الجماهير، التي باتت أكثر شجاعة في المساهمة. في البداية كان هناك تردد، ولكن هناك إصرار الآن على المواصلة وتعزيز للثقة بالنفس. ويعزز ذلك ما أجبرت الحكومة على اتخاذه وان مطالب الناس وجدت طريقها الى برنامج الحكومة.

– وهذا يدفعنا لاستخلاص الاستنتاج التالي: لم يكن الحراك الجماهيري الذي شهدناه خلال الأسابيع الأخيرة بدون معنى أو بدون نتائج ملموسة كما يروج البعض، فالتظاهرات في عموم العراق أدت الى انتزاع مكاسب ملموسة وتقديم مشاريع للإصلاح من بينها:

1- فالحكومة اضطرت الى تخفيض رواتب الدرجات الخاصة . وان يعاد النظر بالرواتب وفقا لمستوى المعيشة.

2- كما جرى إزاحة 3 محافظين، إضافة الى التأكيد بان على المحافظات أن لا تعيد أية مبالغ الى وزارة المالية.

3- وهناك نزول ميداني للمسؤولين والمطالبة بتحويل ذلك الى حالة دائمة. وهذا شكل جديد من الرقابة الشعبية وانتزاع للمكاسب.

4- ما حصل يؤدي الى ردع الفاسدين وتخويف المعرقلين، كما يضع البعض من رجال الأمن الشرسين المستهترين بأرواح الناس، تحت المساءلة عند تجاوزهم حدود مهماتهم في حماية النظام العام وضمن الضوابط التي حددها الدستور.

5- ما حصل من حملة لتعرية الاعتقالات والتعذيب سيترك أثره على أيتام النظام السابق ومن تدرب في الخارج.

6- ما حصل سيؤدي الى تعميق وعي الناس. فالناس لا ترتقي بنضالها السياسي مالم تمتحن بنضالات مطلبية ملموسة.

– الأوضاع الجديدة قد تخلق إمكانية لدحر نظام المحاصصة. فالمتغير الجديد هو الشارع الذي لم يكن في المعادلة.

ملخص القول أن الحكام لا يستطيعون اليوم تجاهل ما يجري والاستهتار بالتظاهرات والمطالب. صحيح ليس كل القوى السياسية لها نفس الحماس والفاعلية في التحرك.

فهناك منها من يتمنى أن تضغط على المالكي كي يرحل. التحرك ضغط على الحكومة. الحكومة مترهلة تحتاج للتقليص، وكذلك ما حصل بشأن تعيين نواب ثلاثة للرئاسات، رئاسة الجمهورية، ورئاسة الوزراء، وغير ذلك من الأمور والقضايا.

– تطالب الحكومة بمهملة تعطى لها ويقولون هم في السلطة منذ شهرين وكأن حياة العراقيين بدأت منذ شهرين، كأنما الناس ليس لها الحق في المطالبة، كأن الأطراف المشاركة فيها بعيدة عن السلطة، وهم فيها منذ سبع سنوات.

– الولايات المتحدة من جانبها تريد أن تطمئن بان الأمور لم تفلت. وبقدر ما يرغب الأمريكان في الحفاظ على النظام الحالي ولكن بالمقابل يرغبون بنوع من الإصلاح الذي قد يثير جملة من الأسئلة حول

مضمونه. علما أنهم يقولون بتأييد التظاهرات التي تدعو للإصلاح ولكن ليس تلك التي ترفع شعار إسقاط النظام.

- ث.ج: بعد كل هذا، لنتوقف الآن عند الحزب ودوره والدروس التي استخلصها من انخراطه النشيط في التظاهرات، ومساهمته الفاعلة في الحراك المجتمعي الدائر اليوم في بلادنا، وهل انتم راضون عن ما قمتم به؟

● اعتقد أننا تأكدنا بالملموس وعبر التظاهرات التي نعتبرها تمارين مهمة لتدريب الرفاق والرفيقات والجماهير الكادحة على النضال الملموس والمهام الملموسة، أن حركة سياسية، لا يمكن لها أن تنشط وان تؤثر أن لم تكن لصيقة بالجماهير، وبمطالب الناس، وبحاجاتهم الفعلية، وفي مواقع عملهم ومواقع سكنهم. فللمرة، ربما الألف أو الأكثر نؤكد بان مصائر تأثيرنا وجميع دورنا وما يفيد مجتمعنا وإعادة البناء الديمقراطي فيه يرتبط، بما لا يقبل الشك، بحضورنا المباشر واللصيق بحاجات ومشاعر ومطالب ملايين المواطنين البسطاء، فهناك هو المستودع الكبير للتغيير الديمقراطي الحقيقي.

وقد تبين بالملموس أن الديمقراطية ليست مجرد انتخابات مزيفة، ولا قوانين ظالمة وممارسات فوقية.

نعم سنتمسك بهذه المؤسسات وهذه الأشكال رغم ما لنا عليها من ملاحظات، ولكن بالمقابل سنواصل نضالنا لتطويرها ولإلغاء ما علق بها من خلل ومن ممارسات سلبية كي تكون بحق وحقيقة ديمقراطية معبرة عن مصالح الشعب وكادحيه على وجه الخصوص. فالديمقراطية إذن ليست انتخابات وإنما مشاركة الجماهير الفعلية في السلطة ونحن نتعامل مع هذه التحركات الجماهيرية.

حاليا المجتمع العراقي يمور ويفور بالاعتصامات والمطالب من شماله الى جنوبه ومن شرقه حتى غربه وهذا الحراك لا يمكن تجاهله سياسياً. لذا لا بد من توظيف هذه التحركات الضرورية، المدافعة عن حقوق الناس ، بالاتجاه الصحيح لتشذيب الديمقراطية بما علق بها من ممارسات خاطئة، ومن استغلال سيء لبعض ملامحها.

وهذا يحتاج الى التواجد والمشاركة النشيطة، المبادرة، الانضباط، التنظيم. وحتى حينما نشارك علينا أن ندقق. نحن نشترك في الفعاليات ولكن بعد السؤال: من هي وماذا وأين؟ لان هناك البعثيين والإرهابيين يريدون أن يستغلوا ذلك، ولكن هذا لا يضعف حماسنا للتحرك، بل يزيدنا مسؤولية في أن نكون حاضرين حتى لا توظف الأمزجة الشعبية لصالح هؤلاء، فهذا ما يجب الالتفات إليه. وحيثما كنا مبادرين، وحاضرين وفاعلين نستطيع أن نؤثر على اتجاهات التحركات الجماهيرية وان نوجهها بالاتجاه الصحيح.

نحتاج الى تنسيق علاقتنا، فالقضية ليست قضية الشيوعيين وحدهم، بل هي الآن تشغل المجتمع كله، وتعني غالبية الأطراف السياسية، ما هي دوافعهم، ما هي أغراضهم؟ ولكن ضرورة حضورنا معهم وتشاورنا معهم، وتنظيم العلاقات مع منظمات المجتمع المدني، مع النقابات، مع الجمعيات مع أحزاب وشخصيات متنوعة المشارب، كل هذا يجعلنا في الموقع المؤثر والصحيح. فلا وقت للعزلة والانكماش

والتردد، لابد من الإحاطة بكل مضاعفات وتعقيدات الوضع، المجتمع يتحرك ويحب أن نكون موجودين في وسط هذا الحراك.

تفعيل التيار الديمقراطي

وهنا يحتل موقعاً متميزاً ما قمنا به من مجهود خلال الأشهر الماضية في تفعيل التيار الديمقراطي سوية مع قوى وشخصيات التيار الأخرى، وهم الأقرب لنا في التصور وفي النوايا، وفي الأهداف، فإذا كنا قد عقدنا مؤتمرات ناجحة في الكثير من المحافظات وفيما بعد في بغداد، الآن الحاجة لتفعيل هذه المؤتمرات، بتفعيل نشاط لجان التنسيق.

نحن قلنا أن هذه المؤتمرات لا تنتظر انعقاد المؤتمر بعد شهرين أو ثلاثة وحسب، ليس هذا هو الهدف ليس هذا هو الغرض، وإنما لتنظيم نشاط الديمقراطيين في كل محافظة، في كل منطقة، والانطلاق كما اشرنا ينطلق من مطالب الناس. فعلينا إذن أن نفعل صلات رفاقنا في لجان التنسيق، يجب أن يسعون لاجتماعات منتظمة للجان التنسيق للتيار الديمقراطي وللتنسيق معهم في النشاطات الجماهيرية، وإلا ما قيمة هذا الذي قمنا به، هل لمجرد أداء فريضة، إلقاء حجة أم لزيادة النشاط الجماهيري على الأرض؟

نحن نمتلك الوضوح، وعلينا أن نفعل هذا، وقد ابتدأنا بشكل سليم وصحيح وعلينا مواصلة هذا النهج.

تنشيط العمل الفكري

وبالمقابل فان الأيام الحالية، كما قلنا، هي أيام يعج فيها المجتمع بالنقاشات والتعليقات والمتابعات السياسية، لذا فهي أفضل فرصة لتنمية العمل الفكري. فإذا كنا نتحدث عن النضال الجماهيري، وعن التيار الجماهيري، الديمقراطي، وعن العمل الفكري بالمفردات التي تحدثنا عنها؛ السياسات الاقتصادية الليبرالية الجديدة، التدخلات، ومع هذا الموج علينا أن نعرف أن ما يجري هو عمل ومطلب سياسي، هو نشاط مطلبي سياسي، لا يوجد نشاط مطلبي مقطوع عن الناس.

ماذا يعني نشاط مطلبي؟، انه عمل من اجل القضاء على البطالة، عمل من اجل تبليط شارع، عمل من اجل خدمات أفضل ومدرسة نظيفة تجاري العصر فأين هي القضية التي ليس لها علاقة بالسياسة؟ أين هي العملية التي ليس لها أساس سياسي ونتائجها سياسية.

فلذلك نحذر اشد الحذر ممن يعطون لأنفسهم أدوارا بان هذه نشاطات نمطية بعيدة عن السياسة والتسييس!!

هذا نضال بحق وحقيق، ولكن هؤلاء يريدون أن يحرفوا النضال ويحصروه بحدوده الاقتصادية ويحرمون الناس من رؤية المسبب الأساسي وهو الذي يكمن في القرار السياسي الذي يصنعه السياسيون والسلطة السياسية. فلذلك فإننا، ونحن نخوض عملنا الفكري، علينا أن نتناول كل هذه الأمور بأقصى قدر من الوضوح. نعم نحن ضد التحزب الضيق وأتمنى على رفاقنا وأجهزة إعلامنا والناشطين في العمل الفكري، أن لا يقعوا مرة أخرى في هذا الخلل والخطأ الفكري الكبير، فثمة فرق كبير بين الحزبية والحياة الحزبية والتحزب الضيق. نعم نقول لا للتحزب الضيق، وضد محاولة حصر النشاط السياسي الجماهيري العام. أن الحديث عن اللاسياسة هو مشروع

فكري سياسي لبعض القوى التي تريد حرف نشاط الجماهير عن الاتجاهات الحقيقية، حينما يراد عزل النشاط الاقتصادي، النضال الاقتصادي عن النضال السياسي، الذي هو المنطلق، والذي هو النتيجة.

الحاجة ماسة لمنظمات حزبية فاعلة متينة العلاقة مع الناس

وأخيرا، ونحن نقوم بكل هذه المهمات ونفعلها، فإننا بحاجة الى ترصين وتقوية ديناميكية وهيكلة منظماتنا وتعزيز أواصر الصلة بين منظمات الحزب والناس والكادحين منهم ، و الى إحياء الاجتماعات واللقاءات والتفاعل مع الناس، و زيادة عضوية الحزب وتوسيع صفوفه. هل هناك مناخ سياسي أفضل من هذا، الجو كل الناس فيه تعمل في السياسة؟

علينا أن نستثمر ذلك.. فبدون منظمات حيوية، وبدون رفاق ورفيقات فاعلين على صلة مباشرة بالناس، يصعب تحقيق الآمال التي يضعها الحزب على أبنائه وبناته. وكلنا ثقة بان الشيوعيين العراقيين الذين تغمرهم الفرحة والانتعاش ويتعاملون بالمسؤولية الكافية مع ما يجري في بلدنا و في البلدان المجاورة وعند الشعوب الأخرى، سيستلهمون العبر ويستخلصون الدروس ويوظفونها في دور اكبر على طريق خلاص شعبهم وإنقاذه مما هو عليه من معاناة ومآسٍ، ويساهمون بنشاط في تحقيق هدف شعبنا النبيل الماثل في إنهاء الاحتلال واستعادة السيادة والاستقلال التامين، وبناء العراق الديمقراطي الفدرالي الحر والموحد وسيد نفسه.

-ث.ج: *وإذ يشارف لقائنا على الانتهاء، هل من كلمة أخيرة ترومون قولها، رفيقنا العزيز أبو داود*؟

● ثمة استنتاج مهم قوامه أن الوقت له قيمة، فمن يستطيع أن يستخدم الوقت بالجدارة والبراعة الكافية؟ انه قطعا ليس المهووس الهائج بل العقلاني المنطقي الذي يستثمر تلك اللحظة. فمن يتأخر عن التقاط هذه اللحظة تصبح عليه مستحقات. لنتذكر ما قاله لينين في ثورة أكتوبر: أمس مبكر، غدا متأخر، اليوم القرار السياسي.

هنا البراعة، أن تتعامل مع الأحداث برجاحة عقل، بوضوح فكر وبمنطقية، ليس بالانفعالات والعواطف. نعم العاطفة مطلوبة، الإسناد والاحتفاء مطلوب، لكن ونحن نتحمل مسؤولية قيادة وتنظيم ومبادرة .. مطلوب منا أن نعرف كيف نضبط الأمور حتى تؤدي الى نتائجها الطبيعية ونتجنب الثغرات.

– علينا أن ننظر الى التغيير ككل، ونميز بين ما هو تغيير جذري وبين ماهو سلوك تكتيكي. الآن نأتي ونقول أن جوهر الامبريالية لازال قائما ومؤسساتها وفي جوهرها لازالت قائمة. الآن صندوق النقد الدولي و البنك الدولي هل هي نفسها في الخمسينات ؟ طبعا لا. نفسها في الستينات أيضا كلا. لكن جوهرها نفسه. الآن نجد أن وصفاتها وتصرفاتها تؤذي. المهم بالنسبة لهذه المؤسسات أن تبقى استثماراتها، وتتعاظم أرباحها، وان تبقى موارد شركاتهم كما هي بل وتتنامى، أما هل سيغيرون أساليبهم ؟ فهذا نعم . حينما تفرض إرادة شعب ما نفسها، تفرض عليهم التعامل معها. لكن عندما تنبطح الفئات الحاكمة، وتستجدي الوصايا وتضع بلدانها في الموقع العاجز عن مقاومة الضغوط فإنهم يتمادون في تنفيذ سياساتهم.

– حكمتنا نحن الشيوعيين أن نتظاهر من اجل عراق آخر، عراق ديمقراطي تقدمي مدني.، ونساهم في معالجة الفساد، ومكافحة التخلف، وان نعالج العلاقة السيئة بين السلطة والمواطن، نحن لا نؤجج لمشروع خاص، بل نوظف التحرك لصالح مشروع سياسي وطني ديمقراطي من اجل الشعب. علينا أن ندرك بان ما يمر به بلدنا وما حاصل الآن ليس ببعيد عن نتاج أربعين سنة مضت، وما تركته إستراتيجية وممارسات الاحتلال من آثار، وأيضا ممارسات الحكومات المتعاقبة بعد 2003 التي فشلت لحد اللحظة في بلورة استراتيجيات قادرة على مواجهات التحديات الجديدة التي نشأت خلال السنوات الأخيرة.

– علينا أن لانأخذ الأمور مجتزأة، بل بتداخلها وبوضوحها. نعم العراق، ليس استثناء وبالتالي لن يكون بمنئً عن الرياح المنعشة الثورية التي جاءت. يجب أن نلاحظ ذلك كشيوعيين، وقلنا في عديد من المناسبات أننا أن لم نكن في البرلمان، فالشارع موجود. وظهر الآن أن ما قلناه كان صحيحا. نحن لانريد أن نكون مع من يريدون أن يعيدوا الشعب العراقي القهقرى، الى زمان الدكتاتورية وسنوات الاستغلال. وهذا لا يعني التردد ، لايعني التراجع وإنما العكس.

إن هذا كله نوظفه لحضور سياسي فعال للحزب في النضال من اجل الكادحين وعموم أبناء وبنات شعبنا، في التأثير على وجهة الحركة الجماهيرية. والأيام حبلى بالكثير من الأحداث والمفاجأت، وعلينا الاعتماد على منهجيتنا العلمية الماركسية، واستنادا الى نظرتنا الموضوعية الواقعية، وحرصنا وشعورنا بالمسؤولية العالية تجاه مصائر شعبنا وبلادنا، وان نتابع الأحداث وتطوراتها بدقة، وان نحسن التفاعل معها، ونقف على الدوام مع الشعب بمطالبه وطموحاته المشروعة المتمثلة في استعادة السيادة والاستقلال التامين، وفي الحرية والديمقراطية والكرامة والعدالة الاجتماعية.

– انتهى –

طاولة مستديرة

السياسة المالية والسياسة النقدية ودورهما في عملية التنمية الاقتصادية في العراق *

في الحادي عشر من شباط 2011 وعلى قاعة جمعية المهندسين العراقية أقيمت ندوة حوارية حول السياسة المالية والسياسة النقدية في العراق شارك فيها عدد من الخبراء الاقتصاديين والأكاديميين والمهتمين بالشأن الاقتصادي. وتسهيلا للنقاش أعدت ورقة عمل جاء فيها:

ورقة العمل المقدمة للندوة

إن المسألة الأساسية التي يعاني منها الاقتصاد العراقي تتمثل بغياب الاستراتيجية التنموية المستدامة مما جعل هذا الاقتصاد اقتصادا ريعيا وحيد الجانب بسبب الاعتماد الكلي على واردات النفط مما يتطلب وضع إستراتيجية اقتصادية تربط بشكل عقلاني وعلمي بين السياسة المالية والسياسة النقدية مع مجمل السياسة الاقتصادية للبلد وتوظيف الموارد البترولية لخلق مصادر جديدة لتمويل الموازنة السنوية للدولة. وقد طرحت ورقة العمل عدة أسئلة إمام المتحاورين للمناقشة وهي:

1- ماهية السياسة ألنقدية والجهة المسؤولة عنها ؟

2- ما المقصود بالسياسة المالية ؟وهل يوجد ترابط بينهما وبين السياسة النقدية بالرغم من موضوعية الترابط غير انه لابد من تحديد المسؤولية عن السياستين وضرورة تحديد دور وزارة المالية والبنك المركزي في تنفيذ سياسة كل منهما ؟

3- ما دور وزارة التخطيط ؟

4- ما أدوات السياسة النقدية التي يستخدمها البنك المركزي العراقي؟

- سعر الفائدة الأساسي وكيف يحدد من قبل البنك المركزي وآليا ت تحديده؟

● ما الاحتياطي القانوني وقيام البنك المركزي بتخفيض ذلك الاحتياطي من نسبة 25%على مرحلتين من احتياطيات المصارف إلى 205 ثم 12%.

● ما دور وتوجيهات البنك المركزي للقطاع المصرفي الحكومي والأهلي ؟

● ما دور المصارف في عمليات التنمية ولماذا طلب من المصارف الأهلية زيادة رؤوس أموالها إلى250 مليار دينار عراقي خلال ٣سنوات ابتداء من العام الحالي ؟

● ما المقصود باستقلالية البنك المركزي كمؤسسة سيادية وطنية ؟

5- ما دور القطاع المصرفي في مجال:

- سوق الإقراض ودعم المشاريع بأنواعها الصغيرة والكبيرة والمتوسطة؟
- دور المصارف الحكومية في العراق وخاصة الرافدين والرشيد ولماذا لم يتم توحيد هذين المصرفين؟
- ما دور الودائع بأنواعها في عملية التنمية الاقتصادية وعلى ضوء ذلك التحسن في وضع السيولة في المصارف؟
- تطوير الخدمات المصرفية كأحد العوامل الأساسية لخدمة الاستثمار ؟.
- مزاد العملة ونشاط تحسين الأموال وإدارة المخاطر بالنسبة لأنشطة التحويل المالي.؟
- احتياطيات جمهورية العراق لدى البنك المركزي العراقي وما المقصود بها ؟
- كيف يحدد البنك المركزي مستوى هذه الاحتياطيات وما هي الضوابط الاقتصادية ؟
- ما دور صندوق دعم العراق(DFI) وما هي المقترحات بعد الخروج من البند السابع ورفع العقوبات عن العراق ؟

للإجابة عن مجمل هذه الأجوبة، وغيرها، تحدث العديد ممن شاركوا في إعمال الندوة نورد هنا إجاباتهم تبعا لتسلسل تقديم المداخلات:

رائد فهمي/ وزير العلوم والتكنولوجيا السابق وعضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي العراقي

استهل حديثه بالقول: إن البلد يتحدث اليوم عن السياسة النقدية وقد جاء في ورقة العمل جملة من الأسئلة نربطها بالتساؤلات العامة. وهناك عدة نقاط تتعلق باستقلالية البنك المركزي العراقي واستقلالية السياسة النقدية فماذا يريد البلد في هذه المرحلة من السياسة النقدية؟ وهل البلد الذي تأتي موارده عن طريق النفط قادر على تبني سياسة نقدية مستقلة؟ هذا السؤال ليس مرتبطا بإرادة القائمين على الموضوع حيث هناك عوامل فنية وتقنية تحدد الاستقلالية الفعلية للسياسة النقدية وأدائها، ثم ماذا يمكن إن تحقق السياسة النقدية ؟ فالغرض ليس استقرار الأسعار كهدف، فاستقرارها يؤدي أيضا إلى زيادة الإنتاج وبالتالي زيادة الرخاء وهذا هو الهدف النهائي. ثم أضاف متسائلا: هل السياسة النقدية قادرة في التأثير على الاقتصاد الحقيقي؟ هل من الممكن إن تؤثر على إنتاج السلع والخدمات ؟ أم مثلما تقول النظرية النقدية انه وعلى المدى البعيد لاتؤثر السياسة النقدية على الاقتصاد الحقيقي وإنما يمكن إن تؤثر عليه على المدى القصير. وهذه الإمكانية فيها بعد سياسي، فالسياسي لا يستطيع الانتظار سنتين أو ثلاث فيبدأ بالضغط على السلطة النقدية من اجل إن يسهم في معالجة للمشاكل الآنية وعندئذ يظهر هذا التوتر الدائم (ليس فقط في العراق) ما بين أصحاب القرار السياسي وما بين استقلالية السياسة النقدية. النظريون يتفقون، وباتجاهات مختلفة،

بالاقتصاديات المفتوحة. أما (الكينزيون) فكلهم يعرفون إن النقد على المدى البعيد لا يغير الاقتصاد، ولكنه على المدى القصير يغير، وهنا اختلفوا في كيفية الاستعانة بالسياسة النقدية. طرح العراق ومنذ سنة تثبيت استقلالية البنك المركزي العراقي، وقد حدد، بقانون البنك المركزي، هدف استقرار الإصلاح.

ونشير هنا إلى أن استقلالية البنك المركزي قوية في العراق وفيها بعدين:

– استقلالية البنك المركزي في رفد السياسة
– والاستقلالية الاقتصادية مثل تحديد الأسعار فالبنك المركزي هو الذي يحدد ذلك.

وحتى في استقلالية البنك الإدارية نلاحظ انه في تركيبة مجلس الإدارة هناك ممثلون عن السوق، فدرجة الاستقلالية عالية. اليوم واجهت الحكومة العراقية مطالب اقتصادية كبيرة، كهرباء، استثمار وغيرها. وهذه المطالب تتجاوز مواردها وبالتالي سيكون هناك ضغط على السلطة التنفيذية، الأمر الذي يتعين على البنك المركزي أن يسهم في إيجاد الحلول لاستكمال المتطلبات التموينية، وهنا ظهر الشد. فالبنك المركزي له سياسة مستقلة وله أهدافه ومثلما ذكرنا فان أية سياسة نقدية فعالة ينبغي أن يكون لها بعد طويل. فالبعد الزمني للبنك المركزي هو غيره بالنسبة للحكومة، وهذا يشكل دائما عنصر شد وتوتر وإشكالية.

الإشكالية الثانية، استقلالية السياسة النقدية والتي تحدد أهدافاً فقد تشجع الائتمان وتنعش أو تضيق أو تتبع سياسة توسع الاقتصاد، فهل لدى البنك المركزي العراقي الحرية الكاملة لرسم السياسة ؟ وهل الواقع الاقتصادي يسمح له بذلك ؟

في معرض الإجابة على الأسئلة أعلاه، أشار الأستاذ رائد فهمي أن البنك المركزي العراقي اعتمد سياسة تثبيت الدينار العراقي عند سعر صرف قدره (1170) دينار للدولار الواحد والذي استمر لسنتين، حيث أن تثبيت سعر الصرف عملية مرتبطة بالدولار. عمليا نستخدم سياسة صرف ثابتة، ومعروف في النظرية الاقتصادية أن من يعتمد سياسة سعر صرف ثابتة لا توجد لديه استقلالية للسياسة النقدية. إذن قد يكون ذلك جيدا أحيانا. اقتصادنا اقتصاد نفطي حيث الهيمنة وبشكل كبير للعملة الصعبة وهي ستؤثر حسب المتغيرات الاقتصادية التي تحدد العرض النقدي وغيره. ولأجل تامين استقلالية السياسة النقدية ينبغي إن تعتمد إجراءات معينة لغرض التحكم بالأموال الداخلة بحيث لا تدخل بصورة أوتوماتيكية باحتياطي البنك المركزي، لان التصدير، كتحصيل حاصل، هو الذي يحدد السياسة النقدية. وهنا يطرح السؤال التالي: هل الأدوات المتاحة للبنك المركزي تمكنه من الإدارة المالية؟

في معرض الإجابة على هذا السؤال نشير الى أن هناك ثلاث أدوات معتمدة في السياسة النقدية:

– السوق المفتوحة؛
– سعر الخصم ؛
– والاحتياطيات.

فأي من هذه الأدوات الأكثر فعالية في العراق ؟ وهل البنك المركزي يشعر بان عنده نقصاً في هذا الموضوع ؟

فيما يتعلق بالجدل الجاري اليوم، صحيح انه ليس على الحكومة استخدام احتياطي البنك المركزي أو تتدخل فيه وفي سياساته لأجل تمويل أنشطتها بشكل تضخمي بالضرورة لاسيما ونحن نعرف أن هذه

السياسات عليها كثير من الملاحظات، فهناك الكثير من التبذير واللاعقلانية. لذلك فالاستقلالية، بهذا المعنى، هي شكل من إشكال الضمان. و استنادا الى الملاحظات أعلاه، فانه وفي بلد مثل العراق الذي يحتاج إلى عملية إعادة أعمار كبيرة جدا ويحتاج إلى إن تتوجه موارده نحو أولويات البناء والتنمية، تثار عدة أسئلة :

من يوجه؟ هل هي الحكومة؟ أم آليات الاقتصاد الحر؟ أو مزيج من الاثنين ؟ أم الآليات الموجودة اليوم الدولة توجه من خلالها خططها وبرامجها، أو الاقتصاد الحر من خلال آلياته مثل سعر الفائدة الذي يعطي مؤشرات أين تكون الربحية؟ فهل عندنا نظام مالي من ناحية الحكومة والدولة؟ وبالنسبة للاقتصاد الحر، هل توجد لدينا أسواق مالية وعندنا سعر فائدة يعكس الندرة النسبية والربح النسبي بحيث نستطيع إن نضمن أن هذه الأموال تتوجه إلى الأولويات الاقتصادية الحقيقية وليس لأغراض مضاربية أو التلاعب وغيره؟ وهل السوق عندنا فاعل أم سوق مشوه وآلياته أيضا مشوهة؟ هذا أولا. وثانيا كلمة "حشد الموارد"، في دولة معينة لديها أولويات كبيرة للاقتصاد ولا تستطيع بأموالك كلها أن تلبي كل الاحتياجات، هل يجب أن تعطي الأولوية للادخار وعلى حساب الاستهلاك، هذه الأولويات أم إن تتحكم بها من خلال أدوات السوق: الفائدة، الحوافز... أو عملية الادخار ألقسري، وهذا الادخار كيف يتم؟ ضريبة أو إجراءات إدارية، وهذا ليس خطأً وقد يكون مطلوبا أحيانا اليوم. وحتى في البلدان النامية من يقوم بحشد الموارد والمدخرات هي الدولة لان السوق غير جيد عندنا. فالأسواق المالية أما أن تظهر ضعيفة أو تكون أسواقاً مالية يغلب عليها عنصر المضاربة، وفي كثير من الأحيان تؤدي بالأموال لان تخرج من الداخل إلى الخارج وليس العكس، والتجارب كثيرة. الاعتماد على آلية السوق في المراحل الانتقالية عملية ضعيفة جدا وغير موضوعية ترجع إلى الدولة التي يكون لها الدور الرئيس في حشد الموارد ولكن كيف تقوم بحشد الموارد ؟

وواصل الأستاذ فهمي حديثه عن حشد الدولة للموارد حيث لديها أدوات، أما أدوات السياسة المالية، الضريبة وغيرها لتوجيه الإنفاق الحكومي وهل هناك خصوصية للاقتصاد العراقي بهذا الشأن ؟

نعم، هناك خصوصية. فاليوم يأتينا المورد الأساسي من النفط، والنفط كله مورد حكومي فإذا الجزء الأعظم من الناتج المحلي الإجمالي هو النفط وتستطيع القول انه حتى الجزء الآخر من الناتج المحلي الإجمالي هو عبارة عن إعادة توزيع الناتج النفطي يعني شيئاً وهمياً. دور النفط ووزنه في الناتج المحلي الإجمالي هو اقل مما هو حقيقة. لذلك جعل الاقتصاديات الريعية دور الدولة موضوعيا كبير جدا في توجيه هذه الموارد، والسياسة النقدية مهما عظمت ومهما ارتفعت كفاءة مؤديها هي دورها ثانوي.

على الأقل، في المرحلة الحالية إن يوجد سوق نقدي وسوق مالي وتتوفر الأدوات وتكبر ومع ذلك عندما نقول دوراً ثانوياً فهذا لا يعني انه لا يكون لها دور ميسر ومعجل أو كابح. النقطة الأخرى التي أثيرت هي طريقة الترابط والتنسيق المطلوب ما بين السياسة النقدية والسياسة المالية. أولا نحن هنا نتحدث عن ماهية الآليات، المنطلق الأول، وهذا ما تقوله النظرية الاقتصادية، يجب إن تكون السياسة النقدية والقائمون عليها

معزولين عن السياسة المالية ومستقلين، وهذا لا يعني بأنه لا يوجد تنسيق وتوافق، ولكن هذا التنسيق كيف يتم ؟

فأما أن يتم جزء منه من خلال تركيبة المجلس المركزي، أو عبر لقاءات مستمرة ، بين ممثلين للجانبين. هنا لا بد من التساؤل عن دور البنك المركزي في تحفيز الاقتصاد الحقيقي، وزيادة النمو ومكافحة البطالة، وهل هو مقتصر فقط على تثبيت الأسعار ؟ كما هو الموقف الرسمي ألان، أم في ظروف العراق وظروف البلدان فان الوضع اقرب إلى حالة البلدان من المرحلة الكنزية الى حد السبعينيات .. فأوربا كلها وأمريكا من أواخر الأربعينيات إلى منتصف السبعينيات كانوا يعتمدون السياسة الكينزية. تاريخ الكينزية يشير الى أن السياسة النقدية تلعب دورا في إدارة ومكافحة البطالة ..

الدكتور مظهر محمد صالح/ مستشار البنك المركزي العراقي

سأنطلق من نقطة أثارها الأستاذ رائد فهمي حول السياسة النقدية وهل هي ثانوية أم رئيسية؟ هذا السؤال هو في الحقيقة سؤال تاريخي. ففي عام1957 في بريطانيا حيث شكلت لجنة لهذا الغرض والتي خرجت بنتيجة وهي أن هذه البنوك هي ليست وحدها التي تخلق النقود. فقد وجدوا أن كل النظريات تقول: إن من يسيطر على النقد المتداول في المدى البعيد، يسيطر على الأسعار ويخلق شيئا من الاستقرار الذي هو الهدف المباشر للسياسة النقدية والهدف غير المباشر للتنمية.

لا حظوا أن البنوك ليست هي الجهات الوحيدة الخالقة للنقود أو المولدة للنقد، ولاحظوا أيضا أن قضية النقد ليس لها حساب إن عرف النقد = العملة في التداول والودائع الجارية وهذه هي النقود وانتهت.

لقد قالوا أن المشكلة هي أن المصارف ليست وحدها الجهات الخالقة للنقود. وهذه هي النقطة الأساسية، وبالتالي على السياسة النقدية أن تبحث عن موجودات تمثل مراكز سيولة في الاقتصاد حتى لو كانت سنداً حكومياً، وبالتالي لو تسيطر على السيولة وعلى مراكزها من خلال هذه الموجودات فانك تحقق الاستقلال الاقتصادي ويكون للسياسة النقدية آنذاك دور مهم.

تعريف السياسة النقدية والمالية

وواصل الدكتور مظهر محمد صالح حديثه مبينا انه في العراق تعرف السياسة النقدية بشكل عام بأنها هي مجموعة الوسائل والإجراءات التي تتخذها السلطة النقدية المتمثلة بالبنك المركزي العراقي للسيطرة على السيولة والائتمان لتحقيق شيئين:

– الاستقرار الاقتصادي بالأسعار؛

– وبلوغ معدلات من النمو الذي يستهدفها المجتمع والاقتصاد العراقي .

إما بالنسبة للسياسة المالية فهي مجموعة الوسائل والإجراءات التي تتخذ عبر الموازنة العامة التي هي أداة السياسة المالية للسيطرة على الإنفاق العام والإيرادات العامة أيضا بغية تحقيق الاستقرار والنمو الاقتصادي المستهدف. وللنمو أولوية قبل الاستقرار والسياسات إذا انسجمتا وعملتا سوية فعلا فستتحقق الأهداف المثلى للاقتصاد في العراق. ولكن ما الذي وجدنا في الممارسة؟.. من خلال المراكز المولدة للسيولة وجدنا أن السياسة النقدية الحالية بنيت على ارث ثقيل ولا سيما ارث الحرب العراقية – الإيرانية وارث الحصار الذي

سحق الشعب العراقي،هذا الإرث في السياسة النقدية. لو بحثت عن السياسة النقدية المولدة للسيولة في العراق، فما هي مراكز السيولة النقدية في العراق؟ إنها ليس النقد الذي يطبع في البنك المركزي فقط وإنما وجدت أن هناك عالماً نقدياً داخل العراق يولد إنفاقاً ويولد حركة ويولد ارتفاعاً في الأسعار خارج النظام النقدي. وهذه ناجمة عن وجود دوال مولدة للتوقعات التضخمية، يولدها النقد الرخيص نفسه متمثلا في القيمة المتدهورة للدينار العراقي بشكله سواء قيمة داخلية بسعر فائدة منخفض أو قيمة خارجية التي هي سعر صرف متدهور، والقيمة الداخلية والخارجية كما هو معروف تشكل نواة قيمة العملة المتكاملة.

ما هو التضخم ؟

واستطرد د. مظهر في حديثه عن التضخم، مشيرا الى التضخم هو حالة ارتفاع الأسعار المستمر أو التدهور المستمر في قيمة العملة، وهو يحدث عادة عندما يكون الطلب أو الإنفاق الكلي على السلع والخدمات، ضمن مجموعة أسعار معينة، يفوق قدرة الاقتصاد من سلع خدمات ضمن أسعار معينة. الذي حدث في نظام النقد العراقي صار انقساماً، حيث نظام نقد يتولد أساسا آنذاك عن طريق طبع العملة ومرهون ليس بعملة أجنبية وإنما بحوالة خزينة يصدرها وزير المالية، حتى انتهت بسقوط النظام السابق بحيث بلغت قيمة الكتلة النقدية حوالي (6) تريليون دينار أو اقل بعد إن كانت حوالي (28) مليار دينار في بداية عام 1990.

الذي جرى هو انه تم خلق مراكز سيولة في الاقتصاد التي تبتدئ بالدولار الأمريكي والسيارات اليابانية، الذهب، السجاد الإيراني، سبح اليسر، مجموعة الموارد التي تصدرها وزارة الثقافة التي تتحدث عن حضارة بابل، فهذه كلها لها قيمة تزيد قيمتها كنقود وتزيد الإنفاق. واليوم الذي عنده سجادة إيرانية اشتراها سابقا بألف دينار أصبحت قيمتها عشرة ملايين دينار ويستطيع بيعها ويستطيع الصرف ويمكن أن يشتري غيرها وبالتالي خلق نقود نظام نقدي منفصل. وصار هناك صراع بين السلطة والسوق، فالسلطة تريد أن تصرف كل النقود وتحصل على السلع والخدمات قبل أن ترتفع الأسعار، والسوق لديه موجودات هي مرتفعة. هناك قضية التجار الذين اعدموا سابقا وهو يندرج ضمن هذا الصراع. السياسية النقدية التي جاءت بعد 2004 بنيت على شيء محدد، فحتى ضمن السياسة النقدية يوجد إطار نقدي هو عبارة عن مجموعة الترتيبات المؤسسية التي تعمم به السياسة النقدية، هذا التعميم به مركز والذي هو النظام النقدي أو مثبت اسمي للتوقعات التضخمية. فما الذي يستهدفه؟ يثار السؤال هنا عن الدالة المولدة للتوقعات التضخمية، هل هي سعر فائدة منخفض؟ هل هي سعر صرف متدهور؟ هل هي كميات نقدية عالية؟

الذي وجدناه آنذاك استطعنا أن نعمل عليه حيث. وجدنا إن قيمة الدينار العراقي الداخلية والخارجية هي المولدة للتوقعات التضخمية بسبب إن تقييمها كان فاشلا. فبدأنا نستهدف الدينار العراقي خارجيا وداخليا. الاستهداف الخارجي عادة الهدف الوسيط ليمكنك من الدخول عليه، يعني يمكن أن نصل إلى سعر صرف توازني لقرار وبمرسوم جمهوري تعمل سعر صرف توازني أو سعر فائدة توازني، أو كميات

نقدية توازنية، فلذلك هذه الأهداف الوسطية، التي هي هدف وسيط، توصلك للهدف النهائي لان السياسة النقدية يجب إن تدخل عن طريق أدوات وأهداف بسيطة. وحتى تصل إلى سعر صرف توازني أو فائدة توازنية، كأهداف بسيطة، يجب أن تدخل إليها بشكل غير مباشر حيث تحتاج الى تكتيك والتي يسمونها أهدافاً تشغيلية. والأهداف التشغيلية هي من الأهداف الوسطية ولكن ممكن الدخول إليها، والأهداف التشغيلية عناصرها أساسية وهي (بالنص) البنك المركزي، الذي تكلم عنه الأستاذ رائد، كيف يزيد وينقص. يعني ميزانية البنك المركزي هي الهدف التشغيلي زائداً إشارة سعر الفائدة، وهنا في الاثنين هما هدف قمة. وهذان ندخلهما لوسائل، والوسائل التي اعتمدها العراق هي غير مباشرة، فالبنك المركزي يبيع أدوات أو يشتري أدوات، والأدوات ضعيفة وبنفس الوقت ما يسمى بالتسهيلات القائمة تفتح نوافذ للمصارف لجلب سيولتها داخل البنك المركزي وطبعاً تستفيد المصارف الحكومية وليست الأهلية. المهم يمكن الاستثمار داخل البنك المركزي بأدوات وهذه تؤثر على مناسيب السيولة، زائداً إطلاق إشارة الفائدة. وحتى تنقل الهدف التكتيكي، هذا التشغيلي، إلى الهدف الوسيط هو ما يسمى بميكانيكية الانتقال النقدي. وهناك معادلة تسمى بالمعادلة النقدية حيث عرض النقد يساوي النقد الأساس الذي هو نقود البنك المركزي التي لها القدرة على توليد نقود مضروبا بالمضاعف الائتماني الذي له القدرة، فالبنك يعطي وديعة أو قرضاً ثم ترجع وتودع عنده. توجد أشياء تؤشر في النقد الأساسي وتوجد أشياء أخرى تؤثر في المضاعف. فالذي يؤثر في النقد الأساسي هو مزاد العملة الأجنبية. فاليوم أعظم مجال لامتصاص السيولة هو مزاد العملة الأجنبية، في العام الماضي أوصلنا (40) تريليون دينار للاقتصاد العراقي حتى نسيطر على التداول النقدي ولو لم نمتصها لكان التدهور قد أصاب العراق.

النقطة الثانية هي الاحتياطي القانوني أو الإلزامي، على كل وديعة تفرض 25% نضعها داخل البنك المركزي، نقتطعها حتى لاتتوسع المصارف أكثر وبنفس الوقت حماية للسيولة، يعني جزء من أدوات السياسة، هذه كانت سياسة يسمونها متشددة. وقد رفعنا أسعار الفائدة إلى 20% سنة 2006، والتي كانت قاتلة، وجدت المصارف ووضعت سيولتها عندنا، ما يسمى بميكانيكية الانتقال النقدي.

الأهداف الوسيطة تحتوي الدوال المولدة للتوقفات التضخمية وهما دالتان:

– سعر صرف الدينار العراقي؛

– وسعر الفائدة أيضا.

فإذا كان سعر الفائدة موجبا، بغض النظر عن الفائدة ومداخلاتها الدينية أو الاجتماعية أو الأخلاقية، بدا الدينار العراقي لان يكون جاداً وبدا النظام النقدي بالتوحد، وبدأ الناس بالتخلي عن البحث عن السجاد والسيارات حتى تضم نقودها وبدأوا بالبحث عن الدينار، وتوحد النظام النقدي. وهذه مهمة شاقة طبعاً وليست بالهينة وقد استطعنا النجاح إلى حد ما.

أما بالنسبة للقيمة الخارجية للنقود فكيف استهدفنا سعر الصرف؟ الدراسات الموجودة تقول بان هناك سعر صرف حقيقيا وسعر صرف اسميا. سعر الصرف الحقيقي يمكن توضيحه كالأتي: لو فرضنا

أن سعر لفة (الهمبرجر) في العراق بألف دينار وفي أمريكا بدولار واحد، فإذا أصبحت هذه اللفة بدولار ونصف في أمريكا وفي العراق بقيت بألف دينار عندها يجب أن يتحسن سعر الصرف الحقيقي بما يتناسب مع سعر لفة (الهمبرجر). هذه الدراسات التي عملناها مع صندوق النقد الدولي، وهي قوة فنية كبرى، وجدنا أن سعر الصرف الحقيقي للدينار العراقي مع أسعار النفط وميزان المدفوعات..الخ هو سعر منخفض عن قيمته بـ 25%. أي إننا نتحمل تضخماً مستورداً رئيسياً 25%بغض النظر عن سياسات الاستيراد فيما إذا كانت جيدة أم غير جيدة. بدأنا نرفع سعر صرف الدينار العراقي تدريجيا، فالدالة المولدة للتوقعات التضخمية بدأت تنخفض لان الدينار العراقي صار جاذباً وبدا يتحسن إلى إن وصلنا إلى سعر (1170) وهو تقريبا جيد ومستقر بالنسبة الى وضع العالم ووضعنا كله سالب سابقاً. فما الذي تحقق من هذه السياسة؟ في مثل ظروف البلد لايوجد نجاح مطلق والنجاح كالأتي: الذي صار أن سعر الصرف استقر نسبياً خلال السنتين أو الثلاث سنوات بعد إن كان غير مستقر وكان في الصباح بسعر وفي الظهر بسعر أخر وفي المساء بسعر آخر. وكان هذا اضطراب سعري وقد انتهى هذا الوضع اليوم، استقر وهذا يحسب للسياسة النقدية.

ومن جهة أخرى توقف الدكتور محمد صالح عند احتياطيات البنك المركزي العراقي، مشيرا الى أننا نملك احتياطات قوية وهي ادخارات الأمة العراقية. حيث بلغت اليوم (53) مليار دولار بعد أن كانت بحدود مليار دولار بعد سقوط النظام السابق وتعرض معظمها للسرقة.

النقطة الأخرى هي التضخم، وهنا تساءل الدكتور مظهر: هل يوجد تضخم في العراق؟ وهنا أكد على أن البنك المركزي ليست وظيفته إعادة السلسلة السعرية للوراء، وبصراحة لاتوجد مثل هذه السياسة بالكون، حيث أن الرواتب والكلف تزيد وبالتالي يهمنا بالاقتصاد ما يسمى معدلات الزيادة التي تزيد بالأسعار بزيادات متناقصة، وكيف؟ التضخم الأساس هو الرقم الأساس لأسعار المستهلك وكان حوالي 34% سنويا وهو كبير بالنسبة الى العراق حيث كان هناك 80% دعم من الدولة. واليوم فان الهدف هو السيطرة على الزيادات، وقد تحقق انخفاض التضخم من مرتبتين عشريتين الى مرتبة عشرية واحدة وان 3% لظروف العراق معقولة، ولأول مرة في العراق يتم التخلص من زيادات سعريه وقفزات هائلة. وتحقيق 50-53 مليار دولار هو أمر جيد مضافا اليه استقرار سعر الصرف الذي هو القيمة الخارجية للنقود والتي تلعب دوراً مهماً وكبيراً حيث إننا نستورد كل شيء، وان الحفاظ على سعر الصرف مسالة مهمة.

وأضاف الدكتور مظهر محمد صالح أن كل دينار عراقي مغطى اليوم بالدولار. فالدينار العراقي قوي جداً بسعر الصرف الحالي واستقراره. ولكن هل السياسة النقدية مستقلة؟ اليوم كل التدفقات بالعملة الأجنبية تأتي من الحكومة والقطاع الخاص لا يجلب ذلك. وإذا جلب فالمصارف تلتقطها بالحوالات من الخارج وتضعها في الخارج، لذلك هل البنوك في العراق تخلق نقوداً؟ إنها لاتخلق نقوداً، إذا تنظر إلى الائتمان (1.1) أو اقل من (1) وبالتالي فإنها لا تخلق نقودا، إذن النظام النقدي لايخلق النقود، وقد طلبنا من المصارف أن تقرض ثمانية

أضعاف رأسمالها. متوسط ما تقبض المصارف عدا الرافدين والرشيد وأتكلم عن المصارف الأهلية كنموذج للسوق. قيمة الأسهم المصرفية التي تشكل 80% من سوق العراق للأوراق المالية المصرفية في تدهور.. لكن لو نظرنا الى ميزان الإرباح فسنجد أنها بالألوف لأنهم يعتمدون على ملاك غير مصرفي وعلى مزاد العملة والذي بواسطته يحصلون على الإرباح.

الكل رابحون وهي مصارف عائلية حيث تتوزع الإرباح بين العائلة وبالتالي فهي لا تقبل بالتوسع لأنه توزيع الربح ولا تعمل تحوطات كافية لرأس المال وقيمتها السوقية غير مهمتين بها.

كيف يتم الربح في مزاد العملة؟

ثم استفسر متداخلا الأستاذ رائد فهمي عن كيفية الربح في مزاد العملة ؟ وعلق د.مظهر قائلا: لنفرض أننا نبيع يوميا 100 مليون، في هذه السنة بعنا حوالي 34 مليار دولار، وإذا كلنا نلبي الطلب 100% فما هو المزاد؟ هو ليس مزاد إنما هو عبارة عن استدراج عروض لشراء عملة أجنبية تلبى100% بشرط الانتفاع مع ملاحظة قانون مكافحة غسل الأموال وأموال الجريمة والإرهاب، علما أنه ليس كل من يخرج الأموال هو غاسل للأموال، وان غسيل الأموال هي جريمة.

إن الموازنات تبدأ بعجز كل سنة وهناك عاملان: الأول هو تسعير لإغراض الموازنة وهذا التسعير متحفظ وأنا أؤيده لان لايوجد وزير مالية يقول السوق يبيع بـ 80 ويسعر الميزانية بـ80 فقد يهبط الى 20 مثلا فعشر دولارات أو اقل تسعير منخفض هذا التسعير المنخفض مع النفقات المخططة بأقصى مايمكن يخلق عجزا وقائيا كما اسميه تنتهي الميزانية أسعار النفط عالية فتكون هناك زيادة وهي غير مصروفة زائد هناك مشكلة والتي هي اخطر مشكلة في الاقتصاد العراقي حيث أن القدرة على تنفيذ المشاريع الاستثمارية قليلة، فتعاد الأموال الى الموازنة ويصير فائضاً في نهاية السنة. فالحكومة تبدأ موازنتها بعجز وتنتهي بعجز.

الاقتراض من البنك المركزي

وواصل د.مظهر حديثه قائلا: لماذا اللجوء الى البنك المركزي العراقي للتمويل؟ ولماذا الإلحاح بمنح 5 مليار؟

تقول المادة (39) من الموازنة والتي رفعت فيما بعد: يلزم محافظ البنك المركزي العراقي بإقراض الحكومة (5) مليارات دولار، في حين أن المادة (26) من قانون البنك المركزي العراقي تنص على التالي: (يحظر على البنك المركزي العراقي إقراض الحكومة) وهو نص صريح ومباشر. لكن نحن – كبنك مركزي – يمكننا شراء حوالات خزينة من السوق الثانوية مثلا المصارف التي اشترت حوالات خزينة وتريد خصمها في البنك المركزي، وهي مادة عادية في السوق.

أما عن طلب الحكومة للخمسة مليار دولار ، فهذا لا بد أن يربط بكم لدينا من أموال؟ فرصيد الودائع لشهر تشرين الثاني وكانون الأول 2010 هو46 تريليون ودائع المصارف العراقية وكم منها للحكومة المركزية (10.7) ودائع مصرفي الرافدين والرشيد، هناك شيء اسمه القطاع العام، فأي قطاع عام يعمل في العراق؟ هل توجد شركة، أو معمل منتج؟

لحد هذه اللحظة، لديهم (20.9) تريليون دينار عراقي وهي نائمة ولا احد يعرف لمن وهي طبعا لاتضيع. فإذا كانت هذه سيولة

متوافرة ونائمة ممكن للدولة أن تستخدمها على الأقل في الموازنة.

وثمة قضية أخرى وهي كيف يمكن بناء الاحتياطي الأمني في العراق ونحن نعتمد على مورد واحد وهو النفط؟ إن ثلثي إيرادات النفط تتحول إلى عملة محلية ويصير إصداراً نقدياً وهو يشكل النقد الأساس الذي تمول به الموازنة والنفقات الداخلية، علما أن الضرائب في الموازنة تشكل اليوم (2.7) تريليون دينار من موازنة قيمتها (97) تريليون دينار، وهي –أي الضرائب –لاتشكل سوى3% تقريبا من الموازنة، علما أن اغلب هذه الضرائب يستقطع من الموظفين زائداً العقارات. لذلك فان تمويل الموازنة والنفقات المحلية بالدينار العراقي هو إصدار نقدي من البنك المركزي مقابل ذلك نحن نعطي دينار مقابل دولار وفي الميزانية العمومية للبنك المركزي توجد موجودات ومطلوبات. الموجودات هي الدولار والمطلوبات هو الدينار، فالدينار الذي في جيبنا له الحق على الدولار الموجود في البنك المركزي العراقي. احتياطات البنك المركزي الأجنبية تبلغ اليوم تقريبا (53) مليار دولار وهي متأتية من هذه العملية، أما القطاع الخاص فلم يجلب مبالغ إلى هذه العملية.

بالمقابل السوق يريد، فالنفقات الخارجية تكون الدولة هي المسؤولة عنها في كل الأموال، حيث تجلب الدولة الدولار وتعطيه للبنك المركزي والسوق يطلب بسبب الباب المفتوح، البنك المركزي يمتص السيولة وليست وظيفته المزاد، ووظيفتنا هي المحافظة على استقرار الدينار العراقي لحقت بها وظيفة ثانوية، دخلنا في أمر غسيل الأموال، وبتنا نطلب وثائق تجارية وأننا اعتمدناها لنضغط قدر الإمكان. وآخر شيء هو أن الذي يريد الاستيراد أكثر من50 إلف دولار نطلب منه إجازة استيراد. وفي ظروف مثل العراق من الضروري إن نطلبها لأننا لانعرف أين تذهب هذه الأموال، وهذه النقود هي ليست غسيل أموال حقا، وبصراحة بسبب الوضع الأمني فإنها تتحول الى ادخارات خارجية. ويدلل على ذلك تمكن العراقيون في الخارج، في الأردن وغيرها، من شراء البيوت والعقارات. وكيف عاش العراقيون الذين هجروا إلى دول الإقليم وبحدود 4-5 مليون عراقي؟ وكيف تمت تصفية الملكيات الارثية من العهد السابق؟ السؤال: كم يستطيع البنك المركزي إقراض الحكومة؟ فلو رفعنا من الاحتياطيات 25 مليار وأعطيناها الى وزير المالية، فقد تصرف على الأرصفة أو لا تصرف وتذهب الى "مجالات أخرى ". نحن لسنا مطمئنين، فحينما تكون السياسة الاقتصادية غامضة وغير معروفة فانه يمكن أن نضحي بالاحتياطيات. السياسة المالية هي سياسة استهلاكية 100%، فهي سياسة رواتب وأجور وعطاءات وإكراميات ومقاولات فيها نهب وسلب.. يقابل ذلك أن التنمية تكاد تكون معدومة، وبالتالي نحن نعطي في ظل أهداف غير واضحة، وان عظمة الاستقلالية هي التنسيق، وإنما الاستقلالية بدون التنسيق لا تساوي شيئا وستكون فاشلة.

ولكن هناك تنسيقاً إجبارياً في العراق وهناك تنسيق تلقائي والتنسيق الإجباري: البنك المركزي ينسق مع وزارة المالية من خلال برنامج نادي باريس الخاص بخفض المديونية.. وعملنا حقا من اجل تمشية البرنامج والتنسيق على اعلى ما يمكن. وهذا مجبرون عليه لخصم الديون المترتبة على العراق والبالغة 80% من نادي باريس.

أما التنسيق الأخر فهو من خلال اللجنة الاقتصادية العليا، وقد شكلها مجلس الوزراء لتنسيق السياسات في العراق ويفترض أن هذا المكان هو الذي تنسق فيه السياسات، والمكان الذي تنعكس فيه الخطة وأهدافها، ولم أر هدفاً للموازنة يقول كيف ينخفض التضخم؟ وكم سيكون النمو؟ بلغ النمو في الاقتصاد العراقي 1% كإنتاج كمي وان معدل نمو السكان 2.9 أو 3%، وقيم إدخال النفط لان مبالغه عبارة عن ربح وليس إنتاجية، اليوم حصة الفرد الواحد في الدخل القومي قد ازدادت، ولكن هذه الزيادة اسمية بسبب ارتفاع أسعار النفط وليس نتيجة نمو قطاعات الإنتاج المادي الأخرى التي تدهورت في الواقع. فمثلا تبلغ مساهمة الزراعة في الدخل القومي حاليا حوالي 2% بعد أن كانت 22% سابقاً، أما الصناعة التحويلية فتبلغ فقط 1.5% والباقي خدمات. ثم ماذا يعمل 4 ملايين موظف؟ وإذا افترضنا أن كل واحد من هؤلاء يعيل –في المتوسط – 5 أفراد فسيعني ذلك أن هناك 20 مليون عراقي يتلقى دخلا من الدولة وهو جيد من ناحية أخلاقيات التوزيع، ولكن ما هي إنتاجية هؤلاء الموظفين؟ المعطيات الإحصائية تشير الى أن إنتاجيتهم تتراوح ما بين 5% و10.1.

السؤال هنا هو كيف تساهم السياسة النقدية في التنمية؟

البنك المركزي ليس مؤسسة لتمويل المشروعات، بل هو مؤسسة للسياسات الاستقرارية، هذه هي طبيعة البنك ووظيفته. وفي ضوء ذلك فالسؤال هو كيف يمكن أن نسهل وننسق وان نختار أدوات، وكيف نختار توقيتات صحيحة مع السياسات الأخرى؟ وفي تقديري فان السياسة النقدية، سواء كانت ثانوية أو رئيسية، هي واقع حال جزء من مجمل السياسات الأخرى حتى لو كانت مثالية، فما قيمة أن تعمل الاستقرار السعري والموازنة هي استهلاكية بالتالي فما الفائدة التي يمكن الحصول عليها؟ لا توجد أية فائدة من ذلك. الناس يطالبون بتغييرات كبيرة، لذلك فانا أدافع عن الاستقلالية، ونخاف أن تذهب الاستقلالية من البنك وتشفط أمواله في خلال أسبوعين وتذهب ولا نحصل على شيء.

البنوك المتخصصة ودورها في تنشيط القطاع المصرفي

وتساءل الأستاذ رائد فهمي متداخلاً عن البنوك المتخصصة ودورها في تنشيط القطاع المصرفي ككل، فأكد انه لحد الآن لا يلعب البنك المركزي دوراً بذلك، فهل يقبل بهذه الحالة؟ وما هي الإجراءات التي يمكن أن يعتمدها البنك المركزي أو يدعو إلى اعتمادها؟ وما هو الدور لتطوير المصارف المتخصصة سواء لإسناد الصناعة أو القطاعات الأخرى؟ وهنا تساءل الخبير الاقتصادي باسم جميل أنطوان عن كيفية مساهمة السياسة النقدية في التنمية؟

وفي معرض رده على هذه الأسئلة وتطويرا لملاحظاته السابقة، واصل د. مظهر محمد صالح حديثه قائلا بان تركيب النظام المصرفي في العراق يشير الى أن 90% من مكوناته هي مصارف حكومية في الوقت الحاضر، كما أن كل العمليات المصرفية هي بيد الحكومة إلى الآن. ولو كانت السياسة المالية جادة في التنمية، هيكل الدعم الذي في الموازنة يجوز أن يتغير. بصراحة يمكن إن يدعم الاستهلاك والبطاقة التموينية والفقراء وفي نفس الوقت يجب دعم الإنتاج. لذلك الموازنة تتحمل سعر فائدة ميسر لدعم

الصناعيين والزراعيين وقطاعات منشطة للاستخدام، هذا يأتي من الموازنة العامة، المالية العامة هدفها هو يقين وإرضاء...والخ. لذلك انسحبت من هذا الموضوع وبالتالي هو يبقى هدفاً للسياسة المالية بالدرجة الأولى. البنك المركزي، بصراحة، إذا كان ناجحا في سياساته لضمان الاستقرار فان عليه أن يخفض سعر الفائدة الخاصة به، وسعر الفائدة حاليا هو 6% إذا تقارنها بالتضخم 3%. سعر الفائدة موجب لأول مرة وبالتالي تتحقق حالة ايجابية، الفائدة الحقيقية موجبة وليست سالبة مثلما كان سابقا. وهذا هدف حققناه، والسؤال المطروح هو كيف نستطيع إن نسير ونعطي قروضاً للمصارف بفائدة منخفضة وكيف ندعم برامج التنمية؟.. وفي تقديري غدا يأتي صندوق الإسكان مثلا وعنده كمبيالات يمكن إن يخصمها في البنك المركزي، ويمكن للبنك المركزي أن يخصمها بصفر أي بدون فائدة أو بفائدة بسيطة، مجرد عمولة بسيطة، ويوفر سيولة لدعم عملية الإسكان، وتوفير السيولة مسألة مهمة. ونحن في البنك ليس مؤسسة لدعم المشاريع إذاً ما الذي تفعله المالية العامة؟ وظيفتنا هي أن نيّسر الحركة المالية بأقل كلفة ممكنة. نحن مع برامج التنمية، والبنك المركزي يساهم بتوفير السيولة بكلفة مخفضة وبسياسات متساهلة.

وقد استطعنا أن نحقق سعر صرف مستقر وفوائد جيدة ومستوى تضخم معتدل، لذلك يجب أن يستخدم البنك المركزي سياسات أسهل للتمويل بشرط وجود برامج تمويل صحيحة، أي ليس فيها فساد إداري بل تتضمن أهدافاً واضحة.. علما أن الائتمان للقطاع الخاص قد ارتفع من 5.9 الى 8.4%.

الخبير المصرفي خالد حميد شلتاغ

بين الخبير المصرفي خالد شلتاغ في مداخلة أن استقلالية البنك المركزي يجب أن ينظر إليها في إطارها الصحيح. فالبنك المذكور ليس معزولا بل هو مؤسسة وطنية لها دورها الأساس والكبير، ومثله مثل بقية مؤسسات الدولة الأخرى يعاني من مشاكل.

وأضاف أن البنك المركزي مسؤول بقانون عن إعداد ميزان المدفوعات والميزان التجاري جزء أساسي منه، ولذا للبنك علاقات متواصلة ومهنية مع وزارة التجارة، تطبيق التعريفة الجمركية، مسألة إجازة الاستيراد وأيضا التنسيق مع كل الدوائر المعنية، بالتعريفة الجمركية وتأثيراتها الموجودة والتي أشار لها د. مظهر بما فيها التأثيرات والضغوطات التضخمية، وهذه ستزيد عمليات موارد الدولة وتنظيمها. كما توجد علاقات يومية مع وزارة المالية، كما هناك تنسيق جارٍ يوميا مع وزارة التخطيط بشان إعداد إستراتيجية التنمية الوطنية. وكما أشار الدكتور مظهر، والأستاذ رائد فهمي أيضا إلى تشكيلة الإدارة وتنشيط أوجه العلاقة هذه بين السياسيتين النقدية والمالية. وخلاصة القول أن البنك المركزي مؤسسة وطنية مستقلة تلعب دورها الفاعل في الإحداث الاقتصادية في العراق. هذا مع العلم أن سياسة الائتمان بدأت ضعيفة نسبياً رغم كل أدوات السياسة النقدية التي استخدمها البنك المركزي ودفعهم إلى تطوير سياستهم الائتمانية.

ثم عقب د. مظهر محمد صالح مستشار البنك المركزي مشيرا الى أن ما دخل للعراق منذ تموز 2003 إلى تموز 2010 هو (208) مليار دولار علما انه وبحلول نهاية 2010 أصبح (300 مليار دولار). وما باعه

البنك المركزي في المزاد حوالي (140) أو اقل بقليل وما عملناه من احتياط للبنك المركزي بحدود (53) مليار دولار.

وردا على السؤال الذي طرحه الأستاذ رائد: هل أن أموال العراق محمية أم غير محمية؟ أجاب د. مظهر أن قرار مجلس الأمن (1483) الذي صدر في مايس 2003 نص على إنشاء صندوق تنمية العراق DFI حيث تأتي إليه كل أموال النفط. في زمن الحصار، وطبقا لمذكرة التفاهم، كان الحساب بيد الأمين العام للأمم المتحدة وهو الذي يديره وليس للعراق علاقة به، وكانت كل العوائد المتأتية من صادرات النفط تدخل فيه، ومن الصندوق نفسه يتم استقطاع نسبة الـ (5%) الخاصة بالكويت ضمن صندوق التعويضات. كما أن العراق، وطبقا لقرارات مجلس الأمن الدولي، يقع تحت الفصل السابع، وهذا الفصل يوفر الحماية لهذه الأموال فهي محمية من أية دعوة قضائية على النظام السابق تقام من طرف الدائنين التجاريين.

وهذه الديون التجارية التي صدرت الأحكام بها تبلغ 3 مليار، أما تلك غير المحكوم بها فقد تصل الى 9 مليار دولار هذا إضافة الى الديون التجارية. وقد عملنا تسوية لهذه الديون بموجب نادي باريس، وقلنا أن الديون بحدود الـ35 مليار دولار أو اقل. والتي أسميناها بالديون القليلة نعطي منها 10.5 نقداً، والتي تعادل ما يخص نادي باريس الذي هو خصم 80%. أما البقية فتسدد على مدى 20 سنة وبفائدة قدرها 5.8%وقد قبل الدائنون كلهم بذلك. أما الديون الكبيرة وهو حوالي أكثر من 35 مليار فأكثر فقد تم إصدار سند باسم الحكومة العراقية حيث يباع اليوم بالأسواق. هذا السند عليه فائدة 5.8% لمدة 20 سنة، وقبلوا بذلك واشتروه ثم قاموا ببيعه في الأسواق، واليوم تصل فائدته إلى 7% وهي مقبولة في العالم وعليه طلب كبير، علما أن العراق ليس له تضييف ائتماني في العالم.. ومع ذلك فقد دفعنا لـ (13400) دائن تجاري تقريبا.

فأموال العراق في إلـ DFI محمية، إذن، وبطريقتين:

– محمية بموجب قرار مجلس الأمن، فالباخرة التي تخرج من ميناء (أبو الفلوس) أو البصرة محمية إلى إن تتحول إلى نقود وتدخل في الحساب.

– كما أن الأموال تلك محمية أيضا في الولايات المتحدة بموجب الأمر التنفيذي للرئيس، إذ يصدر الرئيس في كل سنة امرأ يقول فيه إن أموال البنك المركزي العراقي التي يديرها البنك في الولايات المتحدة محمية، وهذه الحماية تنتهي عادة في الشهر الخامس، وقرار مجلس الأمن ينتهي في/6 30، قرار 1956 الذي صدر يوم 12/15/ 2010.

السؤال: هذه الأموال محمية أم لا؟ والبنك المركزي محمي من الاستقلالية أم لا؟ وباعتبار البنك المركزي العراقي مستقلا فقد تمكنا خلال ستة أشهر من تحريك أموالنا من المظلة الأمريكية في نيويورك إلى الاتحاد الأوربي وحولناها إلى أربع مناطق ولاية قضائية في الاتحاد الأوربي. نحن في البنوك المركزية، كما قالوا في الاتحاد الأوربي، وظيفتنا أن نكون مسؤولين عن الاستقرار المالي في العالم ولا يمكن اعتبارا موال العراق هذه تجارية ويتم الحجز عليها في المحكمة حيث أن ذلك سيضر بالاستقلال المالي. وبناء على ذلك فقد نوعنا احتياطاتنا

خارج إلـ DFI، حيث هناك أكثر من 28 مليار يورو، باون إسترليني، موجودة في فرنسا وهولندا وايطاليا وبريطانيا. ونحن نحاول – كبنك مركزي – أن نحمي قدر الإمكان تحت مظلة أموال البنك المركزي بحساباتنا وليس عليها أية ملاحقة قضائية لاسيما أموال نستطيع معرفتها. لهذا فقد اقترحت على اللجنة الوزارية التحرك مع الأمانة العامة للأمم المتحدة لحماية مبالغ الـ 5%الخاصة بالكويت حتى لا يتم الحجز عليها لان فيها حصة للأمم المتحدة وبذلك يمكن إن نحمي الأموال العراقية.

خبير الإسكان د. موفق الطائي

تحدث عن الدور المفقود لوزارة التخطيط التي أفرغت من كل محتواها الذي له علاقة بالتنمية بشكل مبرمج. فالهيكل التنظيمي، والتنموي لمنطقة الفرات الأوسط أخذته وزارة البلديات والتي ليس لها علاقة بالاقتصاد. كما تطرق د. الطائي إلى مخطط التنمية لإقليم بغداد والذي استبدل بعملية سطحية من قبل مكتب الخضري، وتم التوصل إلى مفهوم تنموي اعتمد على تجميد مدينة بغداد وتحجيمها. وكانت هناك فكرة حديثة تسمى بالنمو القطبي، أي إذا كان نمواً كبيراً في مكان معين تعمل نمواً قطبياً في مكانين حيث يعيد فيهما النمو التنموي والذي سيسد العجز في التنمية داخل بغداد وقد تم اختيار الرمادي حيث يعاد تطورها على أساس صناعي ويتكامل مع الحملة التي هو تطور صناعي– زراعي وهذا سيكون تطوراً قطبياً وقد نقضت هذه نهائياً.

الأستاذ محمد الموسوي
/ خبير مصرفي

بدوره تطرق الأستاذ الموسوي إلى المشاكل التي يعاني منها القطاع المصرفي الحكومي والتي وصفها أنها كانت أكثر من المشاكل التي كانت تعاني منها في زمن النظام السابق. حيث إن العناصر التي تربعت على سلطة اتخاذ القرار في المصارف الحكومية هي عناصر غير مؤهلة جاءت عن طريق ولاءات وعلاقات شخصية وبدورهم جاءوا بعناصر تدلي بالولاء لهم وسلموا لهم إدارات وفروع وشعب وأقسام في الإدارات العامة وهم قليلو الخبرة، وعناصر غير نزيهة. كما أشار إلى إن مصرف الرافدين لديه (22) تريليون دينار هي مجموع الودائع الموجودة في المصرف، وكانت سابقا تستثمر في البنك المركزي العراقي الذي يأخذ عليها فائدة لم تثمر بشيء. في العام الماضي سدد مصرف الرافدين من خلال إيراداته القليلة نفقاته.أما هذه السنة فمن المؤكد أن المصرف سيخسر وهو شركة عامة وفق قانون الشركات رقم 22، علما أن الخسارة لثلاث سنوات متتالية تعني إغلاق المصرف. ومن جهة ثانية أشار الأستاذ الموسوي إلى تهميش ومحاربة العناصر الكفوءة والنزيهة. وفي ما يتعلق بمبلغ الـ (22) تريليون دينار الموجودة في مصرف الرافدين، قال الأستاذ الموسوي الى انه اقترح على المسؤولين استثمارها في دعم شركات القطاع العام وخاصة التابعة لوزارة الصناعة التي هي معطلة حاليا ومئات الألوف من العاملين حاليا في معامل الدولة عاطلون وبالتالي يمكن لمصرف الرافدين إقراض هذه الأموال واستثمارها في وزارة الصناعة حيث ستكون مضمونة التسديد 100%وسيتم تشغيل المعامل وتحسين أوضاع العاملين فيها وزيادة الإنتاج حيث سنساهم في تنمية الاقتصاد الوطني. في فترات سابقة تم منح قروض لشركة السمنت

الجنوبية ثم الألبسة الجاهزة في النجف، إلا أن باقي الشركات التابعة للقطاع العام في المحافظات لم تحصل على القروض. إضافة إلى أنه في حال أعطاء هذه الأموال كسلف للمتقاعدين والموظفين فإنها ستتوجه نحو الاستهلاك وليس الإنتاج ثم بعد ذلك يكون من الصعب استرجاعها. كما أن هذه القروض قد استغلت قبل الانتخابات لكسب الأصوات الانتخابية وبعد الفوز بالانتخابات تم إغلاقها. أما بالنسبة للقروض الصغيرة فكانت تمنح من قبل وزارة العمل والشؤون الاجتماعية لإنشاء الورش الصغيرة وهذه القروض كلها قد بيعت لعناصر تستلمها ولا تنشئ فيها الورش المطلوبة واغلبها لا يسدد للمصرف، وقد تم إيقاف قروض وزارة العمل بعد أن حملت المصارف ديوناً كبيرة مشكوكاً في تحصيلها.

أما المصارف المتخصصة فتعاني من عدم وجود رأس مال حتى تمارس الدور المتخصص وهي تعمل بأموال مصرفي الرافدين والرشيد. إن المصارف الحكومية قابلة للإصلاح في حال تم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب.

الخبير الاقتصادي إبراهيم المشهداني

إن الوظيفة الأساسية للسياسة المالية تتركز في الإنفاق الحكومي وتنفيذ التشريعات المالية المتمثلة بالضرائب والرسوم وقانون الكمارك فيما تختص وظيفة السياسة النقدية في معالجة ظاهرة التضخم في الاقتصاد والحفاظ على سعر الصرف للدينار العراقي. والموضوع الذي يستأثر باهتمام الاقتصاديين في السياسة المالية هو إصلاح النظام الضريبي في العراق بتعديل قانون الضريبة ليكون تصاعديا، وإعفاء ذوي الدخول المحدودة واليات الحصول على الضريبة وتحسين الوعاء الضريبي في مكافحة حالات التهرب الضريبي بوضع تشريعات مشددة، بالإضافة إلى تفعيل قانون الكمارك والشروع بتنفيذه وذلك لأهمية هذا القانون لحماية المنتج الوطني الذي يتعرض منذ سنوات لمنافسة شديدة عبر الاستيراد العشوائي مما أدى إلى تخلف الإنتاج الزراعي وتوقف الكثير من الصناعات المحلية وخاصة القطاع الخاص والتماهي من قبل الحكومة في إعادة تأهيل القطاع الصناعي الحكومي على إن يكون الرسم الكمركي لا ينصرف إلى البضائع الضرورية التي تدخل في أساس حاجيات الطبقات الفقيرة والمواد الأولية التي تدخل في الصناعات الوطنية.

والموضوع الآخر المرتبط بالإنفاق الحكومي وعلاقة ذلك بطريقة التعامل مع المفصولين السياسيين التي تشهد ارتباكاً واضطراباً تؤدي إلى الإسفاف في تطبيق القانون. فبعد أن تمنح الحكومة الاستحقاقات لهذه الشريحة التي ذاقت الويل والثبور في ذلك العهد المقبور، ثم تعود لتسفر قراراتها للتراجع إلى الوراء مما تضع المفصولين في محنة تسديد الفرو قات، وهذا ما يترك تأثيره على المفصولين وعوائلهم وآثاره على الاقتصاد الوطني كإنفاق حكومي.

إن قراءة للإستراتيجية المالية للسنوات 2011/2007 والتي أعدتها لجنة من وزاراه التخطيط والنفط والتجارة والصناعة والزارعة والموارد المائية والتربية ووزارة المالية والبنك المركزي، تتيح القول أن هذه الإستراتيجية وضعت بمعزل عن الإستراتيجية الاقتصادية للسنوات 2010/

2014 والتي لم تأخذ طريقها للتنفيذ لعدم إقرارها من قبل البرلمان وبذلك فإنها غير ملزمة. لذا فان من غير الوارد توقع أن تحقق هذه الستراتيجات أهدافها، إضافة الى عدم التوازن بين الميزانيات التشغيلية والميزانيات الاستثمارية مما يؤخر عملية التنمية الاقتصادية المستدامة وإعادة إعمار البنية التحتية للاقتصاد العراقي والإبقاء على موارد النفط كمصدر أساسي لتمويل الموازنات على امتداد هذه الفترة مما يبقي المشكلات الاجتماعية الموروثة عن النظام السابق على حالها ومنطلقا للمتفجرات الاجتماعية وبالتالي تعريض العملية السياسية الى مخاطر العودة الى المربع الأول.

ومن نافلة القول أن قانون الإدارة المالية والدين العام رقم 95 لسنة 2004 قد خوّل وزارة المالية إعداد الحسابات الختامية التي يجب اطلاع المؤسسات الرسمية والجمهور عليها من اجل معرفة كيفية إجراء عمليات الإنفاق العام ووضع اليد على عمليات الفساد الإداري والتلاعب بأموال الدولة وبالتالي غسيل الأموال المنهوبة وإخراجها بمختلف القنوات.

من هنا يمكن مناقشة الموازنة السنوية سواء في مجلس الوزراء أو البرلمان غير صحيحة وخالية من الشفافية

استقلالية البنك المركزي

أعطى الدستور العراقي بالمادة 103 وقانون البنك المركزي رقم 56 لسنة 2004 الاستقلالية للبنك عن الحكومة الاتحادية لمنعها من التدخل في سياسته النقدية التي تنصب على معالجة ظاهرة التضخم وعلى سعر صرف الدينار العراقي مقابل الدولار.

إلا أن هذه الاستقلالية يجب إلا تفهم بأي وجه من الوجوه على أنها تعني الاستقلالية المطلقة بعيدا عن حاجات الاقتصاد العراقي وعمليات التنمية المطلوبة ولا تعني استقلاليته عن متطلبات التنسيق مع السياسات المالية. أن الانفراد عن السياسات المالية ستكون لها عواقب غير محمودة في معالجة الاختلالات في الاقتصاد العربي

كما أن عضوية العراق في صندوق النقد الدولي لا تعطي الحق لهذا الأخير بهذا التدخل في سياسة البنك المركزي الراهنة أو المستقبلية. ويمكن القول أن السياسة النقدية تواجه تحديات تتمثل بما يلي:

1- التأثير الأمني والسياسي المتأزم على آثار الأدوات النقدية على المتغيرات الاقتصادية والمالية.

2- التناقض بين السياستين المالية والنقدية فعلى حين إن الأولى تستهدف الانكماش الاقتصادي فان الثانية تستهدف التضخم باعتباره الهدف الأهم وهذا التناقض سيستمر في ظل عدم وجود إستراتيجية اقتصاد تنموية.

وأخيرا فان استمرارية ظاهرة الدولرة لها تأثيرات على قيمة الدينار العراقي وذلك لان الأفراد ميالون للاحتفاظ بالدولار كخزين بديل للقيمة. لهذا فان البنك المركزي مدعو لاتخاذ إجراءات تفضي الى رفع قيمة الدينار العراقي تجاه الدولار وزيادة الطلب على الدينار العراقي من اجل معالجة هذه الظاهرة.

العلاقة مع صندوق النقد الدولي

ثم عقب د. مظهر محمد صالح على مسألة العلاقة مع صندوق النقد الدولي قائلا:

العراق هو عضو مؤسس لصندوق النقد الدولي سنة 1945 حيث لدينا اتفاقيات مع

الصندوق وصارت مستمرة. وقرار مجلس الأمن رقم (1483) نص صراحة على العراق أن يعيد علاقاته مع المؤسسات المالية والنقدية الدولية (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) وصار قرارا ملزما على العراق، علما أن صندوق النقد ليس له علاقة بنا ولكن المشكلة حتى تشطب 80% من الديون دخلت معه بترتيبات من 2004 ولغاية نهاية 2008 وبداية 2009. وعندما حدثت مشكلة 2009 وانخفاض أسعار النفط أعلنت الحكومة أنها لا تملك الأموال اللازمة وهنا تقدم العراق بطلب الى صندوق النقد الدولي الذي قدم قرضا بمبلغ (2.4) مليار دولار ومعه البنك الدولي وبمبلغ 2 مليار والقرض الياباني. ولكن من المفيد التذكير أن هؤلاء لايعطون هذه القروض مجاناً. فالصندوق لديه شروط، وهو قد تغير أيضا، وسابقا كان أداة سياسية100% أما الآن فقد خفت هذه السياسة. وعن مشروطياته على العراق، عدا موضوع البنزين والنفط، كانت هناك اشتراطات تتعلق بهدف إصلاح نظام الإدارة المالية بالدرجة الأساس. حيث تم وضع ميزات على النفط المصدر بعد أن هربت ملايين براميل النفط سابقاً لعدم وجود هذه الميزات على الإنتاج وعلى التصفية، كما كان من رأي الصندوق أن تدقق حسابات البنك المركزي العراقي وفق المعايير الدولية، كما طلب تدقيق خاص على الموجودات المحلية والموجودات الأجنبية، وطلب إصلاح نظام الإدارة المالية. أما بالنسبة الى الوقود فهو مشكلة، فأما أن تعطيه برخص أو نرفع أسعاره بالشكل الذي صار، وفي المرحلة التي تم رفع سعر الوقود، بدأ العراق يستورده حيث استوردنا ما قيمته سبعة مليارات دولار والطوابير كانت واقفة أمام محطات البنزين. فكان البنزين يهرب الى السعودية وغيرها، وكان حل صندوق النقد هو الحل الذي يوقف استيرادات البنزين من الخارج وتهريبه الى خارج العراق، وكان قراره صائباً. صحيح كانت هناك انتقادات كثيرة حيث أن الناس فقيرة وازداد تأثير ارتفاع الأسعار عليهم ولكن هذا الارتفاع كان له هدف اجتماعي لو تحقق لكنا سنؤيده، فقد كان يقوم على قاعدة أن الزيادة ستذهب الى شبكة الحماية الاجتماعية. ولكن السؤال: هل ذهبت هذه الزيادة الى الشبكة المذكورة أم لا؟ هذا ما لا اعرفه.

ومن جانبه عقب الأستاذ إبراهيم المشهداني على مسألة التنسيق بين وزارة المالية والبنك المركزي العراقي من اجل دفع عملية التنمية للإمام، مشيرا إلى ظاهرة الدخلاء في السوق حيث يتم التعاطي بالدولار والدولرة الموجودة في الكرادة مثلا.

وبيّن د. مظهر بان مجلس النواب والرئاسات كانوا يقبضون راتبهم بالدولار الأمريكي سنة مضت ولكن بعد ذلك أصدرت وزارة المالية إعماما ينص على أن أية مدفوعات محلية ينبغي إن تكون بالدينار العراقي وليس بالدولار هذا من ناحية الحكومة. ومن ناحية أخرى فإن كل تعاملات الجيش الأمريكي الداخلية والخارجية تتم بالدولار. وأشار إلى إن نمط التغطية في العراق كان ذهبا ثم صار الاتجاه بعد ذلك الى الدولار واليوم عاد إلى الذهب وهذا ولده الحصار والحروب والخوف من تدهور قيمة الدينار العراقي. المشكلة اليوم أن الكتلة النقدية في العراق هي 27 تريليون الآن كرقم يتداول . عندما نذهب للسوق التجاري في (جميلة) فكلهم يتعاملون بالدولار و (الدفاتر –الدفتر باللهجة الشعبية العراقية

يعني 10000 دولار – المحرر) بسبب سهولة التعامل، بينما ستحمل كميات كبيرة من العملة العراقية في حالة رغبتك شراء سيارة مثلا. لذلك فان إعادة هيكلة الدينار العراقي (رفع الاصفار) أصبحت مطلوبة، وأننا نحتاج الى تبديل فئات النقود وهذه الأصفار رافعة التضخم. إننا بحاجة الى فئة عملة اكبر تتناسب مع هيكل الأسعار، واليوم الرواتب بالملايين، وحتى الأجهزة لا تتحمل هذه التريليونات، لذا فان إصلاح نظام إدارة العملة هي واحدة من وظائفنا غير أن مسألة تبديل العملة ليست ملحة الآن ولكن يمكن أن تتم على المدى البعيد.

الصناعي والخبير الاقتصادي باسم جميل أنطوان

تساءل الأستاذ باسم: كم من العملة المطبوعة والمتداولة في البنوك في الوقت الحاضر وكم عند البنوك وكم هي عند الناس؟ فأجاب د. مظهر بان الموجود عند الناس الآن هو (24) تريليون دينار. ثم واصل باسم جميل حديثه مشيرا الى انه عندما تظهر عملة ذات قيمة اكبر فإنها ستنزل الى ربع العملة في البنوك ويذهب الباقي في البيوت. وقد طرح د. مظهر بان تبديل العملة مقرون بالوضع السياسي، ونظرا لان الوضع السياسي في البلد ما زال غير مستقر ولا توجد ثقة به لذا فستبقى البنوك لا تتداول إلا بجزء يسير من العملة يمكن ليتجاوز 10% وشكرا.

مدير الندوة الأستاذ يحيى الدجيلي:

وكانت لمدير الندوة الأستاذ يحيى الدجيلي مداخلة حيث سال عن سلوك البنوك العراقية الذي سيؤدي الى فشلها واعتقد انه عندما يتاح المجال للبنوك الأجنبية هي التي تأتي وتهيمن على السوق العراقية فإنها ستواجه العديد من المشكلات: البيروقراطية، كثرة التعليمات، الروتين، فمثلا عندما تدخل المصرف وتريد أن تفتح حسابا يجب أن تجلب كفيلاً ...و...و..الخ فهل بالإمكان أن يعاد النظر بهذه السلوكيات المميزة للمصارف العراقية ؟ هذا أولا وثانيا سلوك البنوك الحكومية وغير الحكومية ضد أية تنمية في الدولة العراقية، فلا يمكن لأي صناعي أن يؤسس صناعة بتعليمات البنوك العراقية، فالفائدة عالية 1000%. وهناك مسألة أخرى، من هو الـ TBI ولماذا هذا السلوك منه الذي يقتل الصناعة العراقية ؟

معروف في كل العالم أن أي عمل نظيف يفتح له اعتماد بـ 10% و 15% ويطالبون ببقية المبلغ عندما يطلق المبلغ من البنوك، TBIيفرض على كل الصناعة العراقية نقطا وغيرها. إجمالي المبلغ للحكومة يودع لدى الـ TBIوهذا المبلغ يذهب الى جيب (مورغن) الذي يعمل به براحته سنة و4 أشهر أو6 أشهر وقسم منها 6 سنوات وهذا ماحدث معي فعلا. يبدأ الـ TBIبأي خلل، لو كانت فارزة أو نقطة حتى تذهب بجيب مورغن وترجع فتش ألان في وزارة الصناعة، مبالغ صغيرة أو كبيرة دائما 6 شهور و8 شهور هذا في أحسن الحالات قسم من الحالات سنتان ولا احد يثير أو يناقش هذه المسألة.

الخبيرة الاقتصادية د. سلام سميسم

عندما قدمت الى هذه الندوة وجدت الأستاذ رائد فهمي يتحدث عن قضية فكرية وانأ أقول أن المسالة مسألة فكر وتبقى القضية قضية فكر لان الاقتصادي طبيب والطبيب عندما تأتيه حالة مرضية فالمفروض أن يجد لها حلا. هناك شيء جعلني اخرج عن قضية الفكر حيث اني قريبة من صناعة

السيناريو الذي تجري به الإحداث اليوم في العراق، وافهم لماذا هذه تحدث وافهم لماذا صارت الـ TBIوالسيناريو المرسوم للعراق اليوم يمشي مثلما رسم له؟. وبعد سقوط النظام السابق عام 2003، السياسة النفطية والسياسة النقدية والسياسة المالية والسياسة الزراعية والصناعية والتعليم والمدارس وإعادة البناء تم التخطيط لها.

البنك الدولي وصندوق النقد انشؤوا بعد الحرب العالمية الثانية للضرورات التي صارت وانتقال الهيمنة من الإدارة البريطانية التي لا تغيب عنها الشمس إلى أميركا وبالتالي تحول السيطرة العالمية على مقاليد النقد من الباون إلى الدولار. وكان لابد من إحياء أدوات السيطرة وان العالم الغربي هو عالم واحد لكن من يصير القائد في الواجهة فأعادوا ترتيب بيتهم الداخلي، وكان لابد من نظام عالمي نقدي ومالي لإصلاح هذا الشيء، وتكفل بذلك منظمتان رئيسيتان هما البنك الدولي وصندوق النقد الدولي . فكان البنك الدولي للخطط الطويلة الأجل وكان اسمه آنذاك البنك الدولي للإنشاء والتعمير وكان الحد الأدنى لبرامجه 10 سنوات فما فوق. أما صندوق النقد الدولي فجاء لغرض معين وضع لبناته الاقتصادي الانكليزي المعروف (كينز) وبرامجه كلها قصيرة الأجل لان الفلسفة الكينزية أصلا فلسفة قصيرة الأجل، حتى أن كينز كان متشائما وعنده كلمة مشهورة: (كلنا نموت بالأجل الطويل) فلذلك كل سياساته ورؤاه قصيرة الأجل، وصندوق النقد قام على رؤى كينز وبرامجه. وكان على أساس أن يكون رئيس الصندوق ولكنه فهم اللعبة في آخر لحظة واستقال. القضية كلها سياسية. المسألة أن صندوق النقد عندما نقول بالأجل القصير فهو يهتم بسعر الصرف والاختلالات المفاجئة بالموازين الخارجية والأسعار. لماذا سعر الصرف؟ لان علاقته بالاستقرار النقدي الموجود في البلد. هذا إذا لاحظنا أن صندوق النقد يعمل مع البنك المركزي، ووزارة المالية تعمل مع البنك الدولي، هذه هي القضية. السياسة المالية سياسة آثارها بعيدة المدى والسياسة النقدية تكون قصيرة الأجل، وفي الحالة الاقتصادية يجب أن تتواءم السياستان. هذا الشيء أدركه البنك الدولي وصندوق النقد الدولي وافرز لنا في عام 1973 شيئاً جديداً إلا وهو برامج متوسطة الأجل والذي خرجت لنا فيه نصيحة أو (روشيتة) كما يذكرها لنا (المفكر الاقتصادي المصري الراحل) د. رمزي زكي. روشيتة صندوق النقد الدولي هذه تدخل من خلال سياسات الإصلاح وإعادة الهيكلة، وبدأت منذ دخولها تنفذ من الثمانينات في برامجيات الاقتصاديات العربية عن طريق البلدان المدينة والتي بلغت حد الأزمة وأبرزها كانت مصر والجزائر والسودان والمغرب. وتلاحظون الآن نتائجها مثل القضية المصرية ولها نتائج كثيرة من ضمنها سحق الطبقة الوسطى ورفع برامج الدعم والحماية وزيادة الإيرادات التي تأخذها الدولة مقابل الانفتاح الكبير على الاقتصادات الخارجية والانتقال الى الاقتصاد الحر. في العراق طبق من خلال دخول القوات الأمريكية والإعلان الى تحول الاقتصاد العراقي الى الاقتصاد الحر، وهذا انتقال سلمي عندما تحول الاقتصاد من المركزي الى الاقتصاد الحر وفق رؤية الدستور الذي اقر بذلك ولكن هل ما يتم الآن هو فعلا تحول الى الاقتصاد الحر؟ هل ما يتم الآن هو إنعاش القطاع الخاص لكي

يدخل في مجال الاقتصاد العراقي؟ الجواب: لا. ما لدينا الآن هو تمركز للسلطة، هذا التمركز هو تمركز للثروات في محاولة لإعادة هيكلة الاقتصاد وكأنما يبدو للمتلقي في أول وهلة أن هناك اقتصادا مركزيا يدار من اجل سلطة المجتمع، لكن في الحقيقة أن الأمر ليس كذلك، بدليل أن القضية هي استهداف الاستقلالية. ولكن لماذا توجد جهة سواء كان البنك المركزي أو غيرها تقع خارج نطاق مركزية السلطة الموجودة والتي تحاول السيطرة على ثروات العراق وتسخيرها لأجلها. هذه المسألة خطيرة جدا لأنه إذا تمركزت الثروة فكيف ستدار عملية التوزيع ؟ هل أن عملية التوزيع ستخضع لضوابط فكرية تخدم هذه المركزية ؟ طبعا تستخدمها، فالخصخصة المالية هي البعد الأخطر لهذه المركزية التي تستظل بظل الحرية الاقتصادية، وفي الداخل هي مركزية للسلطة الاقتصادية كما حدث في أمريكا اللاتينية التي سيطرت عليها الدكتاتوريات الكبيرة بعد قضائها على مد اليسار هناك.

أما بالنسبة الى قضية العملة ومزادات العملة فاني مع حرية الصرف بما حققته من نتائج للعراق ولا ننسى أن الدولار قد وصل الى ثلاثة آلاف دينار عراقي ووصلنا الى حالات تراجيدية. هناك مسائل تخص الهياكل الإنتاجية الحقيقية الموجودة في البلد. لدينا عجز في الموازين الخارجية والذي يزيد يوما بعد يوم، وطالما أن اقتصادنا ريعي، فإننا نستورد كل شيء والبلد مفتوح. ولا بد من التذكير فان هذا يقع أيضا ضمن السيناريوهات لأنه يجب أن تنتمي الى منظمة التجارة ولكي تنتمي إليها يجب أن توقع على حرية التجارة ولا تفرض الضرائب وان لا نعمل إجراءات حماية لحماية منتوجاتنا ولاسيما الزراعية. فالموازين الخارجية فيها عجز وحتى نسد هذا العجز يستلزم الحصول على الكثير من هذه العملة الأجنبية لتسديد التزاماتنا تجاه الخارج. عندنا مزادات العملة، وقد تفضل د.مظهر وذكر جانباً لطيفاً جدا بها على سحب السيولة الموجودة في الداخل لكن بنفس الوقت فإنها تجعلنا نفرط بكميات كبيرة من خزين العملة ولاسيما أن موردنا واحد وهو النفط. وهنا تأتي أهمية البنك المركزي فهذه الإيرادات التي تأتي عن طريق الصندوق العراقي للتنمية DFI تذهب الى البنك المركزي والبنك المركزي هو الذي يمول وزارة المالية ولا توجد موارد أخرى، فيبقى مصدر التمويل شريان الحياة بالنسبة للعراق المتأتي من النفط هو بيد البنك المركزي، ولذلك يجب أن يكون البنك المركزي ضمن السياقات وليس خارجها، وجمع النقيضين بين الحاجة الى النقد الأجنبي والحفاظ على سعر الدينار العراقي والمحافظة على الاستقرار النسبي لسعر الدينار. وبتواضع أقول إن هذا انجاز كبير، ولكن ماذا يجري من الصفقات السياسية على ذلك، لماذا؟ لان المالية عندما يستلمها وزير تحسب لتلك الجهة. كيف سيصير التنسيق إذا؟ في مجلس الوزراء لا يعرفون كمية السيولة الموجودة ويخاطبون وزارة المالية وهي لا ترد.. فكيف سيكون التنسيق بينهم ؟ هناك قضية الـ 15 ألف دينار التي اسميها حلاً ترقيعياً وليس حلاً جريئاً، أيضا وجودها ساهم في زيادة الأسعار ولاسيما المواد الغذائية الداخلة في البطاقة التموينية على أساس أنها داخلة كجزء تعويضي عن تلك المواد. لذلك نحن في هذه الحالة سنأكل كل هذا الجزء من التحسن

وسيبقى التحسن اسمياً في سعر الدينار العراقي مقابل التحسن الحقيقي الذي سنقضي عليه من خلال هذه الإجراءات التخطيطية أو الترقيعية. القضية، في النهاية، هي قضية سياسية.

لقد تفضل د.مظهر وذكر حول غسيل الأموال، وثقوا أن الأموال المراد غسلها لا تذهب الى الخارج، وإنما تغسل داخل العراق حيث لا يوجد أسهل من ذلك. معارض السيارات منتشرة، شركات، مصارف، ومسائل اخطر. قضية دخول المستثمرين غير العراقيين الى مجالس سوق الأوراق المالية، والأوراق المالية (بفلس ونصف)، أما البنوك الأجنبية فداخلة في العراق: دار السلام، جي بي سي، ستاندر جارتر، البنك البحريني المتحد، وهذه كلها الآن تتحد وتدخل العراق. الآن المصارف الأجنبية تدخل من باب ما يسمى بالحافظ الأمين الى البورصة، والأمريكان يعتقدون بأن السوق المالية العراقية من الممكن أن تستوعب كل هؤلاء ثلاثة أو أكثر.

السيدة سمية غاوي/ موظفة مصرفية

أشارت الى بعض التصريحات للدكتور مظهر محمد صالح مستشار البنك المركزي العراقي التي صرح بها في الصحف وفي الإعلام بأن المالية سوف تسيطر على البنك المركزي والسياسة المالية سوف تسيطر على السياسة النقدية بموجب القرار الأخير لمجلس الوزراء الذي يضم الهيئات المستقلة وبضمنها البنك المركزي الى مجلس الوزراء، هذه الحالة أين وصل الجدل عنها؟ وهناك شيء آخر صرحتم بان البنك المركزي متعهد للبنك الدولي بعدم إقراض الدولة.

وعلق د. مظهر بان هذا خطأ وان المادة (26) من قانون البنك المركزي العراقي تقول بحظر الإقراض للحكومة وليس للبنك الدولي علاقة بالموضوع ، ثم أضافت السيدة سمية، هل هناك دراسة شاملة كهيئات مستقلة مصرفية بدمج مصرف الرافدين والرشيد ويتحول وتصير سياسة مالية واحدة تكون موجهة توجيها واحدا حتى نستطيع السيطرة على الأموال العراقية ؟ وما مصير الأموال بعد ستة اشهر بانتهاء الحماية الدولية وهل تكفي مدة الستة اشهر؟ وهل الإجراءات حازمة وسريعة، وماذا عن حذف الاصفار ؟

الأكاديمي والاقتصادي
د.عبد الجبار العبيدي:

اعتقد أن الرؤية الماركسية تتعامل مع هذه البلدان باعتبارها حواشي، يعني نتكلم عن النظام الرأسمالي باعتباره نظاماً يتكون من متروبولات وحواشي، مدن وأرياف. وإذا انطلقنا من هذا التوصيف لا نستغرب من هذه السياسات الاقترابية وهذا الانفصال بين السياسات في الداخل التي تشكل في حقيقتها انسجاما هائلا مع المتغيرات والسياسات الخارجية في الوقت الذي تنفصل مع بعضها داخليا فإنها تنسجم مع الخارج لأنها وظيفة. واعتقد نحن بحاجة أولا لمحاكمة العقل المحلي واقصد عقل النخب والأساتذة والمفكرين. ما المطلوب من هذه المرحلة ؟ ما المطلوب من السياسي ومن الاقتصادي، وما المطلوب من الأحزاب. وأنا هنا في ضيافة اللجنة الثقافية للحزب الشيوعي العراقي، هذا الحزب العريق، في الحقيقة وأنا رجل ماركسي صار لي 40 سنة أدافع عن الفكر الماركسي وأنا لست شيوعيا، واجد من المناسب وهذه دعوة من

صديق للحزب الشيوعي العراقي أن تعرف ماذا يريد في هذه المرحلة ؟ وسأنطلق من برنامج الحزب الشيوعي المقترح من صديق وصولا الى ماالمطلوب من العراق ومن السياسات الاقتصادية ومن المفكرين؟. واعتقد أن على الحزب الشيوعي الآن العمل وان يدفع باتجاه الرأسمالية في العراق أو في أي مكان في العالم، ولايمكن له أن يكتسب شرعيته إلا بعد أن يدفع بالصيرورة لحركة التقدم لتبلغ منتهاها ونضجها لكي تصبح صالحة ويصبح مؤهلا وعقلا للمرحلة اللاحقة وبالتالي على الحزب الشيوعي لكي يكون شيوعيا عليه أن يكون رأسماليا، ولكي يكون برجوازيا يجب أن يستغل. ومن هذا المفصل الدقيق انتقل الى الاقتصاد، وبالتالي على الحزب الشيوعي العراقي أن يكون ليبراليا يدعم الحركة الليبرالية بالاتجاه الرأسمالي، هذا هو دوره التاريخي باعتقادي الماركسي. المطلوب من هذه السياسات في العراق أولا أن تستظل بمظلة. وهذه المظلة تستظل ببنية إيديولوجية والبنية الإيديولوجية تستظل ببنية فلسفية، وهذه البنى ترتكز في المحصلة على بناء تحتي يجب أن يكون عقلا للمرحلة القائمة السائدة، لايمكن أن نكون موضوعيين إذا لم ندرك حدود الواقع المادي، يعني من العبث أن نكون نحن نحمل دعوات رأسمالية بمجتمع إقطاعي وبالتالي من اجل سلامة السياسات الاقتصادية يجب أن تنسجم مع البنى الاقتصادية وتعبر عنها وعن مصالح الطبقات السائدة. وهذا يدعونا الى تشخيص طبيعة المرحلة لكي نكون عقلها وممثليها الشرعيين. السياسة الاقتصادية في الحقيقة تعمل في اغتراب عن السياسة المالية والسياسة النقدية وكلاهما يعملان مغتربين عن برامج التنمية. السياسية النقدية تعمل من اجل تحقيق أهداف في مقدمتها الاستقرار. وأتساءل: هل أن مهمة التنمية هي الاستقرار أم إحداث الارتباك؟ أم إحداث تعادل غير متكافئ، معدلات تبادل مقصود عدم تكافئها باتجاه تحقيق التنمية، التنمية تتطلب عدم الاستقرار. لماذا نحن نقدم الاستقرار على التنمية ؟ بافتراض أن هناك علاقات ووشائج وارتباطات بين هذه السياسات وبين التنمية نفترض أن هناك وجود مفاهيم لها، أن الحفاظ على استقرار الدينار العراقي يعني الحفاظ على هذا السكون المرعب، على هذا التدني المستمر، على هذا الشكل الريعي للاقتصاد. غير أن البنك المركزي بشخوصه وبناسه الخيرين هم يحافظون وكأنهم أباء، لأنه في ظل عدم وجود سلطة تعمل لمصلحة المواطن في ظل هذا التبديد للموارد فأنتم تجدون أنفسكم مسؤولين عن الحفاظ على موارد الناس وادخاراتها باتخاذ سياسة معينة، وهذه السياسة تمتلك شرعيتها فقط، لكونها سياسة مغتربة عن السياسة الاقتصادية وعن برامج التنمية وعن السلطة الاغترابية القائمة. وعلى هذا الأساس اعتقد انه يجب أن نبحث عن مفاهيم حقيقية عن تنمية حقيقية، واستغربت جنابكم وشممت رائحة دعمكم أو تبنيكم لإستراتيجية التنمية المستدامة ضمنيا. وأحب أن احذر بأن هذه الطروحات في الحقيقة الاغترابية هي واحدة من أدوات تنفيذ هذه البرامج وهذه الإستراتيجيات الخارجية فقط. أريد القول أن إستراتيجية التنمية البشرية المستدامة هي اغتيال لعملية التنمية الحقيقية لأنها ببساطة تسطو على عملية التنمية والنمو وتنتقل مباشرة الى التوزيع المتكافئ والعادل

للثروات في حين أن هذا التوزيع العادل هو ابن مرحلة متقدمة. هناك من يطلب منا من خلال ما يسمى بالتنمية البشرية والتنمية البشرية المستدامة وتخصيص الموارد المتاحة للفقير، توزيع عادل للدخل، توزيع يكون بنسبة متجاوزة الى الفقراء وعلى حساب المدخرات المالية، وعلى حساب تكوين رأس المال المحلي، وبالتالي تغتال التنمية باسم الفقراء. ورجالات الفكر الذين يدعمون إستراتيجية التنمية البشرية المستدامة وهذه البرامج ذات الشعارات الفضفاضة، هم في الحقيقة ينضمون في تحويل هذه البلدان الى بلدان تزداد يوما بعد يوم في تحللها تحت يافطات ومانشيتات متقدمة، وأجد ذلك موضوعا كبيرا يحتاج الى تخصيص وقت كاف لمناقشة المفاهيم والأفكار.

لقد تم احتلالنا منذ سبع اوثمان سنوات وعلينا أن نتفق على المفاهيم، واجد أن العقل العراقي ما زال مضطهداً ومازال المثقف العراقي يتكلم بأكثر من وجه، لذا أدعو هذا المنبر الفاضل وهذه اللجنة الموقرة أن تتبنى فكرة إجراء حوارات موسعة من اجل إنضاج العقل المحلي، ومن اجل التوصل الى سياسات تتكامل مع بعضها تحت مظلة هذه البنية المفاهيمية التي نبحث أن تكون مستقلة وليست مستغَلة.

نحن نريد أن نكون رأسماليين، ونحن نريد الخصخصة ومرحى بنظام يزيد من استغلال الفقير.. عفوا اسمحوا لي أن أقول هذا واعتقد أن دعم الفقراء والكلام باسم الفقراء هو رشوة لهذا الكم لمصادرة مستقبله، ومصادرة مستقبل الفقير. وباعتقادي الرأسمالية وعملية التحول نحو البرجوازية والخصخصة هو الطريق الوحيد من اجل التحرر من الرأسمالية.

الخبير المصرفي والاقتصادي د.ماجد الصوري:

أشار الدكتور الصوري الى موضوع التنمية، و ما المقصود بالتنمية؟ وهل هي تنمية عمرانية ..مبانٍ وكذا، مثلما حدث في الإمارات والسعودية؟ أم هي تنمية اجتماعية؟ أم تنمية اقتصادية تؤدي إلى تنمية اجتماعية ورفاهية إلى الفرد؟ وأضاف: في تصوري أن أي موضوع يتعلق بالتنمية، الهدف الأساسي هو رفاهية الفرد ورفاهية العائلة والمجتمع بما فيها من فقيرها إلى غنيها. هناك موضوع أخر هو موضوع السياسة المالية، طبعا لايمكن لأية سياسة مالية إن تكون مالم تكن هناك سياسة اقتصادية، والسياسة المالية أو المسؤول عن السياسة المالية يجب إن يدير أموال الدولة، المدخولات والنفقات. وفي تصوري، لحد الآن لا وجود لهذه السياسة ولا لمبادئها الأساسية لأنه لحد ألان لا نعلم ما هي إمكانيات الحكومة أو الدولة العراقية، من الناحية المالية، ما هي وارداتنا ؟ ماهي نفقاتنا الفعلية، وماهو الفائض الموجود؟ ما هو العجز الموجود ؟ والكل يقول إن هناك فائضا كبيرا جدا في الميزانية الختامية الفعلية.

هناك فوضى، فالكل يقول سنستعمل فوائض السنة السابقة لتخفيض العجز في السنة القادمة. ولذلك أتساءل: هذه الـ 22 تريليون دينار (وهي في تصوري 28 تريليون) الموجودة في مصرف الرافدين من أين جاءت ؟ هل هي ودائع خاصة أم ودائع حكومية ؟ وإذا كانت ودائع حكومية فلماذا لا تستغل ؟ هناك إذن عجز كبير جدا في إدارة أموال العراق ولايوجد تحديد الإمكانيات الموجودة في العراق.

النقطة الأخرى هي دور المصارف في

التنمية. هناك قانون المصارف الذي يلتزم به الجميع وان المادة (28) من قانون المصارف لا تسمح للمصارف المساهمة الفعلية في التنمية الاقتصادية، ولكن يمكن لها أن تعطي القروض وبشكل مباشر أو غير مباشر للمساهمة في الإنتاج أوالنشاطات الاقتصادية المتعلقة بالتجارة والصناعة والزراعة وكل مايتعلق بها وممنوع عليها إن تدخل بشكل مباشر.

إما القوانين الخاصة بالمصارف إلا خرى (الصناعي والزراعي والعقاري) فقد ألغيت، ولذلك فان ما يحكمها اليوم قانون واحد هو قانون المصارف التجارية، علما أن هناك محاولة لإصدار قانون مصارف. المشكلة الأساسية الموجودة عندنا هي توفر الأموال اللازمة إذا ماأصرت الحكومة على أن هذا القطاع العام والخاص يقوم بالتنمية بشكل خاص يجب إن نوفر لها الأموال اللازمة والمناخ المناسب والبنية التحتية، الكهرباء، الماء ...الخ. يجب إن يتوفر هذا كله من اجل وضع الأسس اللازمة للتنمية الاقتصادية الشاملة. وبدون خلق مصرف تنموي سواء على شكل مصرف صناعي أو زراعي أو عقاري أو دمجها كلها بدون خلق مصرف تنموي توضع لديه أموال كافية من اجل مساعدة القطاع العام والخاص بالنهوض لن تتم التنمية في العراق.

وفي تصوري لا توجد مفاهيم واضحة لدى السياسيين في الوقت الحاضر وهناك "طلاق كامل بالثلاث " بين السياسة والاقتصاد بالنسبة للسياسيين. ومشكلتنا إن السياسة هي التي تقود الاقتصاد وليس المصالح الاقتصادية هي التي تقود السياسة، وخوفا إن تتحول السلطة السياسية بإطرافها المختلفة وباختلافاتها الكبيرة إلى وحدة دكتاتورية متكاملة لاتهمها إلا المصالح الشخصية وبعيد عن مصالح التنمية الاقتصادية. واكبر دليل على ما ذكرت القرارات الأخيرة الثلاثة الخاصة بـ 15 ألف دينار لكل مواطن وما يتعلق بالرسوم الجمركية والهيئات المستقلة وربطها بالحكومة. وهذا يعني محاولة كبيرة جدا للمجموعات السياسية الموجودة لفرض دكتاتورية متكاملة تستطيع أن تتصرف بجميع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية للعراق.

جوابا على التساؤلات: الدكتور مظهر محمد صالح يرد

وردا على التساؤلات التي طرحت من خلال الأساتذة المشاركين في الندوة فقد أجاب مستشار البنك المركزي العراقي د.مظهر محمد صالح على ماطرحه د.صباح عزيز حول الدينار العراقي والتساؤلات الأخرى، مبينا أن اخطر ما يمكن أن يحدث هو أن البنوك المركزية تهيمن على الدائن وهناك قول يقول (إذا هيمن الدائن على المدين سقط الدين). فإذا ماستطاع البنك المركزي والمالية العامة من وضع يدها على أماكن طبع العملة والتمويل الرخيص فالبلد يضيع، وهذا مجرى. أي عجز يمكن سده بدقائق، إذ من الممكن خلق فائض في الموازنة العامة معناها خلق عجز جيب كل مواطن.

النقطة الثانية أن المادة (26) من قانون البنك المركزي العراقي عنوانها (حظر إقراض الحكومة) حيث يحظر على البنك المركزي العراقي إقراض الحكومة سواء بشكل مباشر أو غير مباشر باستثناء إمكانية الشراء عن طريق السوق الثانوية من مصارف حكومية، حوالات خزينة ..الخ. إما

ماينسب لي احياناً من تصريحات فالإعلام الاقتصادي هابط حيث أتكلم عن شيء ويظهر شيء آخر. الرافدين والرشيد مع المصارف الحكومية الأخرى يشكلون 90% من النظام المصرفي في العراق، أما المصارف الخاصة والأجنبية فلا قيمة لها، وهي تعيش على هامش الحياة الاقتصادية، وبالتالي نحن إمام إعادة هيكلة مصرفي الرشيد والرافدين. ولكن الإرادة لإعادة الهيكلة غير موجودة ولاتوجد إرادة لإصلاح مصرفي الرشيد والرافدين ويبقيان بهذا الوضع .

أما عن مصير الأموال العراقية فأجاب د. مظهر قائلا انه في6/30 ترفع الحماية عن أموال جمهورية العراق وان أفضل الوسائل للحماية كما ذكرنا هناك وسيلتان:

– تدخل الأمم المتحدة. النفط ومسألة الـ 5% تعويضات الكويت يمكن للأمم المتحدة هنا إن تتدخل وتحمي الأموال.

– إما الوسيلة الثانية للحماية فتتعلق بالولايات المتحدة. في داخل الولايات المتحدة يبقى حساب، وهي تريد 400 مليون دولار كتعويض للرعايا الأمريكان الذين تضرروا بإحداث الكويت، فتدفع الـ 400 مليون دولار ويصدر أمر رئاسي، وإذا لم تدفع فلا يصدر الأمر الرئاسي.

وصدور الأمر الرئاسي يحمي أموال العراق ولا يستطيع احد إن يطالب بأموال العراق.

نحن كبنك مركزي لدينا استقلالية ونحاول إن نجلب أموال الحكومة معنا وممكن إن نحميها أو لا نحميها، لايوجد مثل هذا التعهد ولكن نحاول.

إما عن حذف الأصفار فنحن نبحث عن اللحظة المناسبة لان إطلاقه بلحظة غير مناسبة من اخطر ما يمكن، وان حذف الأصفار نظام إداري هدفه إعادة إصلاح نظام هيكلة العملة والتخفيف من كلفة المعاملات حيث هذه تتضخم بسبب الأصفار، لذلك فان حذف الأصفار يعني إشارة إلى إن الاقتصاد يسير بطريق الازدهار والتطور والاستقرار.

الأستاذ رائد فهمي :

في ختام الندوة علق الأستاذ رائد فهمي مثمنا ومقدرا المساهمات التي طرحت في هذه الندوة، إضافة طبعا الى إضاءات د.مظهر محمد صالح لكثير من الجوانب. وأكد الأستاذ فهمي على انه وبغض النظر عن التوافق أو عدم التوافق في وجهات النظر فانه قد أثيرت الكثير من الأفكار والآراء المحفزة لكل الاتجاهات، الاقتصاد لاينفصل عن السياسة ولا عن الاجتماع. وبالتالي فان الكثير من الملاحظات التي ذكرت قد تكون صحيحة اقتصاديا ولكن (نص ونص) اجتماعيا. الاقتصادي ينظر من زاوية اقتصادية مطلوب لان الاقتصاد عنده منظومة منسجمة داخليا، فما يدعوه الاقتصاد قد لا يتفق مع السياسة لان السياسة لها مطالب آنية .. ثمة إذن فرق في الزمن ..لذلك يدخل السياسي عنده عبر مطالب وعبر ضغوطات يعدل على الاقتصادي.. والاقتصادي غير مطلوب منه أن يكون مثل السياسي. وإشارة إلى موضوع البطاقة التموينية، إنها في ظل أوضاع العراق الحالية ومعاناة الناس تخفف من غلواء المتفاوتات وتطمن حاجات اقل من الأساسية علما أن مناقشة هذه القضية لن يتم بمعزل عن الخلل والفساد في طريقة تنفيذ البطاقة.

وتعقيبا لما قاله د. عبد الجبار العبيدي

حول الرأسمالية في العراق، أشار الأستاذ رائد الى أن العراق بعد 2003 دخل عملية الانتقال إلى اقتصاد السوق، والسوق كما هو معروف تعبير مخفف للرأسمالية والعراق سائر بهذا الاتجاه وان مهمة الشيوعيين ليس الدفاع عن نمو الرأسمالية وكل مفرداتها. والرأسمالية وعدالة اجتماعية وفق تسهيلات أرادت أن تعبر تعمل من اجل إن تخفف من نتائجها الاجتماعية على السواد الأعظم من السكان، لذلك ندعو إلى ضمان اجتماعي معين. أما بالنسبة إلى التنمية فهي عملية تغيير تتعارض مع الاستقرار مثلما ذكر ذلك د. عبد الجبار، اليوم نحن نريد أن نبني التنمية، لذلك نجد هذا التعارض. وعندما نقول التنمية فأي شكل من التنمية، فهل التنمية التي تبني الصناعة تقوم فقط على متراكمة رأس المال المادي وغيره، أم التنمية البشرية ؟ اليوم التنمية البشرية تحتل دورا لم تكن تحتله قبل 40 سنة مثل كوريا التي حققت شيئا في التعليم وغيره وكذلك الصين. وإضافة لذلك فان الجهة التي تقوم بالتنمية يجب عليها أن تحشد الموارد وبالتالي فان قضية الاستقرار النقدي هي قضية ثانوية بالنسبة لمتطلبات التنمية وتمويل الموارد.

اختتم أعمال الندوة، التي دامت أربع ساعات، الأستاذ يحيى الدجيلي الذي شكر الضيوف الكرام على ماقدموه من مساهمات جادة ساهمت في إثراء النقاش داعيا إلى مواصلة عقد المزيد من الندوات الحوارية بهدف المساهمة في بناء اقتصاد عراقي سليم ومعافى .

*** نظمت الطاولة المستديرة الهيئة الاقتصادية في محلية المثقفين في الحزب الشيوعي العراقي والتي قامت بأعداد هذه الخلاصة عن إعمال الطاولة، وخصت مجلة (الثقافة الجديدة) بنشرها.**

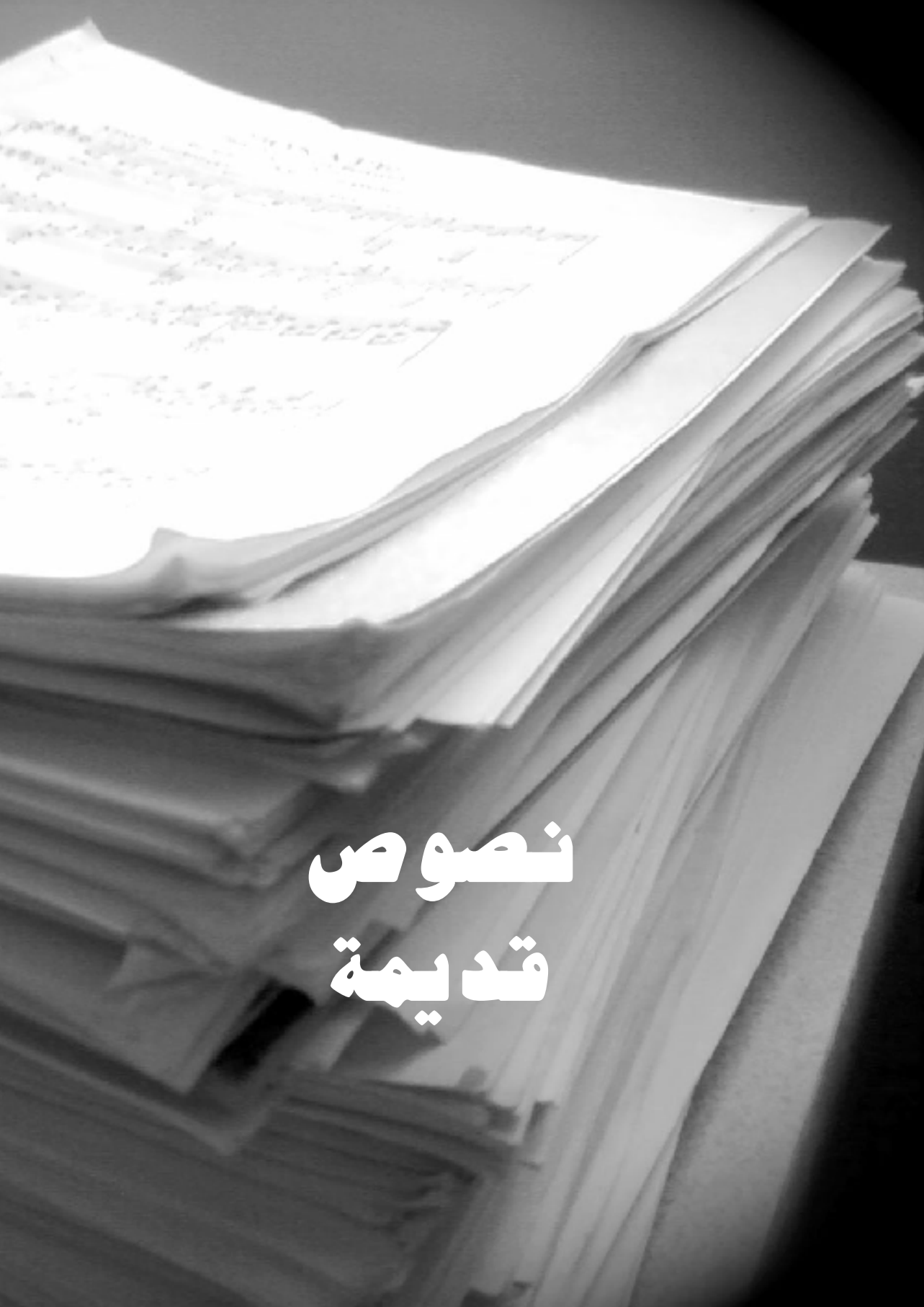
نصوص
قديمة

سجالات حول السياب

في الذكرى الثامنة لوفاته أعدت مجلة (**الأقلام**) العراقية (العدد التاسع / 1973 ، ص 101-107 ملفا خاصا عن بدر شاكر السياب تحت عنوان: السياب ظاهرة حية، شارك في الملف طائفة من الأدباء والباحثين والأساتذة الجامعيين، من بينهم الراحل الكبير الأستاذ على جواد الطاهر. وقد كتب الدكتور جبرا إبراهيم جبرا مقدمة مكثفة للملف المذكور جاء فيها:

(***سيبقى بدر شاكر السياب موضوعا لحديث كبير، ودرس كثير، ونقد كثير، لأجيال. وكلما مرّت السنون على وفاته، ازداد وضوح الدور الكبير الخلاق الذي لعبه شعره في الخمسينات ... لقد أعطى (بدر شاكر السياب) الشعر العربي حسا دراميا، لم يكن مألوفا من قبل، جاعلا للقصيدة أحيانا أبعاد المأساة، وتمكن من إبداع رموز جذورها عربية ومعانيها كونية –مما لم يتحقق في تاريخ الأدب إلا على أيدي اكبر الشعراء)*** .

نعود الى مساهمة الأستاذ الدكتور علي جواد الطاهر التي أضاء فيها جوانب عديدة من المنجز الشعري للسياب وأثار جوانب أخرى من حياته بما فيها علاقته بالحزب الشيوعي العراقي. وطرح الأستاذ الطاهر موضوعة تقول: " أن بدر في أذهان الناس هو هو...وشعره شعره... ولم يسأل احد عن صلته بالحزب أو عن انقطاعه كأن المسألة غير واردة وغير واقعة بل أننا لانكاد نعرف تاريخ الفصل أو الانفصال على وجه الدقة أو كأنه مر بدورين وكان أولهما غامضاً ". إن هذه الملاحظة، وغيرها أيضا، دفعت الراحل د. صفاء الحافظ الى إرسال رسالة الى د. الطاهر يوضح فيها جوانب عديدة من علاقة بدر بالحزب والحزب ببدر، وقد نشرت هذه الرسالة في مجلة (**الثقافة الجديدة**) العدد 48 / آيار 1973، ص 186– 192.

لا نريد أن ندخل في تفاصيل الرسالتين، اللتين هما موضوع باب: نصوص قديمة لهذا العدد المزدوج، 343-344، ففيهما الكثير مما يستحق القراءة المعمقة البعيدة عن سطوة الأحكام المسبقة. وإذ ننشر النص الكامل لهاتين الرسالتين يحدونا الأمل بان نشرهما سيساهم في إضاءة بعض " البقع القاتمة " في التاريخ الثقافي والسياسي المعاصر في بلادنا، ومن بينها ما يخص الشاعر بدر شاكر السياب، الذي سواء اتفقنا بشأنه أو اختلفنا حوله فانه يظل إحدى القامات الشعرية التجديدية المديدة التي ستبقينا لفترة طويلة –كما كتب جبرا " –نتمعن في ما حققه من تعميق واتساع لقضية الشعر كلها ".

الدكتور علي جواد الطاهر*

ولد عام 1926 في قرية جيكور من ابي الخصيب من البصرة ...لابد من انه احب الادب مبكراً والشعر بوجه خاص تذوقا ومحاولة في النظم... كما احب جيكور والنخل... من دون وعي...

وفي عام 1943 دخل دار المعلمين العالية ببغداد وهي بيئة صالحة جداً للشعر تذكية وتزيد في عوامل نظمه وتمنح صاحبه قيمة خاصة كان ببدر حاجة ماسة اليها... واذا زدت على (المرأة) (السياسة الوطنية) زدت عاملاً مهماً جداً في بلد كالعراق وفي عهد كذلك العهد...

وكان الفتى يغذي نفسه بكل ما يجعل منه شاعراً واذ تنقل بين فرعي اللغة العربية واللغة الانكليزية دل على وعي خاص، هيأ له فهما اكثر ووطد فيه الاهتمام الجدي بثقافتين وشعرين- ولابد من اللغة الاجنبية لمن اراد ان يتطور ويجدد..

وتمتزج السياسة بالغزل بالثقافة بالشعر وتعكس قصائده أثارا لهذا الامتزاج - او الاختلاط -: الانتماء الى الحب والانتماء الى السياسة (1).

ويفصل من الدار - مدة - لسبب سياسي فيعود الى البصرة ليكون شاعرا وخطيباً...(ينظر ديوانه أعاصير(2)) ثم يعود الى الدار والى السياسة والغزل...والى ميل في التجديد الشعري...ويعكس ذلك ديوانه (ازهار ذابلة) الصادر في القاهرة عام 1947، ولقصيدة (هل كان حبا) من الازهار الذابلة اهمية خاصة في تاريخ التجديد الشعري (3).

ويزداد التيار السياسي ويصبح بدر شاعراً جماهيرياً يقف في المظاهرات والجموع فينشد فيهتز ويهز، وينشر في الجرائد فيذيع اسمه ويشيع...(ومازال شعره في هذا العهد موزعا في الجرائد وقد نشر منه الاستاذ عبد الاله احمد قصيدتين في مجلة الاديب المعاصر العدد 3، تشرين الثاني - 1927وتنظر مقدمة القصيدتين).

واذا كانت وثبة كانون 1948 كان اسمه يلي الجواهري ويرشحه للخلافة... وادى به كانون الى السجن والتشرد...

وينشر (اساطير) سنة 1950.

و (حفار القبور) سنة 1952

و(يوغل) في التشرد ... خارج العراق يبحث عن خبز وكرامة ... فما العمل؟ وكيف؟ وتكون(غريب على الخليج)، رائعته ... عام 1953.

و1953 عام جدير بالدراسة لما له من دلالة على ضمير الشاعر وفي وضع هذا الضمير على المحك ازاء كل ما لقي في العراق على يد من كره أو أحب، وأزاء كل من عانى من غربة وجوع بعيداً عمن احب قريبا ممن لا يحب، وظل العراق في قلبه ونفسه وفكره ومعتقده وكيانه... مثلاً اعلى وكان حنينه اليه واخلاصه له نادرا..

وكان في متلاطم موج ومتجاذب مغريات، ومن يدري ماذا خامره، وماذا عرض عليه وماذا..؟ والا فلم الحديث عن الخيانة:-

(انـي لاعجب كـيف يمكـن ان يخـون الخائنون؟)

أيخون الانسان بلاده؟

ان خان معنى ان يكون، فكيف يمكن ان يكون؟

الشمس أجمل في بلادي من سواها، والظلام -حتى الظلام -هناك اجمل، فهو يحضن العراق.

... يا نقود ...

... فحدثيني يا نقود ...(4)

وصعب ومستحيل على مثله ان يخون... و(تجوع الحرة ولا تأكل بثديها) وان بلاده اعز عليه من أي شيء... وأحب....

ويعود الى العراق، ويجد وظيفة بمديرية التجارة العامة، وقد لاذ بهذه المديرية كثير من المفصولين والوطنيين ولا تستطيع في يسر ان تعزل ما بين فضل مديرها الوطني ووعي حكومتها العميلة...

وبدر في اذهان الناس هو هو ...وشعره وشعره ... ولم يسأل احد عن صلته بالحزب او عن انقطاعه كأن المسألة غير واردة وغير واقعة بل اننا لانكاد نعرف تاريخ الفصل او الانفصال على وجه الدقة أو كأنه مر بدورين وكان أولهما غامضاً.

وأزاءنا مجلة (الثقافة الجديدة) وهي تمثل الأداة الثقافية الاعلم بالموضوع والادخل فيه والادل عليه...وفي القائمين على هذه المجلة الدكتور صلاح خالص والاستاذ عبد الوهاب البياتي... وقد صدر عددها الاول في تشرين الثاني 1953 وفيها قصيدة للسياب بعنوان (اطفالنا):

(عصافير أم صبية تمرح)(5)

وبعدها بثلاث صفحات قصيدة للبياتي بعنوان (السجين المجهول):

(عبر باب السجن عبر الظلمات... يارفاقي)

وقرأ الناس القصيدتين- فيما اعلم- على ظاهرهما - ولم لا؟ واعجبوا بالأولى والثانية... اعجبوا بالاولى لانها لبدر الذي يعرفونه جيدا.. وبالثانية لما فيها من حديث عن السجن بوجه خاص. ولم يدرس الناس القصيديتين في دلالتهما الأنتمائية ولم يقولوا ان بدر الفنان الانساني جدا في نظرته الى الاطفال ربما اختلف عن بدر الذي يعرفونه وأن المادة التي تحدث عنها عبد الوهاب البياتي هي المادة التي كان المنتظر الطبيعي ان يتحدث عنها بدر، لاسيما أن المسألة مسألة سجن ورفاق وكان بدر رفيقا وكان قد سجن وشرد ولم يسجن البياتي يوما ولما يعرف عنه انه رفيق..

ولم يقولوا هذا رفيق جديد حل -او يريد ان يحل -محل رفيق قديم ... فلماذا !؟ وكيف؟.

كان البياتي بعيدا عن ان يدرك السياب في عالم الفن والوطنية والشهرة. ولعله كان اوعى لذلك من غيره، لان هذا (الغير) لم يكن ليعير المسألة أهمية ولم يكن ما يشغل بال عبد الوهاب من الطماح يشغل باله.

واذا كان الشاعر الطالع أوعى بالحال، كان اوعى بكل شيء من وسائل وغايات...

ويصدر العدد الثاني من الثقافة الجديدة في كانون الاول (1953) وتتقدم فيه كلمة للبياتي عن (بابلو نيرودا) على قصيدة للسياب بعنوان (البغايا والشتاء). ولم يعر احد الامر أي اهتمام، ولعله لايستدعي أي

اهتمام – ترى ما معنى ورود كلمة (حقد) في قصيدة السياب :

" حقد سيعصف يارجال"

سؤال يبدو متكلفاً، ولعله كان كذلك.

وتقف (الثقافة) مؤقتاً، وتستأنف الصدور في نيسان1954، وتجد فيها البياتي في قصيدة (المذبحة) وفيها علامات الانتماء كلها، قد تكون شكلاً، ولكنها علامات على اية حال.

(... من قريتي في الصين... وجنودنا عبر الخرائب صامدون ... من ها هنا (سيئول) مجد الكادحين...) وحديث عن السلام وذكر لتكساس...

ولم يسأل احد عن غياب السياب ولم يتغير مكانه لدى الناس... فهو هو ...ولم يحل عبد الوهاب البياتي من نفوسهم محله...ولم يبد على السياب نفسه أي تغير في المنحى السياسي او الفني وفي دلالة شعره على ما خفي من امره. وظلت المسألة سرا لايعرفها الا ذووها والقريبون منها وهم محدودون جداً...وكأن الطرفين حرصا على حفظ السر في الداخل وحفظ ماء الوجه في الخارج – ولا يخلو ذلك من حكمة.

ولاتهمنا تلك الحكمة – هنا –الا بمقدار ما ابقت للشاعر السياب من توازن في الامر.

كانت قصيدته الاولى التي نشرها في العدد الاول من الثقافة الجديدة (اطفالنا) مطلعا لمطولته (الاسلحة والحرب) التي صدرت ببغداد عام 1954 (6) واستقبلها الناس استقبالا طبيعيا كأن لم يكن في حياة بدر سر جديد... وكأن هذا الامر الجديد – عرفوه أم لم يعرفوه –ليس بذي بال...لانهم أزاء فن جديد أخاذ...ثم انهم ليسوا –كلهم أو اكثرهم – منتمين ... وسواء التزموا أم لم يلتزموا فان بدر لديهم هو هو ... وانك لو ربطت بين العنوان والحركة الشيوعية لما اعترض عليك معترض او لما فكرت بمعترض. ولم؟

وتؤلف قصيدة العدد الثاني(البغايا والشتاء) المقاطع الخامس والسادس والتاسع من قصيدة طويلة صدرت ببغداد عام 1954 بعنوان (المومس العمياء)(7) فحازت اعجابا منقطع النظير ورأى الناس فيها مالم يروه من قبل... ولم يروه لدى معاصر...دون اية صلة لهذا الاعجاب بالانتماء واللانتماء... او أي سبب للتساؤل...وبدر في اذهان الناس هو هو فناً وسياسة

(وطنية)..الشاعر المبدع الذي يمثل الروح الوطني ومناهضة الحكم الغاشم...

وكان قد صدر ببيروت عن (دار العلم للملايين) مجلة باسم (الاداب)، رئيس تحريرها (الدكتور سهيل ادريس) ولا يعلم العراقيون شيئاً عن هذه المجلة ولم يسمعوا باسم رئيس تحريرها من قبل .. الا انها كانت مجلة (تعني بشؤون الفكر) وقد اعجبوا بها اذ اطلعوا عليها..انها باب جديدة ينفذ منه الادباء بعد ان كان يضيق (ويهرم) باب مجلة (الاديب) ثم ان هذه المجلة شيئا يختلف عن غيرها... حتى لو بدت في اول امرها اقرب الى (الخليط).

وسبق عبد الوهاب البياتي الى النشر في هذه المجلة وكانت له في سنتها الاولى سبع قصائد تتقدمها(الملجأ العشرون) وكثر في ثناياها الحديث عن الجوع والكادحين وتكرر ذكر الرفيق او الرفيقة ولا تعدم ان تجد بين عنوانها مثل (موت الفلاح محمود).

هذه القصائد من نهج جديد (يريد ان يقضي على الوزن والقافية – قدر الامكان)(8) وفيها ما يستجاد، ولكن اين من اين .. اين هي من عمق بدر وحرارته وصوره... وان كانت متأثرة به وكادت تشير الى ما يشبه التلمذة؟.

واذ تدخل (الادب)(9) سنتها الثانية يختفي البياتي من على صفحاتها تمام الاختفاء ويبرز السياب بوجه أخاذ وصوت(هدار) يوم الطغاة، انشودة المطر، عرس في القرية، المخبر... ويرد على قلمه في مكانين آخرين من المجلة ما يلمح الى (خلاف) مع البياتي فقد اتهم بالسرقة في (الملجأ العشرون) ... وغاظه ان يقدمه اديب عراقي– بغض النظر عما دفع هذا الاديب – مبشرا بالشعر الحر... كأنه يريد ان يقول: لماذا؟ لم المغالطة؟ واين مكاني؟ انا بدر شاكر السياب...

ولم يخرج في كلمتيه المقتضبتين عن هذه الحدود. ولم يشر من قريب او بعيد عما كان يجري له – أو عليه – في دنيا الانتماء... اما القصائد الاربعة فهي من جو (غريب على الخليج) عموما وتقل او تزيد او تقترب منها في فنها..فيها: الغربة والحاجة والحنين الى الوطن. ولا غرو ان كتب تحت (انشودة المطر): (في ايام الضياع في الكويت على الخليج).

ولإنشودة المطر أهمية خاصة في حياة بدر أي في فنه فلقد استقبلها الناس كأنها فتح جديد وقمة جديدة اعتلاها الشاعر. ستقول المضمون. وهذا صحيح. ولكن: الايقاع واللفظ والصور.. والروعة العامة.. ثم لم تريد من القارئ الذواقة ان يفصل؟ اجل لقد كان التأثير حصيلة الكل المتزج امتزاجا تاما..

وتداولتها الطلبة– فيمن تداولها – وحفظوها ورددوها... وكان فيهم عدد ممتاز من اهل الذوق والدراية. يبحثون عن الشعر الجديد، ويفهمونه، ويهتزون للرائع منه، ويحفظونه ويتلونه تلاوة انشاد .. وكانوا يحفظون – فيما يحفظون– شعر خليل حاوي ونزار قباني ونازك الملائكة وبلند الحيدري... ولا اذكر انهم قرأوا شيئاً لعبد الوهاب البياتي. لقد كان لانشودة المطر وقع خاص اثارهم وفتق اقصى كوامن اعجابهم للشعر الحر واعطاهم حجة قوية يدمغون بها من ينكر الشاعر به على هذا اللون الجديد...

ومع ماهو معروف عن العراق في التزامه الطبيعي وهيامه بالسياسة والوطنية والانسانية... الا ان الفن الجديد كان عالي الصوت في عالم الشباب، واكاد اقول اني لم اكد اسمع غيره اذا اتصلت المسألة بالشعر الحر...

لم يلمح احد الى مكان بدر من واقع الحياة، ومن واقع الانتماء .... كأنه لديهم هو هو، شاعرية ووطنية. والناس ينتظرون المزيد من الجانبين والشاعر هو المائل في اذهانهم أولاً... انه مازال شاباً، يطلع كل يوم بعطاء جديد... وكأن لهم منه – وفيه – الشاعر به اولاً ...

ان بدرا شاعر... وطني ... لاغبار على ذلك ... أما مسألة اتصاله بالحزب او انفصاله عنه... فلم يكن التفكير بها واردا...واذا كان الامر كذلك كان التفكير بدراستها علميا موضوعيا ابعد ما يمكن ان يقع... او ان يدعى اليه... او ان يثار...

وإذ يحدد الدارسون المتأخرون عام1954 بدءأ للانتماء الى الحزب (او ما

هـو منه) وعـام 1952 (او مـا بعده بـقليل) إنتهـاء (10)، فأن هـذين التـاريخين لم يكونا في بـال عـامـة القـراء، وعـامـة المعجـبين لأن هـؤلاء لا يـعلمـون الاسـرار ولا يـريـدون ان يعلموا، وكـان يكفيهم ما في هـذا الشعر من روعة وما في أخبار الشاعر من تشرد وألم.. كما ان الجـهة التي انـتمى اليـها الشـاعر ثم انفصل منهـا– او فصل، لا نـدري– لم نعمل عـلى اعـلان الحال، ولـو فعلـت لاعلنت مـا لم يكـن النـاس يعـرفـون أوله ومـا ربمـا اسـاء اليها، هذا الـى انها لا تريـد ان تخسره كلا، انه هو –نفسـه –لم يقطع العلاقة بـتاتاً، فلم يعلـن ولم يشـتم ولـم ... ولم ... وربمـا لم يلمح، ولـعله لم يـرد ان يـقطـع، وانه او اعلن لاسـاء الى نفسه في مثل تلك الظروف. كان يكفيه – ويـهمه جـداً– ان يبقـى وطنيـاً في عيـون النـاس، وقـد تهيـأ لـه ذلك، فمـا زال وطنيـاً برأي الـنـاس كـمـا هـو في رأي نفسه، ولكأن الانتماء مسألة خاصة .

وهكـذا...استقبل النـاس– كمـا رأينـا– قصـائده، وفي مقـدمتهـا: حفـار القبور، الاسلحة والاطفـال، المومس العميـاء .. حتى انك لا تمـيز فيها– وفي إقبال الناس عليها – أثراً لما بجانب الانتمـاء... ولو قلت انه نظمها في مرحلة الانتماء لما اتيت شيئاً اذا(11).

وكنا في اخـريات العـام الدراسي 1955 1956 – وأقمنا (جماعة الإنشاء الأدبي) بدار المعلـمين العالية، ورأينا ان يكـون بدر شـاكر الـسيـاب احـد الـذيـن يقـرؤون نمـاذج من شعـرهم لما له من مكـانة وطنية ومكانـة فنية، والفن كان الدافع الاقوى...

ذهبت الـى المديريـة لدعوته... وكـانت هذه الـزيـارة فـرصـة لمعـرفـة مـا آل اليه بـدر من أرتـبـاطـات سيـاسيـة خـارج الـدائرة الـوطنية الـتي عـرف بهـا... فلعله شكـا مـن إتهـام الآخـرين إياه، ودل علـى ان له موعداً لعلاقة بـأذاعـة الـشـرق الادنـى، وربمـا ورد أسم "سميرة عـزام" واكبـر الظن إنه الاسـم الذي ورد– الا أنـي لم أهـتم لـذلك وربمـا لم انـتبه للامـور على حقيقـتها وعلى مـا كان يجب ان اتنبـه له... وكأن ما بـقى معروفـاً عن بدر في الميدان الـوطني والمـهمة الخـاصة الـتي جئت من أجلها حالاً دون التدقيق والتعمق..

لبى بدر...

ووقفت في القـاعة الغـاصة بـالحاضـرين المتـذوقين لـلشعـر المبـدع .. اقدمـه: (... بدر مـدرسـة...) وقـد يكـون في القـول مبـالغـة إقتـضتهـا طبيعـة آداب التقديم الا أنـي لم أحس بـأنـي كنت أبـالغ، ولـم احس بـأن في الحاضـرين من انـكر او أستنكر ذلـك، حتى لكأنهم ارتـاحوا كل الارتياح وانتـظروا مزيداً من الـثنـاء.. وصفق الحـاضـرون للـشـاعـر الحبيب العـزيز وهـتفوا: مـطر، مـطر، مـطر.. فكان لهم ما أرادوا ..

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،
او شرفتان راح ينأى عنهما القمر
عيناك حين تبسمان تورق الكروم
وترقص الاضواء.. كالاقمار في النهر..

وأكثرهم قـرأهـا قبل هـذا، وأعجب بهـا، وحفـظهـا .. إلا أنهم يـريـدون ان يـسمعـوا (الجمـال) من فمه.. وهذا مـا حصل ولم يكن بدر بالمنشد ذي الصوت الـرخيم، ولكنه كان كتلـه من الاعصـاب ويـصبح جـزءاً لا يتجـزأ من القصيدة منذ حرف العين من "عيناك" .

وقـد هـز الحـاضـرين هـزاً.. من عـرف منهم القـصيدة ومـن لم يكن قـد عرفهـا، ومن كان منتـمياً ومن لم يكن، ومن تهمه السياسة ومن لا تهمـه .. ومن الف الـشعـر الحـر ومـن لم

يـألفه. انهـا لاوسع مـن السـياسـة والانتـماء، انها لتنتمي الى الانسان في حالتي اله وأمله وبؤسه وتفاؤله ... ثم انها قبل ذلك- وبعده- قطعة فنية نادرة الصنع ثم قرأ: بويب..

بويب ..

أجـــراس بـــرج ضـــاع في قـــرارة البحر....

اود لو غرقت في دمي الى القرار ..

لأحمل العبء مع البشر..

وابعـث الحـيـــاة .. وان مـــوتـي انتصار!(12)

فسحر الحاضرين سحراً...

وأكرر ان المبعث الاول للاعجاب بهاتين القصيدتين هو روعة الفن الشعري ..

وفي ذاكرتي انه قرأ قصيدة اخرى او مقاطع من قصيدة اخرى، غلب عليها الطابع السياسي، او انها كانت سياسية فعلاً، وان الاعجـاب بهـا كـان قـائمـاً علـى المعنـى السياسي فيهـا ... لانها كانت بعنوان " بور سعيد" –ومناهضة الحكم القائم واضحة منذ العنوان..

وانفض الجمع وهم على اسعد ما يكون.. وكادت هذه الامسية تجر على المشرف على شؤونها الجرائر ولكنها لم تجر ... ولم يكن الا كلام لـطيف من مسـؤول.. يلمح الـى الخشية من تجمع مثل هذا.. وانتهى الامر.. وربما انتهت (اماسي جماعة الانشاء الادبي) بتلك الامسية (الخالدة) في نفوس حاضريها وفي ندم من لم يحضرها .

وفي ذات يوم لا اتذكره على وجه الدقة ولا شبه الدقة لعله من صيف ... الامسية .. دعيت ولا اتذكر الداعي على وجه التحقيق، هو بدر نفسه؟ أهي سميرة عزام – التي كانت- كما في علمي تشتغل آنذاك في الاذاعة العراقية- ولا ادري لم تلح الذاكرة على سميرة عزام.. الإرتباطها المباشر بإذاعة الشرق الادنى ولورود ذكرها في ما كان بدر يشكو منه أو يدافع به عن نفسه.

المهم: دعيت لندوة اذاعية مع بدر شاكر السياب وأديب عراقي أخر لم أكن قد رأيته او عرفته وقد علمت خلال ذلك اللقاء انه محامٍ وانه يعني بالادب كثيراً وربما قال انه يشتغل في الاخراج الكمركي ... وينشر اموراً خارج العراق- وكانت تلك آخر مرة أراه.

واتفقنا على النقاط...

ودارت الندوة ....

وكان بدر يبدو فيها وطنياً... وقال: انه لم ينقطع عن النظم، السياسي بوجه خاص، وان لديه في (الادراج) الكثير الذي ينتظر الفرصة لنشره... اما الآن فأنه يخشى، ولا يمكن(13) ...

وانتهت الندوة .

ولم احملها اي معنى غير معناها ... ولعلها لا تحتمل التأويل، من يدري؟ ... وقد يوجد من يدري...

ومضت الايام...

ونشر بدر في مجلة شعر التي ولدت تحيطها الشبهات ....

ولكن نشر بدر فيها لا يكفي لاثارة الشبهات حوله فقد نشر معه آخرون يفترض فيهم الالتزام وما هو أكثر من الالتزام كالانتساب لحزب هو (شعر) على طرفي نقيض، لانها انشئت لمحاربته وصرف الناس عنه.. وعن الدعوة الفنية التي يدعو اليها.. أذكر من هؤلاء الذين نشروا في (شعر) سعدي يوسف.

لم اعد ادري شيئاً عن بدر شاكر

السياب... وأقرأ له الا ما يقع بيدي عرضاً وكأنه لم يعد ينشر ما يهز عموم القراء وما يصل صداه الى الطلبة...(14)

ويبدو ان السر الذي اصطلح على حفظه الحزب والشاعر ازاء الانفصال لحكمة املتها الظروف والتجربة عليهما فحفظ للشاعر توازنه وحال دون التخبط الكبير بدأ يفقد مفعوله شيئاً فشيئاً- لسبب ولاخر، ومن جهة اخرى- لأن الشاعر لا يستطيع ان يخدع نفسه مدة طويلة ولا بد من ان يعتمل الامر في نفسه، زد على ما ظهر في الجهة الاخرى من عوامل الاشعار بالانفصال وعوامل الاثارة...

ممثلاً مرة في إهماله لدى المكرمات، ومرة في تقديم غيره عليه ممن يراه دونه موهبة ونضالاً وأشياء أخرى.

واذ بدأ الاختلال يفعل فعله أضطربت نفس الشاعر وتكدرت رؤياه فلم يعد يأتي من الشعر بما كان يأتي علواً وعمقاً .. بعيداً عن الصراخ والخطابة والإنفعال المطلق...

اجل ... فبعد ان ازيح زيد على ما لم يسم فعله لان الازاحة حصلت وليس من المنطق ان تعزى اسبابها كلها الى شخص بعينه ... وانها كلما تمادى الزمن اخلّت بتوازن الشاعر ولم يعد بإمكانه المغالطة... فلا يكفي ان عموم القراء لا يعلمون السر او انهم لا يهتمون للسر... فما قيمة ذلك اذا كان هو نفسه يعرف السر جيداً، ولئن نجحت الحال على ظاهرها حيناً، لا يمكن ان تنجح كل حين... وحتى ترشيحه اديباً ثورياً في الجبهة الوطنية لا يدوم مفعوله طويلاً.

ثم من قال ان عموم القراء ظلوا على جهلهم السر، ان من بين العلماء بالسر من لا يروقه كتمانه ومن يريد ان ينتفع بوقوع الانفصال الى ابعد حدود الانتفاع والا فما الفائدة..؟ ويقابل هذا الجانب من المأساة جوانب مختلفة تدخل كلها في معنى المأساة منها التخبط في المسيرة، ومنها الاستعداد لتقبل غير الصحيح على انه صحيح، وفهم الامور على غير حقيقتها ثم لا يصعب على من وقع هذه الواقعة ان يتخيل ما لم يكن... وان... وان.. وله من كيانه القائم على كتلة الاعصاب ما يثير فيه الوساوس من كل نوع.

لقد كانت فجيعته كبيرة جداً كيف لا وقد اطاحت بأعلى مثله وزعزعت اوطد اركان معتقده.. وتقول- واقول- هذه اشياء يمكن ان تكون شخصية ، وموضوعنا بدر شاعراً واقول: ان الشخصية فيما نحن فيه والشعرية شيء واحد، واذا كان في الامر نقاش ، فإن أي نقاش لا مكان له بصدد بدر. ان الذي هو عليه من حساسية مفرطة ومن انهيار المثل في عينيه ادّيا به (بعد مدة الصمت والمغالطة) الى ظلام لا يرى خلاله طريقه ولا يميز ما يضره وما ينفعه، ومن كان على هذه الحال صعب عليه ان يكون كما كان، ومن لم يكن كما كان صعب عليه ان يكون شعره الجديد على مستوى الشعر القديم وعلى اطراده في الجدة والابداع.. والسعة والعمق الانساني.

وكلما ازداد التوازن اختلالاً ولا بد له من الازدياد اشتد الظلام وتشابكت السبل واهتزت الاعصاب، ان الرياح اقوى من ان تحتملها. ثم، ان ضحى حزب بشاعر وكان لهذا الشاعر رصيد كبير لا يمكن ان ينام عن الشاعر الآخرون انه صيد سمين اصبح في متناول اليد ولا بد من صبر وتخطيط وإلا فليس معقولاً ان يبقى بدر حيث كان، وحيث كان يتمنى له الحزب المفارق. وها هوذا

موظف في الدولة التي لا يعترف الحزب بشرعيتها ويعمل جهده للاطاحة بها والتأليب عليها والتشهير بها، والموظف بحكم ارتباط تابع لحكومته واذا كان مثل بدر كان اكثر من غيره حرصاً على هذه التبعية، لا لان بدر القديم لان ذلك القديم كان مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل هدف او مبدأ حسبه كل شيء في الحياة واغلى شيء. الم يفصل وهو طالب في دار المعلمين العالية؟ الم يفصل وهو مدرس؟ الم يتقدم المظاهرات المعادية للدولة؟ الم ينظم الشعر الثائر ويقدمه بالالقاء الثائر؟ الم.. الم.. ؟؟... ولكن لانه بدر الجديد الذي فك ارتباط بمثلثه، وحلت به خيبة كادت ان تكون انهياراً لولا حكمة مؤقتة ومغالطة محدودة الامد، بدر الذي لم يكن في مأمن من المنافسة والمناورة وبدر الذي سجن وشرد وجاع، فلم يشفع له ذلك حتى بات من لم يسجن مقدماً عليه ولم تكن المسألة مسالة سجن وتشريد فقط وانما هي مسالة الشاعرية والاعتداد بالشاعرية وكأنها وحدها مما لا يجار عليه في الحكم، فكيف اذا لم تكن وحدها؟ انه الآن في مهب الريح وانه مستعد للارتماء في أي حضن مفتوح مرة في البحث عن راحة ومرة للانتقام من عزيز ومرة ومرة. ولم ينم الآخرون انهم بالمرصاد ولا تقع اساليبهم تحت حصر. انه موظف غير مستعد للتضحية بوظيفته مصدر لقمة عيشه... ولم يعد لديه ما يضحي بلقمة العيش او العيش نفسه من أجله... والدولة دولة نوري السعيد فيها الالوف من عراقيين وغير عراقيين يخدمون الباطل ويخططون لاصطياد الخائبين وتمتد الشباك لبدر من داخل العراق وخارجه... ويقع ولم يكن على جهل تام مما يحيق به وينصب له... ولكنه لم ليكن ليأبه للعلم، ولعله لا يجد مانعاً من الوقوع في الشبك – على الا يسير في الشوط الى آخره... وانه لا يستطيع ان يسير لان اشياء كثيرة تمنعه . منها انه بدر شاكر السياب على أي حال.

" .... عاد الطاغية السعيد الى تسلم زمام الحكم مباشرة مستنفراً كل فصائل الرجعية والخنوع لاحكام قبضته الارهابية وعقد حلف بغداد وحل المجلس النيابي...."(15)

وبدر موظف في حكومة نوري السعيد... ولو حدث هذا قبل 1952، او قبل 1954، لثار بدر ولكانت له مطولات من الطراز الذي يعرفه خيراً من غيره... اما الآن... فالامر يختلف. ولمن؟ ولماذا؟ وكيف؟ ... "كتب عن قضايا قومية عامة لا تستتبع مسؤولية شخصية (الجزائر، فلسطين، المغرب العربي) بحيث لم يجد الشاعر حرجاً في ان يجمع بين هذه القصائد وبين ان يكتب في مجلة رجعية او ان يمتدح مشاريع الحكومة السعيدية..."(16)

وكلما سار في هذا الطريق ... وعرفت عنه المداهنة والمنافقة اشتد عليه الجانب الثاني من المأساة...

ان يخرج من حزب قد يكون مأساة ... ولكنه ليس المأساة كلها اذا بقي خارجه في ابداعه الشعري كما كان داخله وكما كان قريبا منه محسوباً عليه... وليس المأساة كلها اذا بقي في الناس وطنياً وبقي شاعراً مبدعاً ... ولكن المأساة تطبق عندما يدير له الناس ظهورهم ويمطون عند ذكره شفاههم، عندما ينشر فلا يقرءون له .. ولا يسمعون صوته... ولا يعجبون به... واذا كان قد وجد عند غير هؤلاء الناس تقديراً وجاهاً ومالاً، فهو– قبل غيره– علم تفاهة ما يجد، انه

شاعر وليس تاجراً، ان مجده في الابداع ولدي من يهتز للابداع.. وليس وراء المنضدة او عبارات زائفة من التقدير. وهذا الجانب القاصم من المأساة مزدوج... في بلد كالعراق، الاول ان ينصرف الناس عن الشاعر لما آل اليه من رداءة أو انه لم يعد في مستوى ما كان قد عودهم، والثاني في مبالغتهم بالانصراف اجاد ام لم يجد، فاذا جود بعض الشيء حرموه من كل شيءوأذا سقط نزلوا به اكثر من مهوى سقوطه... ولا يقف الانصراف عند حد... وانه لديهم ذو فعل رجعي... فلم تعد (المومس العمياء) تلك المومس العمياء، ولم تعد (انشودة المطر) انشودة المطر وما جيكور إلا قرية ضائعة وهل تستطيع يا بدر شاكر السياب بهذا الحاضر ان ترفع من شأنها ....؟...

واذا كان الشاعر المجابه بهذا "الصدود" كبدر في حساسيته المفرطة، ومجده الذي رآه امس باذخاً وصار يطمح الى ماهو اعلى و اعلى... كان هذا الجانب من المأساة ندا للجانب الاول وزيدا... ان العراق لا يرحم.... وليست المبالغة علمية ولكنها أذا وجدت ما يسوغها وجدت ما تدفع به عن نفسها.

ويحل الرابع عشر من تموز 1958... فلا نسمع من بدر شيئاً يذكر، وليس طبيعياً ان نسمع، ولو سمعنا لما سمعنا جيداً... فقد كان الرجل في طريق وجاء 14 تموز من طريق آخر. ولو جاء قبل 1954 لكان منبع الوحي صافياً ولا نبجسس عن الشعر المتدفق الرقراق... فأضيفت الى (انشودة المطر) انشودة تموز...وتلازمت الانشودتان تشد الواحدة من الاخرى على غير فجوة سابقة او جفوة لاحقة... لا، لا لم يعد بدر شاعر تموز او الشاعر الذي يقطف ثمرات تموز لقد انتقل الفار الى من لم يكن من تموز- في جذره- بشيء يذكر او يستدعي هذا التمجيد كأن المسألة مسألة حزب قبل أي اعتبار، ويدخل في هذه السألة المقدرة على استغلال فرص الشهرة.

ويتنادى الادباء الى "اتحاد" يضمهم... ويعين مساء لانتخاب الهيئة المؤسسة ويحضر عدد غفير... ويحضر بدر... وتجري العملية ولم يكن بدر بين المنتخبين ولا قريباً منهم.

لا شك في ان جهة- او اكثر- أعدت للاجتماع، ولا يبعد ان جهة الحزب الذي كان ينتسب اليه بدر يوماً ما ومعها عدد من الوطنيين والتقدميين لم يريدوا لبدر ان يفوز... وربما نص بعضهم في دعواته على ابعاد فلان وتقريب فلان، هذا ممكن... ولعله وقع... ولكن بدراً الذي رأيناه في حكومة نوري السعيد يصعب ان يفوز باسمه... ويصعب ان يتناغم نفسياً مع المجموع- لقد كان "المسكين" في حالة يرثى لها بين السكر القيئ..! وما كان يعد نفسه من قبل لمثل هذا اليوم بهذا الشعور بالتأخر عن الركب...

أدرك بدر ان 14 تموز ليست له... وانه ليس لها... فكان ذلك كالصاعقة عليه حتى لم يعد يدري ماذا يريد، وكيف يقول... وكيف يكتب... وأين يولى... ونشر واجتمع... واستقر في الموانئ... موظفاً في معية الشاوي.

ولم تكن مقالاته في جريدة الحرية لترفع من شأنه ولتخليه من المسؤولية... فيما صح منها وما لم يصح ثم كانت... وكانت... مجلة شعر، وجائزة مجلة شعر لعام 1960، وصدور "انشودة المطر" عن دار مجلة شعر... ولا ادري في أي مرحلة كانت

(القوميين السوريين) ولكنه ترجم لفرنكلين اكثر من كتاب منذ 1961.

كان المسكين يضطرب في سيره... كمن انحدر من قمة جبل صخري وعر... لا يملك لحظة هدوء للتفكير في الامر واختيار السبيل الصالح والرأي الصائب..

ثم كانت الدعوة الخاصة الموجهة اليه بالذات والتعيين من مؤتمر روما، المسمى "مؤتمر الادب العربي" فنقض في محاضرته عن الالتزام في الشعر الكثير مما عمل على بنائه.

وكان في طريقه الى بيروت– قصداً لها او محطة قبل غيرها– اذ مر باتحاد الادباء العراقيين، ولا ادري لماذا وكيف؟ ولكني شهدته في رعاية اصدقاء له اذكر منهم رشدي العامل (17) يحوطونه بالبر ويلاطفونه كأن شيئاً لم يكن... ويقدمون له ما طاب من متهيأ للمأكل والمشرب.. وجرى حديث عن الادب والادباء واهدى له الاتحاد مجموعة من مطبوعاته في مقدمتها مجلته "الاديب العراقي"...

ثم ودع... وبلغ بيروت... وهناك وجهت له الصحافة اسئلة... اذكر منها سؤالاً عن المجلات التي تصدر في العراق... فعدد وعدد ما لا يستحق الذكر ومر كأن ليس هناك "الاديب العراقي"...

وقد تكون هذه مسألة عابرة... لكنها ذات دلالة... في المغالطة والكذب... واشياء اخرى. لقد كنت اريده – حتى تلك اللحظة– ان يكون اكبر مما كان.. ولكنه لم يرد لنفسه ذلك... ومن كان كذلك صعب عليه الابداع الشعري... وشلته العقدة عن أي انطلاق... لانها تجره كلما اراد النهوض، وتحرف طريقه نحو ما لم يكن يريد... وفي المجلات اللبنانية ما يغري... وكانت اشياء لا نعرفها... تسيء اليه وتسر المنافسين المتضيقين من وجوده... الذي لا يسمح لهم خوفهم من ابداعه الاول أن يطمئنوا الى نهايته...

ثم كانت كلمته في مؤتمر روما... ووظيفته في الموانئ... واشياء لا نعرفها... تسيء اليه وتسر المنافسين المتضايقين من وجوده... الذي لا يسمح لهم خوفهم من ابداعه الاول ان يطمئنوا الى نهايته...

ثم كان مرضه العضال – مسكين أبا غيلان! ما كان المعجبون بك لترضيهم هذه الحال... ولا يتشفى بمرضك الا موغل في الحقد... ولكنك اسأت الى نفسك كثيراً وكان عليك منذ البداية ان تدرك السر... ولو ادركت أكنت تقوى وأنت على ما انت عليه من اعتزاز صادق بنضالك وابداعك؟

وهنا تحت وطأة هذا المرض العضال مصحوباً بوطأة الحاجة، مصحوباً بسلسلة من آلام جرها الناس عليه... وجرته السياسة.. وانغماسه فيها ايجاباً وسلباً... رأي أن لن ينفعه أحد، وينفعه شيء مما كان فيه... بل ان الالم ليبقى الوجه الوحيد الذي يلازمه ويشغله حتى يعزله عن العالم... بما فيه من خير وشر... ويتذكر – اذ يذكر– الشر وحده... اما اذا تذكر اطفاله... وزوجته – فقد عادت ايام المرض زوجته – وكثيراً ما تذكرهم، فان في ذلك عاملاً آخر يزيد في عزلته عن العالم... وفي اغراقه في فردية مطلقة... قد تأخذ احياناً قليلة صفة العموم... ولكنها تبقى فردية –على اي حال. انه مشغول بنفسه، وبنفسه فقط. واذا فقد في عالم المادة كل ملاذ وكل سند وتقطع بيده منه كل سبب وكل وتد... وجد فيما وراء

الطبيعة كل ما يريد من عوامل تريحه حياً وتريحه ميتاً.. فيتوسل ويتقرب وتشفع..

وشعره في هذه المرحلة كثير... نظمه وهو طريح المستشفيات في البصرة وبيروت ولندن والكويت.. وقد تضمن اكثره "المعبد الغريق" و"منزل الاقنان"... وشناشيل ابنة الجلبي واقبال..

وشعره عاطفة والم وضعف... وذلة من كان يريد ان يعيش.. وان يحقق مطامحه... وان يكون عزيزاً... ومعاني من الموت والحياة وما بينهما... حزينة كئيبة.. تعتصر النفس...

واراد بعض النقاد ان يرفع اشعار هذه المرحلة كثيراً وربما بلغ "المومس العمياء" و"انشودة المطر".. او زاد... والرأي جدير بدراسة جادة. ولابد من أن يكون الصفاء الجديد سراً في التجويد الجديد.

انها وثائق نفس شاعرة كبيرة تحتضر فتطول مدة الاحتضار حتى لتبلغ هذه النفس من الجزع والهلع والضعف درجة تقترب من الهذيان في ان لم تكن الهذيان نفسه.

ويموت بدر في الرابع والعشرين من كانون الاول من عام 1964 بائساً في الكويت... ويأتي تشييعه – اذا جاز أن يسمى تشييعاً– اشد بؤساً... ومضى في صمت... وران عليه صمت... ولم يكن ذلك طبيعياً، فبدر ليس ميتاً اعتيادياً... كباقي الاموات..

وتحل الذكرى السادسة لوفاته فيعد العراق له احتفالاً كبيراً في البصرة ويدعو ادباء عرباً من خارج العراق ويزور واياهم جيكور... وتلقى الكلمات... ويقام تمثال لائق به... والتف حوله – لدى ازاحة الستار– جمهور كبير من الادباء... بينهم عدد لا بأس به من اعضاء حزبه القديم... وفيهم... وفيهم من يعلق على غير ظاهر الاشياء، ومن يتندر...

وفيهم من لم ير نفسه مرتبطاً بهؤلاء او هؤلاء... ولكنه لم يستطع ان يقف ازاء بدر وجهاً لوجه دون تدخل الشوائب... وكلما اراد ان يراه كما كان صاحب "المومس العمياء" و"انشودة المطر"... لم يستطع... ان الشوائب التي تحجب الرؤية كثة كثيفة وانت مسؤول عنها يا ابا غيلان... صحيح انك جررت اليها جراً او انك –بمعنى ادق دفعت اليها دفعاً... واذ يخفف هذا من المسؤولية فانه لا يعفيك منها...

وليس مصدر غيظنا انك ضعت، فقد ضاع آخرون...ولكن لان هذا الضياع الذي اصابك عكر فيك معين الشعر العالي وكدرالرؤية امامك والا فمن انت لولا شعرك؟!.

ولم يبح هذا بهذا ... لانه يحس بالجور في حكمه... ويخشى لو انه نطق بشئ ان يأتي هذا الشئ ممرغا بالشوائب فلا يكون صحيحاً ويندم عليه... لابد من صبر ... فالزمن في مصلحة الشاعر... وستصاغر الشوائب ويتجلى الوجه الحقيقي...

ان بدرا وقع في الفخ...فاضطرب وهو في المصيدة ... ولا تشفع له الحاجة بقبول مازاد عن الحاجة وبطلب هذه الزيادة من ايدٍ هو يعلم قذارتها... لان اقل ما يؤيد اليه ذلك هو تعكير النبع وتكدير الرؤية... ولكن شيئاً سيكون بجانبة... وليس هذا الشيئ هو المسؤولية التي تقع على من كان السبب... وانما هو انك لا تستطيع ان تعد بدرا خائنا بالمعنى الرسمي للكلمة، وربما رأيت انه ظل في جوهره كما قال عام 1953 او غير بعيد عنه:

أنـي لاعجب كـيف يمكـن ان يخـــون الخائنون!

أيخون انسان بلاده...

انه لم يخن بلاده ولم يزاول العمالة ...ولم ...ولم... وكـان الصـائدون يحـومـون حـوله بـالمغريـات من كل نـوع...ولكنـه ما يكـاد يقع حتى يقـوم... ولكن المصـايد ظلت تطارده... وهـو ما يكـاد يخرج مـن واحدة حتـى يدخل في اخـرى...ولـكنه لا يـوغل ... كـأن شـيئـا يرده... ولم لا...

وفي ذات يـوم ...يـردد مـنشـد من اذاعـة بغداد:

الـريـح تلهث بـالهجيـرة، كـالجثـام، علـى الاصيل

وعلى القلوع تظل تطوى او تنشر للرحيل

الـشمـس اجمـل في بلادي من سـواهـا، والظلام

– حتـى الـظـلام – هنـاك اجـمل، فهـو يحتضن العراق

ان شـاعـرا قـال مثل (غريـب على الخليج) ومثـل (انشودة المطر) ومثل(المومس العمياء) قـال مـا يكفل له علـى الـزمـن البقـاء، وكلمـا تمـادى الـزمـن خفت درجـة المـؤاخـذات السياسية... ووقف الـنـاقد ازاء النص العالي يتـأمله ويتملاه...ولا قـيمة للـوطئ من الاقوال والافعال...

وهكـذا يـرتفع بـدر مجـددا ويفـهم علـى حقيقته موضوعيا...

" وسار الى قبره

ليولد في موته من جديد"

انما تبقى الحسرة في ان الشوائب كدّرت النبع فما اعطى كل ما كان يراد منه... أكان من المعـقول الا يـرتفع بـعد ال ٥٤ لـو لم يقع ما يقع؟

يـصعب ان يقنع المـرء نفسه بـذلك... ومن هنـا تتضح المـسؤولية ويستـحيل اللوم نـدماً ...ومـع هذا ...فلـيس قلـيلاً ان تصل الـى ما يجب ان تبدأ به نظرتك الى الشعر بدر...

الا ان السياب ظـاهرة حيـة وعلامة بـارزة في الـشعر العربـي الحديث ولانقاش في ذلك فقـد اعتـرف به معـاصـروه ودارسـوه ومن (معجزة) الـسياب انه نال هذا الاعتراف على دائرة واسعة من اناس لا يفترض فيهم كثيرا ان يعترفوا لـه ... وربما عـاد ذلك – زيادة على موهبته– الى ان تطوره طبيعي وسليم.

ويكفي الـسياب دلالة على اصالته اصالة جديدة انه بقى محافظا على مكانته حتى بعد ذهـابـه، وحتـى لـدى الـذين اختـلف معـهم واختلفوا معه، وآذاهم وأذوه..

وقصـة الاذى هـذه طـويلـة كـان حسـين مردان يـروي طرفـا منها.. وقـد ذهب حسين مـــردان... وبقـــى علـــى الاخـــرين افـــرادا وجماعات ان يتصـارحوا...وان يقولوا الكلمة التي يعرفونها خـدمة للحقيقة والا فان الذي كـان كان ...وان الحقيقة لابد ظاهرة يوما ما فـتفـضح معهـــا الـنـسبـة الـصحيحـــة من المسـؤولية المترتبة علـى كل من الاطراف الثلاثة.

وقـد اسـهم مع زملاء آخـريـن له في بعث حـركة شعـريـة جـديدة كـان لهـا عطاؤهـا وابعـادهـا... وهم كثيـرون، تـستطيع ان تسـميهم الـرواد... وقـد كـان احـسنـهم وطليعتهم وظل احسنهم وطليعـتهم... وخرج اسمه عن حدود العراق على وجه طبيعي بما هـيأ له الابـداع من وجـوه الذيـوع، ولم يـلجأ الى اية وسيلـة رخيصة لانه كـان يرى شعره اعز من ان يحتـال احتيالاً سـوقياً لـنشره او ترجمته أو دراسته.

وفي كلمة (زملاء) شيء من المجاز... وصحيح ان بدراً كان مقدراً من زملائه... الا ان منهم من لم يكن موقفه مشرفاً. ولئن انتفع هذا المستثنى بقشور من الحياة الدنيا، ان التاريخ سيحمله ما جرى على مصدر ابداع بدر من كدره.

وقد اعطى زملاء بدر للحركة الشعرية ما لاينكر وان لم يستطيعوا الاضاءة كما اضاء والتوهج كما توهج ... ثم لم تكن لهم موهبة كموهبة بدر. والا فما يأتي الشعر العالي بالارادة والرغبة... فما كاد هؤلاء ان يزلوا على اصالته حتى اضطربت بهم الاقلام فمنهم من وقف حيث هو ومنهم من وقع في افتعال سخيف ومنهم من نضب معينه فظل يغرق في حفنة ماء...ومنهم ...ومنهم.

والحركة –على الرغم مما قيل ويقال فيها –مباركة لانها دلالة حياة وهي تمد العربية بنسغ من الحياة وطاقة من الشباب ...واذا كان قد استسهلها قوم صغار او افتعل فيها وتكليف قوم يرون انفسهم كبارا فما ذاك من عيوب الشعر الجديد قدر ماهو عيب في النفوس والتربية التي افسدت هذه النفوس... والقراء الذين افسدت اذواقهم او لم يكن لهم ذوق منذ البداية.

واذا جاء الجديد عاليا كشعر بدر منبثقا من طبيعة الاشياء ودلف الى الحياة في هدوء... وجد المعجبين...

اما أولئك المفتعلون فهم اصل البلاء. واذا جازت لعبتهم حينا فلا تجوز دائما ، واذا نجحت الاساليب الخارجة عن طبيعة الادب والنقد يوما فلا تنجح كل الايام...

وطبيعي ان يهاجم المهاجمون هؤلاء...ولكن ليس من الطبيعي تعميم الهجوم... وليس من الطبيعي ان توصف حركة التجديد بالشعوبية... ولا ادري – وادري – من اين اتينا بهذا المدلول الفريد للشعوبية... اسمى الفرنسيون، والألمان، والانكليز والروس ...التجديد شعوبية؟!

واذا تعرض بدر شاكر السياب في حياته الى مزاحمة شاعر او اكثر.. فان جيلا من الشباب ولد بعده وهيأ للقصيدة الجديدة خطوة جديدة... الا ان هذا الجيل كان من التعجل بحيث لم يوئد خطوته... وكان من سوء الفهم بحيث بدأ اول ما بدأ يتحدى السياب... لقد كان السياب مرحلة... اما نحن فقد اجتزنا تلك المرحلة...

لايسر السياب ان يكون عقبة في طريق احسن تمهيده... ولا يسرنا ان تقف الاجيال حيث وقف ولكن لا بد من الصبر والتواضع... والتعلم ... والموهبة.

– شكرا للسؤال ... وارجو الا اكون قد اطلت في الجواب ... والا فاني تركت القلم سجيته ليسجل ما في ذهني ونفسي لوجه الحقيقة ودعوة لتقصي هذه الحقيقة. ولكم يسرني ان تأخذ الاراء الواردة اهميتها في البحث العلمي..

وان ينبري الذين يعرفون الحقائق عن كثب الى اعلان ما يعرفون في صراحة واخلاص وفتوة...بعيدين عن المغالطة والمماحكة فقد يضعون نقاطا للحرف ويرسمون حروفا للنقاط –انهم مسؤولون.

وليست هذه الاراء مهمة لذاتها، فلو كانت في غير بدر لما هدرنا الحبر والورق والوقت من اجلها ...

ولكنها مهمة لارتباطها المباشر بالشعر... وبالابداع فناً ورؤياً.

الهوامش:

1- ينظر عبد الجبار عباس –السينما بغداد 1972 ، ص 26 ، 29.

2- صدر بغداد عام 1972 عن دائرة عبد الجبار عاشور. وفيه قرأ من تاريخ 1946 وهذا يبدو التاريخ.

3- ينظر مجلة الدب 1954، حزيران ، ص 69.

4- ينظر) غريب على الخليج(في ديوانه) انشودة المطر(الصادر ببيروت عام 1960 ص 11 – ***17.***

5- قرأ سحر في مسقط علم المسلم من الجواهري.

6- بيدعنى ليدفيف.

7- بيدعنى طفيف.

8- الداب، السنة الولى 1953، العدد الثامن ص 74.

9- الداب، السنة الثانية، حزيران 1954 ص 18. – ***19.***

10- ينظر عبد الجبار عباس ص 38، 39، 31، 32، اذ جاء على ص 47 ***48*** – أن المومس العمياء وحيد القرية والسلحفاة والطفال.. كتبت جميعا خلال مرحلة المنامة التي سميت بسنة 1952. واعاد الرأي مرة اخرى في ألفية أقل. ويقول عبد الجبار في)السطور(التي عرف بها السياب في)مجلة الذاعة والتلفزيون(الخاص بدر شاكر السياب بغداد 1969 ص8 :) سنة 1954 صدرت له المومس العمياء وقد كانت بداية انصاله من احد الناشرات السياسية المعروفة(–اسمت بهذا عنوانا الذي صدر –الف على بعض عدد من الناوارث والوقائع الواردة في قصيدته هذه.

11- كما فعل عبد الجبار عباس.

12- في ظني انها لم تكن قد نشرت. ينظر القصيدة كاملة في ديوان)انشودة المطر(، باب انشودة المطر، بعنوان)النهر والموت(ص 141- 144.

13- لم يقف على هذه القصائد...

14- اني وان لم تهيأ لي الفرصة لقراءة كتاب السنادباد عبد الجبار عباس عن)السياب(كاملاً، وقراءة دراسة، فأن ما قرأته فيه يدعني على ان أصر على قراءة ولو سريعة للسنوات التي تلت فيها النصال بدر أو بشاكر أو ضعفها هذا النصال.

15- عبد الجبار عباس ص 93.

16- عبد الجبار عباس ص 94.

17- ينظر كلمة رشدي العامل في مجلة الذاعة والتلفزيون.. وفيها لمحة دور سعدي يوسف في القاء.

من الدكتور صفاء الحافظ
إلى الدكتور علي جواد الطاهر❖❖

عزيزي الدكتور علي جواد الطاهر،
تحية طيبة

قبل اسابيع حمل الي البريد عدداً يتيما من مجلة الأقلام (العدد التاسع – 1973). بعثت به السفارة العراقية مشكورة. تصفحته بشوق مغترب وقرأت أسم السياب فأسمك. ومن الطبيعي أن أبدأ بما كتبت أنت وان جاء في آخر الصفحات. أحببتك صريحاً منذ الثانوية فباريس وما بعدها.. قدرت صراحتك فيما تقول وفيما تكتب، وان اختلفنا في الرأي أحياناً.

في كلمتك عن الشاعر السياب صراحة نحن بحاجة ماسة اليها في عراقنا الذي (لا يرحم) – على حد تعبيرك.. نحن بحاجة إلى تقييم الكثير من الحوادث التي مرت وكأنها زوابع نار.. أنجبت أبطالا خالدين. ولكنها حطمت العديد من المناضلين (ويا للخسارة!) فكيف يقوى عليها الناطقون بالكلمة الجميلة؟

في آخر كلمتك تدعو من يعرفون الحقائق عن كثب إلى(إعلان ما يعرفون في صراحة وإخلاص وفتوة.. بعيدين عن المغالطة والمماطلة. فقد يضعون نقاطاً للحروف ويرسمون حروفاً للنقاط – أنهم مسؤولون.. ولولا هذه الدعوة الخالصة لما أقحمت نفسي في عالم الشعر والأدب وأنا من قرائه لا من (صناعه) ..ولولا معرفتي ببعض الوقائع التي كانت محور حديثك لاكتفيت بالاطلاع على أحكامك البتارة دون تعليق.

علاقتي بالموضوع تدخل من باب مجلة (الثقافة الجديدة) ، التي ساهمت في تأسيسها عام 1953 . ها انا أذا أذكر لك بعض الوقائع علها تكون مفيدة في توضيح نقاط أردت معرفتها: فكرة المجلة قامت في باريس اعجاباً بمجلة (النقد الجديد) التي يصدرها الحزب الشيوعي الفرنسي. قامت المجلة بامتياز للسيد مهدي الرحيم . فالتف حولها عدد من المثقفين التقدميين – عدد محدود بسبب الظروف السياسية الحادة – منهم– د.صلاح خالص وإبراهيم كبة ود.فيصل السامر ود.طلعت الشيباني وجاسم الرجب وصاحب حداد ونجيب محي الدين وآخرون لا تحضرني أسماؤهم اللحظة. لقد كانت (الثقافة الجديدة) . ومازالت ، مجلة حزب لا مجلة أشخاص. ومن هنا تبرز المسؤولية التي ركزت عليها انت.. وفي زحمة العمل في العدد الأول ، وفي غرفة بائسة تقع على شارع الرشيد قرب الشورجة، رأيت شابا خجولاً قدمه لي د. صلاح باسم (البياتي) . وبطبيعة الحال كان من خطة المجلة العناية بالشباب.. قال د.صلاح أن الأخ البياتي يستطيع أن يساعدنا في تهيئة القسم الادبي من المجلة. الواقع أن عدد الذين كانوا يساهمون في تهيئة مواد المجلة وطبعها كان محدوداً. كنا في دوامة من العمل المتشابك، الثقافي والسياسي. في فترة خف فيها الإرهاب قليلاً. فوجود شباب يساعدون مفيد من وجوه عديدة. أذن أصبح للدكتور صلاح

مساعد في تحرير القسم الأدبي في شخص الشاعر عبد الوهاب البياتي. وصدر العدد الأول ونفد في بغداد خلال يومين. وكانت فيه للسياب قصيدة، وصدر العدد الثاني، وكان شعرالسياب فيه أيضا. ثم سحب امتياز المجلة .. وحرر بعض أساتذة الجامعة مذكرة احتجاج كان لها دوي في حينه.. لم يكن هناك في هيئة تحرير المجلة أي اعتراض أو تحفظ مهما كان بشأن السياب..بالعكس.. وجاءنا من ينقل عتباً من بدر..قلنا للرسول: أن السياب شاعرنا. لقد نشرنا له قصيدتين وللبياتي قصيدتين. فلم الحساسية ثم ليس في ذهننا ما يغيظ السياب. وبعده ارسل لي السياب، ولا أتذكر مع من، كراساً صغيراً يحوي قصيدة رائعة ربما كانت (المومس العمياء) ذهبت إلى المجلة وأعطيت القصيدة إلى المسؤولين عن قضايا الشعر ورجوتهم كتابة تقييم في العدد القادم. حصلنا فعلاً على امتياز جديد باسم السيد عبد الرزاق الشيخلي. وصدر العدد الثالث وليس فيه كلمة للسياب. وفي اليوم الاول من صدوره للأسواق وردنا خبر غلق المجلة .. دخلنا في دوامة جديدة في جو لا يسمح حتى بالتفكير بما نشر وبما لم ينشر. لقد جعلنا من غلق (الثقافة الجديدة) محورا لمعارضة صارخة في صفوف المثقفين .. وكانت الكلمات حادة في مجلس النواب عن (المجلة الحمراء) (الجمالي).. و(المشانق) (عبد الرزاق الشيخلي) .

نسيت أن اذكر انه خلال الفترة الواقعة بين صدور العدد الثاني والثالث صدر ديوان (اباريق مهشمة) للبياتي ومن منشورات الثقافة الجديدة. واعتقد أن السياب فسر البادرة باتجاه سلبي.. وهو الرجل الحساس جدا. في وقت أهملت فيه قصيدته الرائعة. ولم تشر إليها المجلة بشيء. ربما لأسباب ذاتية لا تمثل سياسة المجلة والحزب.

بعده كانت انتخابات جمعية المعلمين ومؤتمر حركة السلم الأول والانتخابات النيابية الأولى والثانية.. ثم عودة نوري السعيد. ثم التوقيف والسجن واسقاط الجنسية ومعسكر السعدية .. وكان عبد الوهاب البياتي مع الركب. وغاب وجه بدر.

والواقع لو تيسرت في حينه للمجلة ظروف الاستمرار لامكن معالجة التقصير بيسر في اعداد لاحقة.. ولكن الحوادث كانت تتلاحق وتباشير حلف بغداد ظهرت بموجات ارهاب متلاحقة.

هنا في لايبزك. وقبل تسلمي عدد مجلة الأقلام هذا بيومين – يا للمصادفة – كان عندي عدد من الكتاب والشعراء الشباب. حدثني احدهم عن شاعر جيد من خريجي كلية الاداب (أو التربية) يمر هو الآخر بفترة اضطراب وضياع. ولكنه ما زال شاعراً يعتز بهويته الوطنية والتقدمية. انقطعت صلته بحزبه لظروف قاسية مرت ..قلت لضيوفي ما معناه: يجب إلا نكرر ما حدث لبدر السياب، يجب أن نسلك معه سلوكناً مع الشاعر الكبير وأفضل. كان بإمكاننا أن نساعد السياب عام 1953– 1954 .. أن كسب عشرات المناضلين سهل ، ولكن خسارة شاعر ثوري أمر لا يغتفر. وقصصت عليهم ما ذكرته لك أعلاه. وأضفت ما يلي – توضيحاً للحقيقة التي لها وجهان: ما علينا وما على الشاعر.

كنا في لبنان مشردين.. وتجمعنا في أول 1955: عبد الجبار وهبي (أبو سعيد) وكاظم السماوي وعبد الرزاق الشيخ علي

وغالب طعمة فرمان وعبد الوهاب البياتي وآخرون . كنا نلتقي يوم الأحد في (ضهر الصوان) عند أبي سعيد، ويجري حديث كثير يحتل الأدب والشعر الموقع الأول فيه. حدث أن هاجم احد الحاضرين بدراً، وكنا عند النبع، هاج عبد الرزاق الشيخ علي بشكل مخيف ورد الهجوم وأشاد بالسياب شاعرا وطنياً. وكنا من رأي رزاق. حدثني ابو سعيد بعده عن بدر وقال انه يعرفه من البصرة (ابناء بلدة واحدة)، وان للسياب فضل كبير على الشعر، وقد ساهم بكلمته في تحريك الجماهير خلال الوثبة ... الخ . وقال اذا سنحت لنا الظروف مرة أخرى علينا أن نحاول إعادة الصلة بالسياب (الزعلان). وفعلا ، وبعد فترة، وصلنا خبر دعوة السياب من قبل مجلة (شعر) لإلقاء محاضرة.. قررنا أن نبذل جهدنا لاقناعه بالعدول عن هذه المساهمة المشبوهة. ولكن جهودنا ذهبت ادراج الرياح كما يقولون. وبعده جاء السياب مساهما في مؤتمر الادباء العرب بدمشق. ربما في عام 1957 .. دعوناه وكرمناه ولم نتطرق إلى أي حديث يمكن أن يبعث فيه الحساسية أو الشك.

بالعكس ثمنا مساهمته في المؤتمر. كان ذلك في مقهى (الهافانا) في الشام، وكان بدر بارداً معنا .. ودعناه مع ذلك عند شركة نيرن للنقليات عائدا الى العراق. كان بدر يفتش عن ملجأ يلوذ به، وعن حركة سياسية يركن اليها، وعن وسيلة يعود بها ثانية الى الجمهور. ولكن في جنبه نفس ضعيفة مرتبكة. تريد ان تبقى في عليائها ولكنها تنزل احيانا الى فتات تقتات منه. كانت تصلنا اخبار مؤلمة عن اضطراب بدر وضياعه. ولكننا لم نفقد الامل ابدا في اعادته الى الجماهير بامل تحسين الاوضاع في العراق. وكان بدر ينحدر باستمرار بازدواجية هي التراجيدية بعينها.. وفي كلمتك تشخيص واف للطريق الذي سلك.. ولا اطيل عليكم الكلام ، حدثت ثورة تموز، وكنا في دار الجواهري في الاعظمية نتحدث عن اتحاد الادباء كلاماً اولياً، وجاء ذكر بدر مع الآخرين.. وفي الاجتماع الاول حضر السياب ولكنه انزوى في جانب من الحديقة وقد التفت حوله مجموعة.. تريد شاعراً علماً يمثلها في الاتحاد. حسنا ان يبقى حيث هو عن اصالة واخلاص. ولكنه في نفسه ، كان يرى مكانه.. معنا، تألت كثيرا وأنا أرى ذلك الشاعر الذي كان عملاقاً يجلس اليوم كئيباً في زاوية الحديقة وليس في وجه أي بشر منحته ثورة تموز للجميع. كان ينظر الينا بألم وخجل..ولم يكن سقوطه في الانتخابات نتيجة مؤامرة.. ولكن نتيجة انقسام حمل العراق الكثير..

وبعد، هل يكفي ما بذلنا من جهود.. وهل يوازي ذلك مسؤوليتنا نحن التقدميين ازاء بدر الضائع؟ كلا.. تقع علينا بعض المسؤولية .. ربما اكبر من مسؤولية بدر عن نفسه. ان بدر فرد.. ونحن حركة.. أن بدر أديب .. ونحن نفكر بمنطق السياسة البعيدة ..كان بدر شاعر الجماهير.. فاذا ضاع – كما ضاع غيره – فعلى الجماهير ان تعيده اليها.

في ظروف العراق القاسية –ياعزيزي– شهداء واموات، منهم من استشهد بالرصاص وتحت اعواد المشانق وفي المنافي.. ومنهم من مات اديباً تحت وطأة الأرهاب.. ارهاب الخصم .. وارهاب الحوادث. لم يستطع بدر ان يمسك بزمام

نفسه. وانحدر ثم انحدر الى حد الاسفاف –مع الاسف –وضاع شاعرا عندما قطع الصلة برحمه. ولكن ماهو واجب حركة كاملة ان تفعله لمساعدة شاعر علم كبدر؟ كان عليها ان تفعل أكثر مما فعلت.. وقد تنجح مع بدر أو لا تنجح، ولكن كان عليها ان تسلك معه كما سلكت مع غيره. لقد أوصى فهد الخالد رفاقه في السجن ان يهتموا بالجواهري. ولم تكن وصيته فهد خاصة بأبي فرات الكبير، بل انه نهج لم يحترم احياناً خلال فترات ارتباك صعبة.

أخي علي: لقد ركزت كثيراً في كلمتك على موقف شاعر اخر خلال فترة معينة. انني لا اتفق معك في هذا التحليل الذاتي وكان بأمكانك التلميح اليه، دون تركيز، لتبقى ضمن الاطار الحقيقي، الاجتماعي، والسياسي. الذي يلف الموضوع ويضع بدرا في المكان المناسب. ان التناقض الطبقي – وبالتالي السياسي– الذي خلق بدر شاعراً تقدميا رائعاً، هو الذي حطم بثقله اكتاف الشاعر الذي صعب عليه ان يبقى مع الركب منافحاً جبهة تنهار رغم شراستها.

وحتى ما يتعلق بصلة بدر بحزبه، ليس في الامر ما يستلزم اهتمامك الكبير.. حتى عام 1953–1954 ، أي الفترة التي تركز عليها كثيرا كلمتك، لم يكن هناك تحفظ جدي ازاء بدر. واذا لم يكن السياب عضواً في الحزب (وهذا امر اجهله) ، فهو على الاقل لم يكن خارج حلقة الاصدقاء. (عندما سافر الى ايران كان يحمل معه رسالة من الحزب الى احد العراقيين لمساعدته) واذا كانت المواقف الذاتية تؤثر فيه، كان عليه، وهو المناضل، أن يتجاوزها – كما تجاوزها غيره– بموقف وطني ثابت (هو الحد الأدنى المطلوب منه) وكان على الحركة التقدمية أيضا ان تتجاوز هفواته بموقف ايجابي ازاءه (وهو الحد الادنى المطلوب منها) لقد تنافر الموقف الذاتي والموقف الموضوعي في عراق متفجر.. ومات بدر منذ اواسط الخمسينات .. وما كان يجب ان يخسره الشعب مبكرا.. شاعراً للجماهير والحياة والحب.. واسلم لصديقك.

* مجلة افكار العدد الخاص / 1973 ، ص 101 - 107.
** الثقافة الجديدة العدد 48 / آذار 1973، ص 186- 192.

ترجمة نصوص

الوحدة في التنوع *

د. اتيليو بورون ❖
ترجمة: رشيد غويلب

أعطت الحركة الاجتماعية في أمريكا اللاتينية الأفكار الماركسية في القرن الحادي والعشرين آفاقا جديدة بخصوص العلاقة بين الإصلاح والثورة والمشروع الاشتراكي وفتحت طرقا لتحقيقه. في كتابه الموسوم (قراءة جديدة للاشتراكية، هل هناك حياة بعد الليبرالية الجديدة؟)، والذي ترجمه إلى الألمانية (انغو مالجر) وصدر في تشرين الأول عام 2010 عن دار نشر VSA في مدينة هامبورك الألمانية، يكشف، (اتيليو بورون) أستاذ العلوم في جامعة (بيونس ايرس)، عن خبرات جديدة في هذا الحقل و يتناول الإمكانيات المتاحة التي فتحت للسياسة اليسارية. في ما يلي ترجمة لمقتطفات مختارة من الكتاب.

في خطابه الشهير "سيعلن التاريخ براءتي" يعرّف فيدل كاسترو مصطلح"الشعب"، يعيدك النص إلى ماركس الشاب،الذي لا يتجزأ عنده تحرير البروليتاريا. لقد أعلن كاسترو القطيعة مع تقليد قديم جدا عندما قال:"عندما نتحدث عن النضال نفهم تحت مصطلح الشعب الجماهير الكبيرة غير المحررة،(....) التي خدعها وخانها الجميع، والتي تتوق إلى وطن أفضل وأكثر كرامة وأكثر عدلا، تحركها رغبة قديمة جدا في العدالة، لأنها عانت من وطأة الاضطهاد والاستصغار منذ عقود (.....) هنا في كوبا حيث هناك 600 ألف عاطل عن العمل و نصف مليون عامل زراعي و 400 ألف أجير و عامل صناعي و 100 ألف من الفلاحين الصغار و 30 ألف معلم و 20 ألف تاجر صغير و10 آلاف من الشباب المؤهلين مهنيا (.....) هذا الشعب (....) لا نريد أن نقول له: سنهديك شيئا، بل نقول: ناضل بكل قدراتك لكي تصبح الحرية و السعادة ملكك".

من هذه الكلمات نقرا مفهوما آخر للعامل الذاتي غير الطبقة العاملة. إن التركيز الشديد على الطبقة العاملة جلب لليسار الأمريكي اللاتيني أضرارا كبيرة وأدى إلى تجاهله لجماهير المزارعين الكبيرة وللهنود

الحمر (سكان البلاد الأصليين- المترجم) والفئات الفقيرة في المدينة والريف، وهذه الجماهير الواسعة تم تجاهلها من الرأسمالية المحيطة بها كما تم تجاهلها من قبل اليسار بفعل تأثيرات الثقافة الاستعمارية عليه. إن ما يكتبه كاسترو في النص أعلاه يمثل قطيعة مع الماركسية الكلاسيكية، وهو رؤية تلبي الرغبات الضرورية للجماهير المضطهدة والمستغلة وتدعو إلى وحدتهم في النضال التحرري.

إن الرأسمالية المعاصرة لا تضطهد منذ زمن طويل البروليتاريا الصناعية فقط، كما يكتب "فرانسوا أوتار" (باحث اجتماعي فرنسي- هيئة التحرير)، بل تجبر الأغلبية العظمى من سكان العالم للخضوع إلى منطق الرأسمال، الأمر الذي يجعل أعدادا هائلة من القوى الاجتماعية الفاعلة تجد نفسها بالضد من البرجوازية. تقلصت البروليتاريا الصناعية القديمة وتوزعت على كتل عديدة وحلت محلها الكثير من الطبقات والجماعات المضطهدة والتي هي، في ظل ظروف معينة، على استعداد للنضال.

لاشك في إن ذلك يعكس تطور الرأسمالية ويعكس أيضا هزيمة المشاريع التي أرادت أن تحل محلها أو تتقدم عليها، وبالرغم من ذلك فان مقاومة الطبقة العاملة لمنطق الرأسمال لم تكن بلا معنى، كما يكتب رالف ميليباند (ماركسي بريطاني- هيئة التحرير): " عندما توجد في بعض المناطق رأسمالية ديمقراطية ، ودول للرفاه الاجتماعي، ومجتمعات مفتوحة، و حد من الاستبداد الاقتصادي للرأسمال ، فان ذلك يعود إلى إن الطبقة العاملة في الغرب قد واجهت الرأسمال أو على الأقل حاولت إصلاحه".

من الواضح أنها لم تكن محاولة عاصفة لاقتحام السماء، والمشاريع حققت نجاحات مختلفة، ولكن الدور المحوري للطبقة العاملة باعتبارها محركاً للتحولات لا يمكن إغفاله، ومع ذلك لم تستطع الطبقة العاملة في المجتمعات الرأسمالية المتطورة، في النصف الثاني من القرن العشرين، انجاز مهمتها التاريخية المتمثلة في تجاوز الرأسمالية، ولكنها حاولت ذلك مرارا.

النماذج الجديدة للبروليتاريا

بعد العرض السابق يبقى السؤال حول دور الطبقة العاملة قائما. النظريات السائدة اليوم في العلوم الاجتماعية لا تنفي فقط دور الطبقة العاملة في إحداث التغييرات، بل حذفت تلك الموضوعة من مشاريعها الدراسية، ونادرا ما تجري دراسة دور الطبقات الاجتماعية، وهو نفس الشيء الذي جرى في القرون الوسطى، عندما حاول اللاهوتيون إنكار قوانين الطبيعة، وسيكون مصير الموضة الثقافية الآنية مشابها لان قوانين الحركة في المجتمع لا تختفي ببساطة نتيجة لإحلال اللعب بالكلمات محل التحليل المادي للمجتمع، وهو ما سيؤدي فقط إلى إخفاء الطبيعة الاستغلالية والقمعية للمجتمع الرأسمالي، كما هو حال خصوم (غاليلو) الذين ادعوا إن الأرض لا تدور حول الشمس، بل إن الكواكب والشمس هي التي تدور حول الأرض، وهذا ما يدعيه الحداثيون في العلوم الاجتماعية، عندما يعتقدون أن الطبقات الاجتماعية ونضالها كمحرك لحركة التاريخ أصبح من مخلفات الماضي. إن العدد المتزايد من القوى الفاعلة اجتماعيا لا يعني إن الطابع الطبقي للمجتمع لم يعد

قائما، لكنه يعني في المقام الأول، إن الميدان الاجتماعي والسياسي أصبح أكثر تعقيدا، كما ان تزايد وتنوع القوى الفاعلة اجتماعيا لا يؤدي إلى اختفاء الطبقات الاجتماعية ولا يعني نهاية الصراعات الطبقية.

إن الدور المركزي للطبقة العاملة ليست مسألة إحصائية، فحجمها أو حصتها يلعبان دوراً ثانويا في المجتمع الرأسمالي، ولكن دورها المركزي يتأتى من موقعها المتفرد في عملية الإنتاج ومن دورها الذي لا بديل له في منفعة الرأسمال. ومن هنا نستنتج إن هذه الطبقة فقط هي من تملك الشروط الضرورية لقلب النظام البرجوازي ولكنها تحتاج لانجاز مهمتها التاريخية الى دعم الطبقات والمجاميع الاجتماعية الأخرى، وهذا ما أوضحه (ماركس) و(أنجلس) في (البيان الشيوعي).

عندما نتحدث اليوم عن البروليتاريا فأننا نجد أنفسنا أمام حالتين مختلفتين: الأولى تقلص البروليتاريا الصناعية الكلاسيكية والثانية هو نمو وتوسع لايصدق وغير متجانس للبروليتاريا كنتيجة للتحولات التي يتصف بها نمط الإنتاج الرأسمالي. ونتيجة للنمو والتوسع الهائل يتقلص باستمرار، في العالم المتقدم والأطراف،عدد البروليتاريا الصناعية الكلاسيكية، ولكن في نفس الوقت يمكن القول انه لم يوجد في التاريخ أبدا هذا العدد الهائل من البروليتاريا كما هو اليوم وهو ما نسميه بالنماذج الجديدة من البروليتاريا، وهذا ما يستند اليه (فراي بيتو) (مختص بالعلوم الدينية و ناشط يساري برازيلي- هيئة التحرير) عندما يتحدث عن "البوبرتاريدو"(1) الأمريكية اللاتينية ودورها في التحولات الاجتماعية.

علاقات طبقية معقدة

ان التغييرات الحاصلة في تركيبة الطبقات الدنيا توضح إلى حد بعيد الأزمة التي تعيشها منظماتها التقليدية، فألأحزاب والنقابات العمالية لم تنجح لحد الآن في التكيف مع هذه الحقائق الجديدة، في حين جرى ملء الفراغ، على نحو متزايد، من قبل الحركات الاجتماعية الجديدة التي تعبر عن حقائق أخرى ولكنها لا تتعارض مع تحقيق الهدف، أي إحداث التغيير.إن مطالب منظمات، الجيران في الأحياء السكنية ومنظمات النساء والشباب و منظمات الدفاع عن البيئة ودعاة السلام والمدافعين عن حقوق الإنسان، لايمكن فهمها بالكامل إذا لم يتم تحليلها في سياق الصراع الطبقي والهيمنة البرجوازية.

من جانب آخر لايعني ذلك حصر نشاط هذه الحركات في إطار التحليل الطبقي وجعله العامل المقرر في طريقة تعاملها. هذه العوامل الذاتية الجديدة ليست ظواهر كلاسيكية للصراع الطبقي ولكنها تعبر عن أنواع جديدة من التناقضات والمطالب الناتجة عن التعقيدات والصراعات داخل المجتمعات الرأسمالية. من الصعب فهم ديناميكية الحركات الاجتماعية الجديدة دون النظر إليها في سياق العلاقات الطبقية الواسعة وتناقضاتها، وإلا كيف سيفهم نضال منظمات الجيران في أطراف المدن ومطالبتها بالماء والكهرباء دون الأخذ بنظر الاعتبار تعاظم استحواذ البرجوازية على الأراضي الزراعية والموارد الأساسية ومضارباتها بكل ما جعل الملايين في أمريكا اللاتينية يعيشون بفقر مدقع؟ كيف يمكن تفسير مطالب نشطاء منظمات حقوق الإنسان في أمريكا اللاتينية، عندما يتم نسيان أن البرجوازية والامبريالية حاولت

بالقمع العنيف، مرارا و تكرارا فرض نظام اجتماعي ظالم؟ كيف يفهم رفض البرجوازية لمطالب المدافعين عن البيئة، دون الأخذ بالاعتبار إن مشروعها للحفاظ على البيئة يتعارض مع المنطق الرأسمالي؟

على الرغم من ضرورة دراسة ماهية التغييرات الجذرية التي تعيشها الطبقات والفئات الدنيا كالتجزئة وعدم التجانس، ولكن يجب الاعتراف أيضا، إن ذلك يعزز دور البرجوازية وكتلها المختلفة في قمة الهرم الاجتماعي. استطاعت البرجوازية، في منتدى دافوس الاقتصادي العالمي، توحيد إستراتيجياتها وتكتيكاتها على الصعيد العالمي، في حين إن الطبقات الدنيا مفككة ومجزأة وعلى العكس من ذلك تقدم الطبقات العليا نفسها باعتبارها متماسكة وموحدة، ويعتبر ذلك تحديا جديدا وكبيراً للذين يريدون بناء الاشتراكية.

إن تزايد تعقيدات الرأسمالية المعاصرة دفع بصراعات جديدة إلى المقدمة، هذا إلى جانب الصراعات الطبقية القديمة. يكتب (ميليباند) بهذا الخصوص: " إن هذا لا يعني، إن حركات النساء والسود وأنصار البيئة والسلام (...)، ليست مهمة ولا تأثير لها، أو يجب على هذه المجموعات التخلي عن هويتها، ولكن هذا يعني إن الطبقة العاملة المنظمة تبقى أهم (ليست بمفردها) حفاراً لقبر الرأسمالية، باعتبار الطبقة العاملة الأداة الضرورية التي لاغنى عنها لإحداث التغيير التاريخي، وفي الواقع وكما قيل دائما عندما لا تأخذ الطبقة العاملة المنظمة على عاتقها انجاز هذه المهمة فأنها تبقى دون انجاز.مع ذلك فانه ليس في عالم الرأسمال المتطور وليس في عالم الطبقة العاملة ما يشير إلى إن هذه الرؤية المستقبلية قريبة المنال"

تعدد العوامل الذاتية

خلاصة القول إنه ولبناء اشتراكية القرن (21) يجب الإقرار بعدم وجود عامل ذاتي واحد، بل هناك العديد من العوامل. وفي حالة وجود عدد كبير من الاختلافات فان تحقيق الوحدة يصبح هو المهمة المطلوبة. إن لغات وثقافات وعادات و تقاليد واديولوجيات الطبقات الدنيا مختلفة جدا، ولذا من الضروري تحقيق نوع من الوحدة من خلال تأسيس منظمة سياسية متماسكة، ولكن ذلك يبقى مهمة صعبة للغاية. من يطرح الحلول عبر مفاهيم غامضة وأفكار ميتافيزيقية، مثل (نظرية الجمع) لهارت ونغري (2)، سوف لن يكسب شيئا، وكذلك لاتعد بشيء أفكار (ارنستو لاسل) (3) المبنية على قدرة الخطاب الجميلة في خلق العامل الذاتي (المقصود العنصر البشري – المترجم)، كما ليس من المفيد اعتماد المفاهيم الليبرالية التي ينتجها المجتمع البرجوازي لأنها تخفي الظروف الملموسة التي يعيش في ظلها المواطنون. إن مفاهيم مجردة مثل (الشعب) أو (سيادة الشعب) لا تساعد كثيرا، والأسوأ من ذلك هو الاعتقاد بقدرة العوامل الذاتية الجديدة (الناس) على التخلي عن وضع إستراتيجية للسيطرة على السلطة التي تعتبرها الماركسية موضوعة مركزية لكل ثورة. وهنا يجدر التذكير بما كتبه (ميليباند): حتى إذا شككت الحركات الاجتماعية الجديدة ومثقفو ما بعد الحداثة (بالدور المركزي الكلاسيكي للطبقة العاملة فان القوى المحافظة في المجتمع لا تفعل ذلك لأنها تعتبر الطبقة العاملة و اليسار خصمها الدائم).

هناك مسألة لا يمكن تجاهلها وهي التضاد الخاطئ بين الأحزاب والحركات

الاجتماعية، ومن المؤسف إن هذا التضاد المفتعل قد أصبح في السنوات الماضية عميقا في تصورات العديد من الناشطين الاجتماعيين والسياسيين في أمريكا اللاتينية ودول البحر الكاريبي. (....)

إن هذا التبسيط للواقع لايعتمد على أساس تحليلي، ولا يأخذ بنظر الاعتبار الواقع السياسي والاجتماعي لبلدان أمريكا اللاتينية، فالعبء الذي تعانيه الأحزاب ينتشر، في العادة، بسرعة في الحركات الاجتماعية، فمطالبتها بديمقراطية القاعدة لا تطبق دائما في صفوفها وليس من النادر أن نجد إن الخطاب السياسي و الممارسة لهذه الحركات يقبعان في عالمين منفصلين. إن "المطالبة بوضع أنواع جديدة للسياسة" التي تدعيها الكثير من الحركات الاجتماعية لنفسها تنتهي في الغالب في اطر الممارسة القديمة المكروهة للأحزاب السياسية.

بتعبير آخر فان الأحزاب والحركات يمثلان طريقتين مختلفتين للتعبير عن مصالح الطبقات الدنيا، لأنهما يؤديان دوريهما على مسرحين مختلفين لايتعارضان مع بعضهما البعض ولكن يكمل احدهما الآخر. فالأحزاب تعمل في إطار المؤسسات السياسية و الحركات تعمل في ميدان المجتمع المدني. وإذا أرادت الأخيرة بناء علاقات وطيدة مع قواعدها وبالتالي تمثيل مصالحها بقوة، فأنها ستواجه مشكلة ضعفها في اللحظة التي يتوجب عليها فيها ربط حزمة المصالح الخصوصية المختلفة بصيغة سياسية واحدة. ومن هنا تبقى الأحزاب على حد تعبير (غرامشي) "الأمير المعاصر" الذي يقوم بمهمة دمج وتوحيد الطبقات الدنيا المجزأة، وعلى الرغم من الانتقادات المشروعة لحزب ما، مع ذلك تبقى الأحزاب عنصراً لاغنى عنه في عملية التحرر. (.....)

الإصلاح والثورة

يبقى هنالك جانب آخر غير معروف هو: كيف يمكن تحديد نضج الوعي الثوري لدى الطبقات الدنيا؟ في خطاب له في جامعة كونسبسيون الشيلية عام 1971 قال فيدل كاسترو حول الديالكتيك المعقد الذي يربط الإصلاح والثورة: "تمر الثورة بمراحل مختلفة، لم يكن نضالنا ضد باتيستا يعتمد برنامجا اشتراكيا، وما كان ممكنا أن يكون برنامجا اشتراكيا فأهداف نضالنا القريبة لم تكن اشتراكية وما كان بالإمكان أن تكون كذلك، وذلك من شأنه أن يتجاوز مستوى الوعي السياسي للمجتمع الكوبي في هذه المرحلة، وكذلك يتجاوز مستوى إمكانيات شعبنا. لم يكن برنامجنا إبان الهجوم على ثكنة مونكادا اشتراكيا، ولكنه كان البرنامج الأكثر ثورية الذي كان بإمكان شعبنا أن يتصوره في تلك اللحظة."

ماهي الدروس التي يمكن استخلاصها من هذه الكلمات؟

في كل الأحوال على القوى الاشتراكية في أمريكا اللاتينية أن تحدد بشكل واضح الوعي السياسي الحقيقي والإمكانيات الحقيقية للنضال لدى السكان. المطلوب هو خلق الظروف الملموسة لظهور ونمو وعي واضح لدى السكان حول أوضاعهم، وهو أمر ليس بالسهل تصوره لأنهم وعبر مئات من السنين عانوا من العديد من التصورات المسبقة واللامعقولة والخرافات التي جسدها كم هائل من الثقافات والتقاليد والايديولوجيات التي تعيق الوصول للهدف المنشود.

ثمة درس آخر يمكن أن نستخلصه من

حديث كاسترو: إن ومضة الأفكار تحتاج الجهد الكافي لإشعال الشرارة التي ستشعل الحقل، بالإضافة إلى ذلك يجب تقديم تفسير واضح و مقنع للازمة الحالية وتأشير الطريق الحكيم الذي يقود إلى مخرج واقعي للطوارئ. احد العناصر التي تساعد الهيمنة الامبريالية في الوقت الراهن، هو ليس الوعي المفقود بالكوارث الاجتماعية و البيئية التي تسببها الرأسمالية، بل هو التسليم الغامض بالقضاء والقدر الذي يحول دون التفكير ببديل. إن على الماركسية المعاصرة أن تثبت وجود بدائل وان تشير إلى كيفية العمل، فليس هناك من يفكر بالفرار من السجن، إذا كان لا يملك طريقاً للهروب وإستراتيجية لتنفيذه. لقد حققت الليبرالية الجديدة انتصاراً مهماً في المعركة الايديولوجية، عندما أقنعت مجتمعاتنا وخصوصا الطبقات و الفئات الدنيا بعدم وجود بوابة للتغيير.

إن محتوى الصراع الفكري اليوم هو إن نثبت وجود حياة بعد الليبرالية الجديدة وان عالما أخر ممكن وأننا لم نصل بعد إلى نهاية التاريخ، ولهذا يجب أن تمتلك قوى اليسار الوضوح الفكري الكافي للدلالة الصحيحة على المزاج الوطني الأممي لكي تستطيع تحديد الواقع اليقيني لميزان القوى .(.....)

يقول فيدل كاسترو: " الثوري الحقيقي يحاول دائما الوصول إلى الحد الأقصى من التغيير الاجتماعي، ولكن هذا لا يعني القدرة على اقتراح الحد الأقصى من التغيير الاجتماعي دائما، لان ذلك يعتمد على تحديد الوضع المعين ومراعاة درجة تطور الوعي وتوازن القوى التي تتيح تحديد الهدف، وفيما إذا يمكن تحقيقه، و عند تحقيقه يجب على المرء وضع هدف آخر". (.....)

وحتى وان تمت القطيعة مع الماضي فان المزيد من الحذر مطلوب، لان وجود الثورة سيؤدي إلى ظهور اعتى قوى الثورة المضادة في الميدان، وهناك أمثلة لا تحصى في أمريكا اللاتينية –الفناء الخلفي للامبريالية – أدت فيها إصلاحات صغيرة إلى رد فعل عنيف من قبل قوى الثورة المضادة، سوف لن يكون الرد على محاولة بناء اشتراكية القرن (21) خلاف ذلك، ولكن عندما تبلغ القوى المنتفضة الوعي الكامل بكونها طليعة تاريخية وتجد الشكل التنظيمي الذي يضاعف قواها، عندها لا توجد معوقات لا تستطيع إزاحتها من الطريق.

* نشرت المقالة في جريدة البوليتيكو)الواشنطن(وفي العديد من المواقع الويبية في الولايات، و قامت هيئة تحرير الجريدة بوضع العناوين الفرعية والصفحات بين قوسين

** انطونيو نيغري: أستاذ العلوم السياسية والجتماعية في جامعة بوينس ايرس و مدير برنامج دراسة العلوم الجتماعية المقارن الولايات المتحدة للدراسة بالمراسلة.أستاذ زائر في عدد من الجامعات البريطانية والمريكية. نقدية الجمهورية في ثورة الندماج بين بلدان أمريكا الولايات المتحدة، منظمة البوينس ايرس لعام 2009، له العديد من المؤلفات . عضو المجلس الوطني الرجنتيني للبحوث العلمية و التقنية .

الهوامش:

)1(المصطلح مشتق من بروليتاريا و يعني البروليتاريا و يوجد في الفقيرة أي البروليتاريا الفقيرة. و)البوبرتاريا(من الأفراد من العمال الصناعيين والعمال العاطلين عن العمل وفقراء المدينة و الريف والمزارعين وسكان البلد الصليبيين والطبقة الوسطى التي أفقرت وحولت إلى بروليتاريا، بعبارة أخرى جميع النساء و الرجال الذين ليس لديهم أمل في هذا النظام.

)2(انط ـ وني)وني(ن غري: م نظ ـ ر ايطالي ومخ نص بالعل ـ وم السياسية ولد 1933 ع ـ ن ر من أهم ممثلي تيار ات الماركسية الجديدة .) Operaismus)اما مالك ماركت ه ارت الم ولود في واشنطن عام 1960 فهو م نظر في الدب و أس ـ باذ في جامعة ديوك. كتب الكتاب سوية ن ثية ه امة. الكتاب الول: الم ب راطورية- النظام العالمي الجديد)قدم الدفوك كامل ش ـ اع عرضا له م شور في العدد 309 من الفالة الجديدة - المحرر(و الثاني] الجمع ن جمة كامل ـ الكتاب[—الحروب و الديمقراطية في الم ب راطورية و الثالث الماية . في الوقت الذي ي عتبر الكاتبان بشية في أوساط الحركة الم ضادة للعولمة أنهما يواجهان فقر ا من الع دد من م نظري و أنصار الماركسية لنهما يضعان عن الطبقات بمفهوم الكتلة أو الكمية ويتساءلون المقدم إلى الحركات والتي يعتبرون م نظر هؤلء موضوعيا م ضادين للشركة- لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى الويكيبيديا

)3(ارنستو لسلو: ولد عام 1935 في العاصمة الرجنتينية)بوينس ايرس(، بروسيور وأستاذ النظرية السياسية في جامعة اسك ـ اس الرجنتينية، مدير برنامج الدكتور وتحليل الخطاب. يشتغل في العديد من جامعات العالم في أوربا وأستراليا وأمريكا الجنوبية و الشمالية وفي جنوب أفريقيا. من رواد نظرية تحليل الخطاب الداعية إلى إمكانية خلق الفرد السياسي الواعي من خلل المناقشات و الصراعات الدكتورية حول الموضوعات المختلفة. وتحليل الخطاب مصطلح عام يستخدم في علوم اللغة و العلوم النسانية وله تعريفات مختلفة وفي العلوم الجتماعية يتناول التحليل شكل و مضمون الخطاب- لمزيد من المعلومات يمكن الرجوع إلى الويكيبيديا.

أدب
و
فن

الدكتور خلدون حسن النقيب ... وداعا !

قامة ثقافية أخرى ترحل.. ففي نيسان عام 2011 واثر نوبة قلبية مفاجئة غادرنا المفكر وعالم الاجتماع الكويتي والشخصية الثقافية المرموقة الدكتور خلدون حسن النقيب. وبرحيله فقدنا، كما غيرنا، عالما اجتماعيا كبيرا، وأستاذا قديرا، ومفكرا مبدعا، ومثقفا مرموقا. والدكتور النقيب من مواليد الكويت عام 1941، حاصل على درجة الدكتوراه عام 1976، وعضو هيئة تدريس في جامعة الكويت، قسم الاجتماع منذ سنة 1976، كما شغل منصب مساعد عميد، ثم عميد كلية الآداب جامعة الكويت مرتين في سنوات 1978 ــ 1981 و 1986 ــ 1992، وشغل منصب رئيس قسم الاجتماع في سنة 1991 ــ 1992. ويعد الدكتور النقيب أحد مؤسسي مجلة العلوم الاجتماعية ورئيس تحريرها بين 83– 1986

امتاز الدكتور النقيب بنشاطه البحثي الواسع فنشر عشرات البحوث والدراسات في أبرز المجلات العربية والدولية، إضافة الى الكثير من الأبحاث والأوراق العلمية التي شارك بها في عدة مؤتمرات وندوات .. فضلا عن عدد من المؤلفات المشتركة والبحوث والدراسات والمقالات. كما أصدر العديد من المؤلفات من بينها على سبيل المثال لا الحصر:

- ***الدولة التسلطية في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائية مقارنة.***
- ***المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية: من منظور مختلف.***
- ***محنة الدستور في الوطن العربي: العلمانية والأصولية وأزمة الحرية.***
- ***الأصول الاجتماعية للدولة التسلطية في المشرق العربي.***
- ***القبيلة والديمقراطية، حالة الكويت.***
- ***التدرج الطبقي الاجتماعي في بعض الأقطار العربية.***
- ***ملاحظات حول التعليم العالي والتنمية في العالم الثالث.***
- ***الأنماط المتغيرة للتدرج الاجتماعي في الشرق الأوسط،الكويت كدراسة حالة.***

وفي مشواره البحثي الطويل قدم الدكتور خلدون النقيب العديد من الأطروحات التي أثارت جدلا خصبا ومتباينا حولها وهذا يدلل على حيوية وجديد تلك الأطروحات. كما انه مارس التعبير عن حرية الرأي، ودفع ثمنا مقابل ذلك. فقد ظلمته جامعة الكويت رغم أن منجزه الفكري وفير وكان من أساتذتها المتميزين ومن حقه أن يحصل على درجة الأستاذية (بروفسور) منذ سنوات طويلة إلا أنه وضعت أمامه العراقيل بشكل وبآخر وعطلت ترقيته وودع الجامعة دون أن يحصل على حقه، في وقت كانت تحظى أبحاثه ودراساته بقدر كبير من الاحترام والتقدير في دول أخرى حتى أن بعض الجامعات الأجنبية المرموقة تعتمد كتب ومؤلفات الدكتور النقيب كمقررات دراسية لديها.

ومن بين أهم أطروحاته التي ميّزت مشروعه البحثي الذي امتد على مدى أكثر من ثلاثة عقود إشكالية الدولة التسلطية في المشرق العربي وأصولها الاجتماعية والتي حملت عنوانا لأحد أهم كتبه: ***الأصول الاجتماعية للدولة التسلطية في المشرق العربي***، الذي صدر بعد احتلال قوات النظام العراقي السابق للكويت في آب عام 1990. ويعرّف د. النقيب الحكم التسلطي بأنه " الحكم الاستبدادي المبني على تسيّد الدولة البيروقراطية على المجتمع، من خلال توسيع قدرتها على تنسيق البنى التحتية، بحيث تخترق المجتمع المدني بالكامل وتجعله امتداداً لسلطتها، وتحقق بذلك الاحتكار الفعّال لمصادر القوة والسلطة في المجتمع ". وفي الواقع، نحن إزاء دولة "تفترس" المجتمع بكل أشكال الإكراه الممكنة.

وبحسب د. النقيب فان هذه الدولة التسلطية تقوم على ثلاثة أركان هي:

- ***نخبة متسلطة*** (عسكرية أو مدنية) أو حزب حاكم،
- ***هرم بيروقراطي*** قائم على مبدأ الولاء الشخصي،
- ***بنى موازية***، كالتضامنيات العشائرية والمذهبية والإثنية والمهنية.

وبالمقابل فان كتابه الآخر: " ***المجتمع والدولة في الخليج والجزيرة العربية، من منظور مختلف***" يُعد احد أهم الكتب التي تناولت المجتمع والدولة في العالم العربي، والذي عده العديد من المختصين " كتابا رائداً في علم الاجتماع السياسي ". وفي أعقاب صدور هذا الكتاب وما أثاره من زوابع سياسية وفكرية صدر قرار بإيقاف الدكتور خلدون النقيب وإحالته الى المحاكمة ووجهت له السلطات الأمنية الكويتية تهمة التحريض على " قلب نظام الحكم " وتم توقيفه ثم أطلق سراحه بكفالة.

وفي عمل ثالث هو: " ***محنة الدستور في الوطن العربي: العلمانية والأصولية وأزمة الحرية*** "، اعتبر د.النقيب أن العقلية السائدة هي عقلية القبيلة، وعقلية الاستبداد الأبوي، وتراثية التسلط، تسلط الرجال على النساء، والرجل على بقية الرجال، هذه العقلية تنتج رعايا خانعين للاستبداد قانعين به، وليس مواطنين بحقوق وواجبات تحددها مرجعية دستورية مدنية مرنة، متساوين أمام القانون، بغض النظر عن الجنس والعرق واللون والمعتقد والوضع الاقتصادي –الاجتماعي ..الخ.

كما كان للدكتور النقيب أطروحة مهمة بشأن وظيفة العلوم الاجتماعية ملخصها انه يرى أنها اعتادت في بلداننا على أن تهادن السلطات الحاكمة ولا تغضبها، لهذا تركزت طرق تعليمها في الجامعات على أساس أنها من العلوم النظرية وتجنبت، في واقع الأمر، البحث في المشكلات الفعلية التي يواجهها المجتمع في لحظة تطوره الفعلية والسعي لتفسيرها تفسيرا علميا وليس تبريريا.

ختاما، تتوجه (***الثقافة الجديدة***) بخالص التعازي لعائلة الفقيد الدكتور خلدون النقيب، ولكل أصدقائه وطلبته ومحبيه معربة عن تضامنها الحار معهم جميعا في هذا المصاب الكبير.

الذكر الطيب دوما للدكتور خلدون حسن النقيب !

(الثقافة الجديدة)

لقاء مع الفنان
بدري حسون فريد

أجراها معه السينمائي والكاتب قاسم حول في المغرب عام 2003*

الفنان بدري حسون فريد من مواليد كربلاء 1927. عمل في المسرح المدرسي منذ صباه وشارك في مسرحية "الطيش القاتل" في المدرسة الفيصلية الإبتدائية عام 1935 – 1936 غادر مدينة كربلاء مسقط رأسه إلى العاصمة بغداد عام1946 بعد أن أكمل دراسته الثانوية وكان والده يريده محاميا لكنه دخل فرع التمثيل في معهد الفنون الجميلة.

أكمل دراسة فنون المسرح ونال الدبلوم بدرجة شرف في العام الدراسي **1954 – 1955** ومن أساتذته جعفر السعدي وإبراهيم جلال وصفاء مصطفى وحنا بطرس وعبد الجبار ولي. أثناء دراسته في المعهد عمل مع الفنان جعفر السعدي في جمعية بيوت الأمة في الكاظمية وفي الفرقة الشعبية للتمثيل، كما شكل مجموعة شباب الطليعة للتمثيل وأجيزت الفرقة عام **1959**.

سافر في بعثة وزارة التربية العراقية إلى أمريكا عام **1960** وإلتحق بمعهد (كود مان ثييتر)، وعاد الى الوطن عام **1965** وعين في معهد الفنون الجميلة فرع التمثيل وقام بتدريس مادتي التمثيل والإخراج. عام **1970** نقل من معهد الفنون إلى أكاديمية الفنون قسم الفنون المسرحية في جامعة بغداد، وفي عام **1990** حصل على لقب الأستاذية – بروفسور بعد عشرين عاما من التدريس والبحوث المسرحية. كما أشرف على أطروحات أكاديمية عديدة، كما حصل على شهادات تقديرية من المؤسسات الثقافية العراقية، ورشح من قبل المركز العراقي للمسرح رائدا مسرحيا عام **1976**.

شارك الأستاذ بدري حسون فريد في تمثيل مسرحيات وتلفزيونيات وأفلام سينمائية وبرامج إذاعية كثيرة، وأخرج العديد من المسرحيات العالمية والعربية والعراقية، إضافة

*تنشر لأول مرة في الثقافة الجديدة

إلى كتابته لخمسة عشر مسرحية

غادر العراق عام 1995 وعاش في العاصمة الأردنية، عمان، ثم سافر إلى تونس عضوا في لجنة تحكيم المهرجان المسرحي في القيروان، ثم تم توظيفه أستاذا في جامعة الفاتح في الجماهيرية الليبية في 1996 وتولى تدريس مادة الصوت والإلقاء وصدر له كتاب بعنوان "خربشة على سطح الذاكرة". بعد ذلك تلقى عرضا للتدريس في المغرب وتم تعيينه في المعهد العالي للفن المسرحي في المغرب وذلك عام 1998 حيث باشر كمحاضر في مادة "الإلقاء"، كما قدم هناك العديد من المسرحيات واشترك في بطولة المسلسل التلفزيوني العربي "صمتا، لنسمع صوت القمر"، وكان اخر في المغرب "النشيد الأخير لطائر الليل المغرد" مونو دراما من تأليفه وتمثيله ومسرحية "حدث في واق واق" مقتبسة من قصة لمارك توين. كما قدم العديد من الورش المسرحية في المغرب.

بتاريخ 8 آيار 1967 كان السينمائي والكاتب العراقي قاسم حول قد كتب في صحيفة الخبر التي كانت تصدر في بغداد كلمة في الصفحة الثقافية التي كان يشرف عليها بتوقيع صادق أمين بعنوان بدري حسون فريد فنان غير محظوظ وهذا نص الكلمة:

"بدري حسون فريد فنان غير محظوظ تنهال عليه الأقلام كلما قدم عملا. هذه الأقلام تركز على هفواته متناسية الجوانب الإيجابية في أعماله. بدري قدم قبل شهر مسرحية أبسن –عدو الشعب –وكانت عملاً ناضحاً رغم قصر الفترة التي عمل فيها. الأقلام التي كانت تخدش شعوره تراجعت وأندست في جيوب أصحابها كما يندس الطفل في فراشه في ليالي الشتاء القارصة البرودة!

المثابرة لدى بدري جديرة بالإهتمام. صموده وروحه الشابة جديرتان بالتقدير. وإني لأتساءل، مثلما تساءل غيري. لماذا إحتجب حملة الأقلام عن مناقشة – عدو الشعب – ثم أتساءل، لو كانت عدو الشعب قد قدمها غيره فأية ضجة تثار وأي تهويل ومبالغة ستحيطها. إذا كنا مخلصين حقاً للحركة الفنية فعلينا أن ننظر إليها نظرة بمستوى أفكارنا، وأن نكون صادقين مع أنفسنا ولو مرة واحدة – توقيع صادق أمين"

وبتاريخ 1997/4/7 كتب بدري حسون من طرابلس في ليبيا رسالة إلى قاسم حول المقيم في هولندا جاء فيها:

"عزيزي الأخ قاسم حول.

تحية وقبلة

وعيداً سعيداً بمناسبة عيد الأضحى المبارك. أرجو لك الصحة والتمنيات الطيبة والتقدم في مناحي الحياة كافة.

لا أدري كيف إنزلقت قصاصة الورقة التي وجدتها بين أوراقي دون قصد مني عندما حملت بعض ما أحتاجه للتدريس فقط وأبحرت ووصلت إلى طرابس. لقد عرفت بعد فترة من الزمن عام 67 أو 68 أنك كتبت هذه الكلمة القصيرة البليغة وأغلب ألظن أنك أخبرتني بها في يوم من الأيام. مضى ثلاثون عاما على كتابة هذه الكلمة وما زلت "فنان غير محظوظ" كيف؟ أنا أقول لك في مهرجان قرطاج المسرحي لعام 1995

المفروض أن أتوج كرائد مسرحي عربي، إلا أن ما حدث وراء الستار ألغى التتويج لكل فناني المسرح في الوطن العربي أو جمد وأستبدلوا التتويج بالتكريم. وكرم من هم طلابي وأجلوا تتويجي أو تكريمي إلى الدورة القادمة في تشرين الأول 1997 في حين أن زميلي الأخ سامي توج قبل سنوات وكتب في ألف باء بأن تتويجه جاء متأخراً. المهم وأقولها بصدق أنا لا يهمني التتويج أو التكريم، فلقد كرمت طيلة العشرين سنة الماضية من قبل الناس الشرفاء، و "المثابرة" التي ذكرتها في كلمتك البليغة مازلت مشتعلة في داخلي.

أزرع شتلات المعرفة وحب المسرح والحياة في كل مكان، وهنا أيضا بعد سنة من الجهد والكفاح والتعب والصبر والعناء و "المثابرة" إستطعت أن أجعل طلاباً يحبون المسرح ويعشقونه وكلمتي "إضاءة شمعة في المسرح خير من لعن الظلام" وإلى لقاء قادم .. أخوك بدري حسون فريد – طرابلس 1997/4/7 "

بعد هذه الرسالة سافر الفنان بدري حسون فريد ألذي كان يدرس طلبة ليبيا الجماهيرية فنون المسرح وأستقر في المغرب. وفي المغرب ألتقاه المخرج السينمائي قاسم وسجل معه لقاء صوتيا مسجلا أهداه للثقافة الجديدة ولقرائها.

نص المقابلة

في غرفة صغيرة صعب علي إلتقاط صورة فوتوغرافية فيها لحجمها الضئيل الذي لا يتيح سوى لعدسة عريضة أن تلتقط له صورة فوتوغرافية. غرفة يقابل سريره بوتوغاز قديم يقلي فيه البيض ويطبخ فيه البطاطا وإلى جانب البوتوغاز الحمام بدون باب وإلى جانب سريره طاولة خشبية متحركة غير مسمرة بشكل جيد وضع فوقها مجموعة من المسرحيات. وفي باب الغرفة وهي تسمى مجازاً شقة أو بيت فيما هي غرفة واحدة بمرفقاتها، على الباب لصقت ورقة بيضاء بالصمغ كتب عليها بيت البروفسور بدري حسون فريد.

● ***هل يستطيع البروفسور بدري حسون فريد أن يوجز مراحل حياته الفنية؟***

– هي ثلاث مراحل، المرحلة الأولى عندما دخلت معهد الفنون الجميلة وتخرجت فكونت مجموعة شباب الطليعة للتمثيل وذلك في العهد الجمهوري. هذه مرحلة. المرحلة الثانية عندما ذهبت للدراسة في أمريكا وهناك كانت دراسة تطبيقية، بمعنى كانت هناك دروس نظرية وعملية وتقديم عروض مسرحية من قبل مخرجين عالميين مثل جارلس ماكاو وجون رايخ وأنا عملت معهما كممثل. المرحلة الثالثة هي عودتي من أمريكا في نهاية عام 1965 وتبقى مرحلة ما قبل الذهاب إلى أمريكا هي مرحلة التجريب بالنسبة لي التي كان الهدف الأساس فيها هو الجانب الإجتماعي والسياسي لأن الفنانين العراقيين معروفون بإلتزامهم بقضايا وطنهم وقضايا أمتهم والإنسانية. هذه الفترة تذكرني بمسرحية قدمتها تحمل عنوان "ثورة مع الفجر" وقد إشترك معي في كتابتها أدمون صبري وطه العبيدي ونور الدين فارس وقدمتها عام 1959. كما قدمت مسرحية الدب لتشيخوف، وقد قدمتها في أمريكا حيث مثلت شخصية سميرنوف بالإنكليزية وكان في الصالة إبراهيم جلال رحمه اللّه الذي درسني المسرح.

وهنا أذكر حادثة أن الفنان إبراهيم جلال

طردني يوما من الصف وقال لي "أنت لا تصلح لشيء. أنت شاب كالطاووس. قلت له وأنا أغادر عند الباب بأنك سوف تراني بعد عشر سنوات وتعرفني فأنا لست كالطاووس.

كان إبراهيم جلال قد سافر قبلي وكان يدرس في نفس المعهد ولم أكن أعرف أنه كان في الصالة عندما قدمت مسرحية الدب في يوم الإمتحان، فجاءني والدموع في عينيه وكنت أجمع اكسسوارات المسرحية، قال لي "يا بدري لقد تحقق ما كنت تصبو إليه. أنت فنان وممثل جريء وأنا أعتذر"

الأساتذة في معهد التمثيل تساءلوا لماذا أتى هذا الشاب من بغداد كي يدرس المسرح. أنه مسرحي محترف.؟

عندما عدت إلى العراق قدمت المسرحية ذاتها "الدب" من تلفزيون بغداد. وهنا في المغرب الآن قدمتها أيضا .. هذا العمل كان هو أطروحتي في أمريكا لنيل البكالوريوس، أما الماجستير فكان عن تنسي وليامز.

● ***ما هو نوع المسرحيات التي كنتم تميلون إلى تقديمها على المسرح العراقي ؟***

– المسرحيات التي قدمتها في العراق مثل "الأشجار تموت واقفة" و "جسر آرتا" المسرحيات التي كنا نقدمها أما أن تكون عالمية وقليلاً منها عربية. كما كنا نقدم المسرحيات الشعبية مثل مسرحية "سختجي" وقد عرقتها عن مسرحية لتوفيق الحكيم، قدمتها على مسرح الأمير عبد الإله كما قدمنا "نشيد الأرض" وقدمنا الخاطف والمخطوف وهي عمل إجتماعي وسياسي بأن الذي يخطف سوف يكون مخطوفا في يوم ما كما قدمنا مسرحية "خطوة من ألف خطوة" وهي عن المسيرة الكبرى.

● ***وفي مجال التلفزيون؟***

– قدمت ما يقرب من أربعين عملا تلفزيونيا ولكن يبقى في الذاكرة "النسر وعيون المدينة" مع الفنان خليل شوقي وهي من إخراج إلمخرج الراحل إبراهيم عبد الجليل. وقبل مغادرتي العراق قدمت مسرحية عن رجل يعاني من إنفصام الشخصية. كما قدمت مسرحية "المصطبة" على مسرح بيروت وهي من إخراج جواد الأسدي عام 1997. ثم بدأت أقدم أعمال مونو دراما أي المسرحية ذات الشخصية الواحدة. ومثل هذه المسرحيات تكون مرهقة ولكنها تمرين هام للممثل.

● ***قدمت أطروحتك عن تنسي وليامز .. أية مسرحية؟***

– لقد أخترت مسرحية "الشارع المبكي" هذه المسرحية مكتوبة بعشرين لوحة، ثم كتبها تنسي وليامز بعشر لوحات. وكانت المسرحية قدمت من إخراج جارلس ماكاو. وأثناء دراستي التطبيقية درست هذه المسرحية بلوحاتها العشرين فوجدت فيها فرصة تحد كبير، أولا، لأن المسرحية قدمت من قبل مخرج كبير الذي قدمها بلوحاتها العشر وليس العشرين وإن كل لوحة لها طراز مختلف فاللوحة الأولى واقعية والثانية تجريدية والثالثة سوريالية والرابعة طبيعية وهكذا. كانت دراستنا في تلك المرحلة هي الطراز في المسرحية تأليفا أو إخراجا. وحتى آخذ هذه المسرحية لابد أن أحصل على موافقة المخرج الأستاذ جارلس ماكاو وسألني لماذا تختار مسرحية قدمتها أنا، قلت له ويحق لي أنا أيضا أن أخرجها فقال طبعا ممكن ولكن لابد من الحصول على موافقة المؤلف تنسي وليامز وأضاف ولكنها صعبة الأسلوبية – الطراز بسبب تعدد طرز لوحاتها فقلت له لقد أخترتها لهذا السبب. وعندما إتصل بتنسي وليامز رفض وقال

بعد أن عرفوه عني بأن هذا الشاب جاء من بغداد وإن أجواء المسرحية هي عن أمريكا اللاتينية فكيف يمكنه فهم تلك الأجواء، فكان جوابي أن مشهدا من مشاهد المسرحية شبيه بما يحصل عندنا في العراق وخاصة في مدينة العمارة حيث أحد أبناء الأهوار تحرسه زوجته ليلا عندما ينام بسبب التعب فتخاف أن تأكل الكلاب قدميه لأنهما مهترئتان. وعندما شرحوا لتنسي وليامز ذلك بعث بموافقته. وبعد أن قدمتها قيمت على أساس أنها أحسن عمل قدم خلال عشر سنوات في المعهد.

● ***كيف ينظر بدري حسون فريد إلى نفسه في فيلم "إرحموني" الذي أنتج عام 1955؟***

– قصة مشاركتي في فيلم أرحموني للمخرج حيدر العمر، أنه وبعد إنتاج فيلم عليا وعصام، كنا نحن في فترة المراهقة الفنية وكان الظهور على شاشة السينما حلم الشباب وكنا ننتهز أية فرصة تتيح لنا تحقيق أحلامنا. كان المخرج حيدر العمر قد أخرج فيلم "فتنه وحسن" وجلبت إنتباهي إحدى اللقطات التي أقنعتني بأهمية هذا المخرج ، وقد جاءني ذات يوم وهو يحمل معه سيناريو فيلم يحمل عنوان "إرحموني" وقال لي " أعرف بأنكم الذين تدرسون الفن لا تنظرون إلينا نحن أصحاب الخبرة العملية غير الأكاديمية نظرة جادة. لقد حرمت من العمل في فيلم من المسؤول الذي أخرجه عبد الجبار ولي وكان عندي نوع من التحدي للظهور والنجاح في السينما فوافقت على العمل مع حيدر العمر في فيلم إرحموني. كانت عندي ملاحظات، وحتى أكون صريحا فإن ملاحظاتي في ذلك الوقت لم تكن تهدف إلى تطوير الفيلم نحو الأحسن بقدر ما كانت تنصب في جعل دوري أكثر ظهوراً على الشاشة. كان هناك فيلمان داخل الفيلم. الفيلم الأول دوري في الفيلم والفيلم الثاني العلاقة الرومانسية التي تكونت بيني وبين بطلة الفيلم واقعيا وكان المخرج يحبها أيضا وهي الممثلة هيفاء حسين. كانت تحبني بشكل واقعي ولكن كان حبي رومانسيا محضا "**بدري حسون فريد بدأ يضحك من نفسه وأستمر يضحك**".. الفيلم مقتبس من مسرحية المساكين لسليم بطي وكنت قد شاهدت المسرحية في كربلاء عندما كان عمري سبع سنوات . الفيلم نجح جماهيريا وكان قد صرف على إنتاج الفيلم المنتج وصاحب صالات سينما الحمراء في العراق حبيب الملاك. كانت أجوري في تمثيل الفيلم خمسين ديناراً عراقيا لم أتسلمها حتى تاريخ هذه المقابلة الصحفية. أما هيفاء حسين بطلة الفيلم فكانت أجورها مائة دينار وقد تسلمتها .. وللأمانة كان حضور هيفاء حسين على الشاشة شفافا وجميلا.

● ***وهل حصلت على فرصة سينمائية أخرى؟***

– مثلت في فيلم نبوخذ نصر من إخراج كامل العزاوي بوشر العمل في تصويره عام 1957 وأكملناه عام 1962 مثلت دور "زرنافار" وإرتفعت أجوري إلى مائة وخمسين دينارا كممثل ومساعد مخرج ثانٍ وكان سامي عبد الحميد مساعد مخرج أول . كلفة الفيلم أربعين ألف دينار وهو أول فيلم عراقي بالألوان.

● ***أنت بدري حسون فريد وعلى باب غرفتك هنا في المغرب ورقة مكتوب عليها البروفسور بدري حسون فريد. هل ترى في ذلك تكريما من العراق للفنان بدري حسون فريد؟!***

– "**بدري حسون فريد يضحك**" بصراحة وصدق لو أن أي عراقي أو عربي أو من الذين يعرفونني في أوربا أو

أمريكا، أي واحد يعرفني يأتي لزيارتي سيقول كيف يمكن أن يكون هذا هو حال الفنان بدري حسون فريد ولكنت أجبته: "وكيف يمكن أن لا يكون هذا" .. هكذا دارت الحياة دورتها. قبل أن آتي إلى هنا كنت في بيروت وقدمت مسرحية المصطبة. وجاءني فاكس يطلبون مني عمل ورشة عمل فقدمت عملاً عنوانه "العين والخلخال" هنا في المغرب على مدى عشرين يوما. وكان تعييني بعد هذه الورشة بدرجة ألف. حينها لم أتمكن من العودة إلى ليبيا التي أحبها وأحب شعبها كثيراً، ولكن هناك أعمل كمدرس ولا أستطيع ممارسة فني كممثل. قبلت العمل هنا حيث وجود فرصة التمثيل والإخراج لكن الراتب محدود وقليل. الراتب يسد إيجار هذه الغرفة وبعض متطلبات الحياة اليومية وكما يقول المثل "مستورة" وعندما أقع في أزمة مالية أطلب دائما من إبني حيدر في عمان لتسديد العوز. أنا سعيد هنا لأسباب كثيرة. الطقس جميل. الناس طيبون. وعندي حرية كاملة أن أقرأ وأكتب وأمشي وأضحك وأبكي ولا أحد يقول لي لماذا ومن وراءك ومن قدامك هي مرحلة يا صاحبي هي مرحلة. كلنا غرباء والطيور تعود يوما لأعشاشها. قد أرجع وحدي وقد نرجع أثنان وربما ثلاثة "بدري يضحك" فأنا أريد ثالثا أسميه طارق.

● ***هل تعني أن هذه الغرفة كبيرة في مفهوم الحرية؟***

– طبعا بلا شك. أرجع وأقول ثانية عندما يأتيني أصدقاء هنا فإنهم يعرفون معنى الصبر، ومعنى رفض الإنسان لأن يبيع نفسه لأية جهة كانت ويقف على قدميه ولا ينحني. لقد مر على تاريخ العراق ساسة عبر عهود كثيرة وقد أتهم البعض بالخيانة ولكن التاريخ أنصفهم لاحقا. ومع أنه أمر مؤسف ولكن الحقيقة لابد وأن تنجلي يوما. صحيح أنني هنا في هذه المساحة الضيقة الواسعة الحرية أعيش وأنام ولا أحد يدق على بابي ليلا ولكن صراحة قلبي على بغداد وعلى العراق. هل تظن أن العلاقة بين المبدع والوطن هي علاقة هامشية أبدا. العراق بلد الأنبياء وبلد الأولياء وبلد الطيبين الأخيار.

● ***كم يبلغ عمر البروفسور بدري حسون فريد؟***

– عمري الحقيقي. أنا مواليد 1930 ولكن أمي سجلت عمري 1927 حتى يقبلوني في المدرسة الإبتدائية.

● ***هل يكتب بدري حسون فريد مذكراته؟***

– كتبت عن فترة 1941 حتى 1957 سيرة ذاتية وفنية وفيها أحداث كثيرة عن حياتي الأولى وإنتقالي إلى بغداد ومعهد الفنون الجميلة وكلية الحقوق وتعرفي على المسرحي الكبير جعفر السعدي. وفي كتابي الأول "ومضات من أيام الطفولة" فيه أشياء كثيرة. هناك أحداث كثيرة قلت لابد من أن أسجلها.

● ***ومن هذه الومضات؟***

– هناك مثلاً حادثة عن بلبل، وهو طير معروف في العراق يقتنيه العراقيون. كان والدي رحمه اللّه يحب الطيور. وقد حصل في أحد الأيام على بلبل يغرد كلش حلو. وأصبح ذائع الصيت في كربلاء. ويسمعه الناس وهم يمرون في الشارع قرب بيتنا ويعرفون أنغامه الجميلة. وقد سمع رئيس وزراء العراق نوري السعيد عن هذا البلبل. وكان والدي على علاقة بنوري السعيد عندما كان ضابطاً وكان والدي جندياً، كما أن لوالدي علاقة برشيد الشبلي والد المسرحي الرائد حقي الشبلي. نوري السعيد أرسل رسالة إلى والدي تقول أن نوري السعيد يسلم عليك ويريد البلبل

الـذي ذاع صيته وقـد قـال المـراسل أن الباشا نوري السعيد يريد البلبل وقد سمع عن تغريده الجميل فقال له والدي تعال عندي غداً إلى الدار وخذ البلبل، وفي الحال ذهب والدي إلى الدار وأخفى البلبل بقفصه في البستان وجلب بدله بلبل "طايح حظه" ووضعه في قفص وقـال للمـراسل تفضل هذا البلبل سلمه للباشا وسلم لي عليه. الباشا لم يرسل أي عتاب. ولكن في يوم من الأيام زار الباشا نوري السعيد مدينة كربلاء وإلتقى والدي وقال له "ليش هيجي يا حسون تريد تضحك علي. أهو هذا البلبل الذي ذاع صيته في كربلاء. كان عليك أن تعتذر بدلا من أن ترسل لي بلبلاً مغشوشاً" ثم سأل والدي عني وخبره أنني في كلية الحقوق فقال له عندما يتخرج إبنك بدري من الكلية خبرني وأنا أعينه مدير ناحية، فقال له والدي عني بأنني أحب أن أكون ممثلا وليس مدير ناحية.

"قصة البلبل أستفدت منها وحورتها قليلا لتصبح حكاية وحدث في فيلمي المغني – قاسم حول"

● ***ما جديد بدري حسون فريد؟***

– الجديد الذي نضج هو مونو دراما عنوانها "حدث في واق واق" وهي قصة للكاتب الأمريكي "مارك توين" وهي شخصية واحدة في مواقف متعددة تبكي أحيانا وتضحك حينا آخر بأداء ينتمي كثيرا للواقعية، الواقعية مع المبالغة في تجسيدها، لكنها مبالغة محببة للنفس. وكان عندي رهان أن أجعل المشاهدين هنا في المغرب يصمدون ويسعدون على مدى ساعة ونصف مع ممثل واحد. وقد نجحت في الرهان.

أما الجديد الصعب التنفيذ فإنه عمل مسرحي ملحمي يحتاج إلى ممول ثري .. يحتاج إلى أن يتبناه وطن ينتمي إليه فنان. هي حكاية ملحمة كلكامش وبحثه عن الخلود وعلاقته بالأفعى التي سرقت منه نبتة الخلود. لماذا سرقت منه نبتة الخلود لأنه في لحظة العثور على النبتة كان في غفلة فأتته الأفعى وخلدت ولم يحصل هو سوى الفناء.

أجريت المقابلة في دار البروفسور بدري حسون فريد. حي مارسا، زنقة اليابان، الرباط، المغرب. رقم الدار 14 –الرمز البريدي – 10000 أجرى اللقاء قاسم حول.

السؤال

قـــــاســـم حـــنـــــون

هو الان يرسم خطوة في الرمال
عاريا مثل نصلٍ
راودته الغياهب عن حلم ....فتنامى على
وجنات المدينة
شجرًا أخضر البوح يغمره وابلٌ
غامضاً كانتشاءٍ مباغتٍ
ينوء بأسراره كلما انهمرت موجةٌ وأرخى على
الأفق غيمٌ
يقود مسراته في الهجير
كائناً يتلظى من الشوق
أسماره تتوهج في الليل
أوراقه تتفتق كالأمنيات
وحين استحال الى شجٍ
أنكرته المدينة ...
أنكره الصبية العابثون
وحشد الشغيلة
وانتبذته النساء...

هو الآن يرسم صورته ....
وردةً للمحارب ...
إذ يتهجى شروط إقامته في المنافي البعيدة
وردةً للكهول ...
الذين قضوا في الصقيع
وردةً للحبيبة ...
(بنيلوب) البلاد الشقية

******

تسمرت في منزل الريح
تمضغ أشجانك المستديمة
ينكأها هاجسٌ لا ينام
أدركتنا في المغيب
نام بقايا مبعثرةً
ونحزم أمتعةً للرحيل
تبدد أيامنا في المحطات
ونهرم قبل الأوان
أكنت النبي الذي يستريح الحمام على كتفيه

ويحمر من خجلٍ حين تدنو النساء ؟

أكنتَ هوىً عابرًا ؟

هاهي أرواحنا .....

تستفيق على جلبةٍ تتسرب من وحشة

الموت..

موتى يجرّون أسفارهم في الميادين

برابرةٌ بإهابٍ جديد

قرويطيون يبتكرون قيامة الرصاص

رسل الخديعة

أولاد المافيا

سدنة الخراب الجديد

الذين يقايضون إرث الأسلاف بنشوة

العابرين الى لذائذهم

يستمطرون سحائب الرحمة

ورقاً أخضر

وعربات فارهةً

وفراديس ملونةً

ينهضون على وقع خيلٍ مطهمةٍ....

ومعارك من ورقٍ

يزدردون الكلام المعتق

يفيضون بالحكمة الخاوية

على إنهم يهبطون حشوداً

يقيمون أحلامهم في الصعود الى الهاوية

سورةً من جنونٍ وخوفٍ وأسئلةٍ بالية .

البصرة - أيلول 2010

إنسانُ جواهُ

أحمد عبد الرحمن جنيدو

بعثرتْ..إصبعُ الطينِ.
فماجَ النبضُ مدهوساً كسيرْ.
حينَ يغدو في لحاءٍ.
يسطعُ الخمريُّ في عينِ الضريرْ.
فالتقى في شاطئِ الموتِ خيالاً.
ينكحُ الموجَ بحلمٍ.
يرفسُ الرملَ.
ويبكي ظلّهُ.
كي لا يسيرْ.
لم يكنْ يعلمُ حالاً.
حينَ أبقاهُ سؤالٌ فوقَ لسْعاتِ الهجيرْ.
يزرعُ الصبرَ على رقصِ تمارى.
في خمارِ الخوفِ مقتولاً أسيرْ.
وجهُهُ الملفوحُ بالنسرينِ والطيّونِ.
عفواً هذهِ الأحلامُ أمّي.
لا تخفْ منها أيا منبعثاً.
إنْ حملَ السيّافُ تاجاً.
إنَّ رأسَ الشمسِ مركونٌ على قمحٍ
وزيتونٍ و شيرْ.
صاحبُ التسعينَ قهراً يا أبي.
جاءتْ عصافيرُ الربيعِ.
النهرُ يمضي.
وخيولُ الساحةِ الحمراءِ تحبو.
سوفَ يثنيها الأجيرْ.
فاغتنمْ فرصتكَ الأولى من الليلِ.
فإنَّ الضعفَ لا يملكُ أسبابَ خلاصٍ.
حينَ تبدو لحظةُ الموتِ حياةً.
لا نداءً يستجيرْ.
فينامُ العجزُ في كسرٍ.
ويبقى في المدى عزمُ الشخيرْ.
لامستْ..نظرةُ التعريفِ.
لا يدري متى جاءَ صفيقٌ.
كي يبيعَ الحقَّ على سرٍّ جهيرْ.
وهنا استيقظَ إنسانُ جواهُ..
صاحَ من خلفِ ضياعٍ.
إنّني عزٌّ أميرْ.
فمتى موقعُ..دونَ سلامٍ.
والسماءُ الكوخُ.
والريحُ السريرْ.
ومضى يبكي إلى ما آلَ خيّالُ المصيرْ.
وجنى شرخَ خلاياهُ..
وصاحَ الموتُ بالصوتِ الأخيرْ.

2010/11/5

سوريا/حماه/ عقرب

البلغاري الخير
الى الرفيق الشهيد أبو بدر

علي حمدان الفالح

ولد الشاعر علي حمدان الفالح عام 1952 ، جذره من دلي عباس وعمقه العراق. هو شاعر من جيل السبعينات والذي تبلورت على يدي جيله قصيدة النثر في مطلع الثمانينات، حتى أصبح لها شأن كبير وهي القصيدة الحداثوية. عمل الشاعر منذ مرحلة مبكرة من حياته وتحديداً في النصف الثاني من الستينات في العمل السياسي، اعتقل وطورد من عمله حكم عليّه بالإعدام رمياً بالرصاص عام1976 . صدرت له ثلاثة مطولات: لقاء لكي القصيدة.. وللورد ذاكرتي (عام 1998)، أين اديرُ الوجه ولا وجه لي إذ ترحيلن (عام 1990)، والثالثة: صهيل البرق يشربُ نخب اغترابي (عام 2009).

انتظرنا الدخول
للوطن الموصد بالمخافر والمدافع والمخبرين
تنقلنا اللوازم وصف الرصاص
وعلى الأكتاف
علقنا الكلابات
نقرأ في سفر الخوف
المتربص فينا
صحائف جمع

قالوا: للخائف من درب
الصد... مارد
ابعد عنا
نحن أبناء الوثبة
يسندنا الرفقة من كوك
ونعم الفرقة
في تلك الحقبة البلوى
الصخور مدببة

الصخور سمرُ على الطريق الطويل
البارحة في ظل الدجى
تسللنا من وكر في القامشلي
والان على أرض كوماتي
نمشي
هدئي، هدنا التعب
تحسستُ رشاشتي وصف الرصاص
تثقل ألتاني الكلابات
نما في قدمي (الفركاس)
كنا نمشي في كوماتي
ونحن نؤدي النشيد
سنمضي .. إلى .. ما .. نريد
وأبو بدر ..
رمى من جزع في الوهاد بدلة بيضاء
وعدة للطبيب
وهو العابر من سفان منذ أيام
والفالتُ
من قبضة الجلف الكويتي
كان المهربُ مبتزاً
الشرطة حول الدار
ألست أنت القائل
من أنك بلغاريا مستغلاً شقرة شعرك
وملامحك الأوربية...؟
هات المال
جيبك ملأن
لم أكن أعرفه يومها

وما كان أبيض
ليل حمدان
شربنا الماء
اغتسلنا عند ماء العيون
أكلنا زوادة
كانوا كراماً أهل القرى
القاطع في كوماتي
وخلفنا الحد التركي
وصلنا لمفرزة أخرى
عقروا (بزنا) ، فأكلنا( )
هنا .. زاخو ...
الجبل الأبيض
تحضنُ الوافدين
بعدَ أن لفضت مدن الخوفِ
أبناءها
الطمث الراعفُ في الشجرِ لون ثياب
عشتار
فكان أمضاءاً
لرقتها ، وقسوة هذا الطريق
عشتار جففت ثوبها
وعند الغروب
صاحَ بها الادلاء
فواصلت رحلتها
تمرُ بها الايام دون أن تعرف أسماءها
تمسك نوبة الحراسةِ
تحت الثلوج وتوقظ أخر .. تلوها

)1(البزم: في اللغة الكردية يعني الماعز

قصة قصيرة

الراقصة

أحمـــــد خلـف

دائماً، كانت إيناس تزور محلتنا، تأتي متوردة الخدين ضاحكة العينين، والغمازتان توحيان لنا بشقاوة راسخة، قامتها المتناسقة الأطراف موزعة بين الطول المثالي والقصر المحبب الذي أعتدنا عليه، لم يكن التهذيب يعوزها، وحالما تصل محلتنا يتجمع حولها الفتيان اليافعون يعابثونها في أغلب المرات، وبضحكتها الخافته المكركره ترميهم بما تحمله يداها؛ غصناً ناشفاً، وردة ذابلة أو قلم رصاص، تأتي بهِ من هناك .. ودائماً تحمل بين يديها شيئاً، أي شيء تجده مناسباً ، لتعرضه علينا أو ترمينا بهِ، الأولاد والفتيان يتراجعون خطوات الى الوراء، ضاحكين بمرح جذل وقهقهات تغص بالحبور، وحالما تنحني لالتقاط حجر صغير، ترميهم به، أما أذا كانت تحمل معها غصناً أو مسطرةً أو كتاباً وربما علبة للزينة نافذة المفعول، يدها (بضة الساعد) ترمي القريبين منها، كنا نلحظ ذلك الخيط الرفيع من الحزم والعناد في نظرتها وثبات عينيها على من حولها.

ما الذي تبغيه من زيارة محلتنا ؟ أي غرض يحدوها لتحقيقه؟ لا أحد يعلم علم اليقين، ما نعلمهُ أن لها صويحبات من بنات محلتنا، تأتي إليهن بين حين وآخر، لكنها تمضي معنا نحن مجموعة الشبان والفتيان اليافعين الذين ينتظرون عند كل مساء مجيء زائرتهم بخطواتها الوئيدة الهادئة، وإصرارها على الوقوف معنا قبل أن تنداح داخل الأزقة، بثوبها العريض الهفهاف المطرز بالورود والألوان الزاهية، تغيب في دروب محلتنا ولا ندري إلى أين، شعرها الفاحم الكثيف يهتز في هواء المساء البارد المنعش، وعشرات العيون تلاحق هيئتها الرقيقة الناعمة التي تشبه نسمة خفيفة عابره.

لو سألت أي واحد منا أن يزيدك علماً عن إيناس، سوف يجد صعوبة في الحديث عنها كفاية، فهي ليست من محلتنا وان كانت

محلتهم لا تبعد عنا كثيراً بل تكاد المحلتان تبدوان لصيقتين ببعضهما، حتى قيل: سيأتي وقت يكون من الصعوبة التفريق بين الأثنتين، وبطبيعة الحال كنا أشبه بفريقين ينتظران لحظة التزاوج والاندماج أو الافتراق الأبدي.

لكن لا أحد ينكر حالة الهيام بها، وكان البعض منا يرى تعلقه بها أشبه بجنون العاشق بمحبوبته، وكنت واحداً من هؤلاء، واحداً مبرزاً في عشقه وحالة الوله والأنشداد اليها، لقد طوقت نفسي بجدار عازل أو بالحري بسياج من أجل صيانة المحبوبة كأننا خلقنا لبعضنا دون مشاركة الغير، أما البعض الآخر فقد ظل ينظر إليها كفاكهة محرمة لا يحق له أن يتمادى بحبه لها. وصرختُ في أحدى المرات :

– ماذا يحدث لنا يا أعقل الناس ؟ أنظروا ماذا فعلت بنا هذه الفتاة التي تأتي لزيارة محلتنا لتلعب وتمرح معنا،.. ولكن حين تنقطع إيناس عن المجيء لعدة أيام نكون كالقوم الضائعين منذهلين مما نفتقده من حرارة اللقاء بها وعذوبة نظرتها الحانية، عند ذاك وكلما أمتد الوقت واستطال الزمن، كنا نكبر ... ونكبر، وحين يطول غيابها عنا، كنا نخترع الأعذار لها لكن وحالما تظهر فجأة بيننا تعلن عن أسفها لنا وتؤكد أنها ستحاول إلا تخيب مرتجانا في زيارتها لنا، .. وفي خضم تدفق العواطف بادرها أحدنا قائلاً : ــ لا نريد لكِ غياباً طويلاً ، فقد أعتدنا على لقائك كل حين.

في ذلك الزمن ما كنا نحسب أننا نكبر بسرعة كما يقال، فقد كبرنا وأصبح لنا ماضٍ وذكريات وبعضنا ترك المحلة وهاجر، ساحٍ وسافر في أرض اللّه الواسعة، رحل الكثير من الأولاد والفتيان لما أصبحوا شباباً بالغين ونبت الشعر في ذقونهم، وظهرت لهم شوارب ولحىً . بقينا نحن الذين أصبحنا في أوج شبابنا، لم نغادر محلتنا ومعنا أستمر في العيش عدد من البنات ... تزوج بعضنا وأصبحت لهم بيوت تأويهم وصبيان وصبيات يحيطون بهم ونساء يعتنين بصحتهم وهندامهم، أما البعض الآخر منا فقد ظل وفياً لحلمه القديم في الوصول إلى إيناس ومعرفة ما جرى وحصل لها في ذلك الزمن العصيب، وتلك حكاية أبكت العديد من أهالينا، لكنهم لم يتمكنوا من ثني أصرارنا في البحث عنها، كم مضى من أيام لم نلتقيها ؟ كنا حين تطأ أرضنا ننظر إليها مولهين بذلك الوقار الذي تفرضه علينا، ونكاد نشم رائحتها الزكية تغمرنا بعطرها الآخاذ، في يومٍ من تلك الأيام، قال أحدنا من الذين فضلوا البقاء معنا، أنها رائحة الماضي تعبق بخطواتها المتأنية، وحين التفت الينا لم نكن قد أعطينا جواباً على كلامه، قال :

– أيها الماضي، أيها الماضي ماذا صنعت بحياتي ؟ . فقلنا له معاتبين :

– حدث هذا في الزمن الغابر، في وقت كان فيه الماضي واضحاً وجلياً، في تماديه بأيذائنا، ولا حاجة بنا ــ الآن ــ لكي نلعنه أو ندير عنه الوجوه .

في ذلك الوقت ، كانت إيناس تتفتح أمام عيوننا مثل وردة ناضجة، وكنا نتحلق حولها، كلما خطتْ خطوة ندية في الزمن ألرخي، الذي يحيط بنا، وهي بالطبع تعرف كم كنا متعلقين بها، رغم أنها ليست من محلتنا، لكننا أحببناها وواصلنا أنتظارنا لها، ولما أزداد غيابها عنا في المرة الأخيرة، تألمنا أشد الألم لأنها ما عادت حالتنا تعنيها، والحق، أن أرواحنا تاقت الى طلعتها الأريحية الضاحكة.. وأشيع عنها؛ أنها تعيش في أحياء فقيرة يصعب أختراقها أو حتى

دخولها، لذا، لم يعد يراها أحد منا، في الأحياء القريبة من حارتنا، .. وجاءنا شاب غندور الطلعة يرتدي قميصاً ضيقاً بسبعة ألوان؛ أنه شاهدها تدخل ملهىً ليلياً وتراقص رجالاً غرباء لا أحد يعرفهم من قبل، يأتون بسيارات فارهة ومعهم نساء جميلات باذخات في حضورهن القوي وسط حشد من رجال حديثي النعمة، فاز بعضهم بثروته عن طريق موظفين متنفذين كبار، ولما أختلط علينا الحابل بالنابل، قرر البعض منا (وبأصرار أن لا يتراجع عنه) نسيان أمرها مراعاة لحالتنا النفسية والصحية، وكان أحدنا يتساءل :

ــ ترى لماذا هذهِ المرأة دون غيرها؟

وقال آخر:

– ومن أين أتت هذهِ الثقة بها؟

وساد بيننا أعتقاد جازم في الا نثق بسواها، والا ستتغير أمور كثيرة قد تفوق طاقتنا على التخلص من هيمنتها على أرواحنا وقلوبنا الحائرة ،... والآن، جاء الوقت الذي عليها أستغلاله الى أقصى ما تستطيع أمرأة محبوبة من قبل الآخرين، ومع نفسي أعدتُ تلفظ أسمها وقلتُ : إيناس .. ثم كررتُ الأسم بصوت مسموع بل مندهش من سر الأكتشاف؛ أيْ. ناس. أو آس.. وهذهِ المفارقة المفاجئة في تركيبة أسمها جعلتني أفكر جاداً : ــ هل الأمر مقصود منذ البدء ؟ ووجدتُ الأسم مرتسماً في ذهني على أنه مجرد سؤال ينطوي على أصرار شديد بخلق نوع من بلبلة في الجوار ولا عجب أن أحدث الأسم نوعاً من الفوضى وعدم الأستقرار، ورغم هذا يظل الخلاف أمراً مفتوحاً على كل الاحتمالات، وقلت لصاحبي :

– يا أعقل الناس كيف لم ننتبه الى هذهِ البراعة في توجيه الاسم نحو غايته الخفية، أنظر كم يبدو الاسم معنياً بالمسألة كلها ؟

ووجدتُ متعة خاصة في تقليب أسمها ثانية وثالثة، تارة أقول : إيناس أو ناس، أو أضيف إلى هذا الشطر جزءه المفقود، إذ كيف يكتمل المعنى ويتناسق الاسم، لفظاً وغاية، ما لم أشر في كلامي الى جوهر المسألة ترى هل لها أبعاد غير التي نعرفها عن قرب ؟ .. عند ذاك، بدأ ضغط الاسم المشطور يخف عليَ ، وبدل ان يخلق هذا حيرة في الرأس، أصبح مدعاة الى راحة نفسية، وقلت : ــ لا عجب أذن، ما دام كل شيء أنجز التفكير فيه، حتى على مستوى أن تكون أسماؤنا حاملة أعباءنا نيابة عنا، سوف نلجأ مضطرين إلى تبديل بعض أسمائنا أو علاماتنا وربما بيوتنا أو مخابئنا مقابل الوصول الى المعنى أو جوهر المرمى، ورغم ازدياد الإشاعات اللعينة حولها، وعن ترددها على أماكن تثير دهشتنا، فأننا ما تخلينا عنها قط، فمن قائلٍ أنها تأتي السوق القديم الى الأشاعة القاتلة في أنها أخذت تتردد في الآونة الأخيرة، على أحد الملاهي الليلية، عند ذاك، حزمتُ أمري في الوقوف على ما يجري وما يحدث، وسوف أبدأ مشواري من السوق القديم، كان معي صاحبي الذي لم يتخل عني في الظروف العصيبة التي مرت بنا، وعلى خلاف كل الرواة ظل ــ صاحبي – يستمع الى ما يشاع عنها وهو كظيم شبه غاضب، ناشف الروح كأنه قُدَ من حجر، وقال لي؛ أنا معكَ في مشوار السوق، لكني لن أصل أرض الملاهي. هل تفهمني؟.

وحركتُ رأسي علامة الموافقة وليس الأتفاق، ولما وصلنا السوق رحنا ندخله من ابواب متفرقة، ورأيت من المناسب الوقوف عند ناحية بارزة والنظر الى وجوه النساء، غير أننا لما طالت وقفتنا في مدخل السوق، وجدناها لا تليق بنا؛ أن نتجسس على

أحبابنا وأصحابنا، عندها عدنا أدراج الرياح كما يقال، أذ لا نفع من التحديق في وجوه المارة من أمامنا دون أعتبار لهم.

كان البرد شديداً يجتاح العظام، وفكرتُ في اللاجدوى من البحث عنها، ترى ماذا أفعل بسيل الذكريات التي أحملها معي أينما حللتُ؟ هل أدع كل شيء يأخذ مجراه ومسراه؟ ولا اشغل نفسي الا بما يخصني مباشرة من أمور حياتي؟ واين أصبحت حياتي؟ في السراء أم في الضراء؟ في الملاهي الليلية؟ أم في الأسواق الشعبية؟ لكن من يضع في رأسه حلماً جميلاً ويتخلى عنه، لن يجد ما يحلم بهِ بعد الآن. أذن، لا مفر من البحث لا كما يفعلَ الآخرون، أنما بأصرار نملة أدركت ضرورة ما تفعله في حياتها وتبين لي أني أقف في المكان الخطر من بوابة الملهى وبدأت وجوه الرجال والنساء تتدفق على الملهى الليلي، ما أكثر الملاهي الليلية في بغداد؟ كنت ألوذ في ركن من أركان بوابته الكبيرة، ورأيتُ أشكال الرجال تتقارب في ملامحها، بل أرى الواحد منهم يشبه صاحبه بل لا فرق بينه وبين الآخرين .. كم كرهت الرجال وعطفت على النساء باذخات الجمال والألق الواضح، لأنهن سلّمن أيديهن الى هؤلاء الأراذل من ذوي البطون الممتلئة والرؤوس الفارغة.

وفجأة التقت عيناي بوجه ممتليء، لرأس كبير وقامة قصيرة، تقدم مني وأصبحنا وجهاً لوجه، لوح ذراعه ودفعها نحو صدري بقوة أذهلتني، نادى بصوت أجش على أحد الحراس ليأتِ ويلقنني درساً في حسن السلوك والتصرف، وفعلاً جاء الحارس ملوحاً لي قبضته في الهواء مهدداً بالعاقبة الصارمة، وبدل أن يوجه اليّ قبضته الفولاذية، أخذني من يدي الى مدخل البوابة وشبح أبتسامة يطوف على محياه، هناك رأيتُ نساءً شبه عاريات ورجالاً ثملين بخمرة زهوهم كانوا يرقصون وهم في أوج نشوتهم وسط النساء ساحرات الجمال. كان الضوء الباهر يحول بيني وبين دخول صالة النساء المفتوحة على صالات أخرى، في تلك الصالة الواسعة حيث يستطيع المرء رؤية ما يدور على خشبة الرقص، رأيتُ نساءً جميلات يتحلقن حول الموائد، رأيتُ رجالاً يرقصون بثياب ملونة يغمرهم مرح مجاني ويغرقون في ضحك ماجن مجنون، كانوا يمسكون بعضهم البعض خشية السقوط نحو الأرض أو بين الموائد المليئة بالأطايب، أخذتني رائحة الصالات الصغيرة، العطور المختلفة التي تبعث النشوة والزهو في نفس الراقص، روائح الخمور راقية المنشأ والأضواء الخافتة، ضحكات النساء وتغريد حناجرهن بدلع وغنج يرددن مقاطع من أغنية يصدح بها مطرب أو مغنٍ أرتفع صوته بنغمة عذبةِ منسابة اللحن بين جوانحنا، .. أندفعتُ بين الموائد وضيعت نفسي بين أجساد الراقصين والعابثين يعرفون ماذا يفعلون في هذهِ العلب الليلية، التي حمي بها الوطيس؟، مسني أكثر من ذراع وأصطدم بي أكثر من جسد لينٍ لدنٍ طري رقيق يكاد ينثني ويتكسر بين أيدي الرجال مكشري الأنياب ... توقفت برهة خاطفة حين أبتسمت لي أحدى السيدات الأنيقات، حدقتُ بها مبهوراً، وتحركت شفتاي تلفظان أسمها بصيغة الهمس والمعرفة القلقة من الوقوع في الوهم أو الخطأ، لكني تراجعتُ مذعوراً، لما رأيتها تحتمي بقامة رجل يتخبط في أندفاعته ..

بأتجاهها والسيدة تشير بحركة تحريض ضدي، تلك اللحظة دفعتني سيدة في الأربعين من عمرها بعيداً عن طريقها، ولما توقف أمامي رجل كهل يراقص فتاة في العشرين من عمرها، تراجعتُ الى الوراء

وحاولت الأختفاء من تزايد الضغط على روحي، غير أني بدل التراجع نحو صالة أخرى، تقدمت (بعناد وإصرار) من الرجل الذي يطارد الفتاة التي همستْ شفتاي لها، إيناس، لم أهدأ، بل لوحتُ يدي في فضاء الصالة، وسددتُ لوجهه صفعة مدوية، جعلت أركان الصالة، تهتز حدث بعدها عقاب صارم لم أكن أتوقعهُ قط ..

لم أستطع الهرب من عشرات الأيدي التي أشبعتني ضرباً مبرحاً، حتى تيقنت أني صائر إلى الموت، ما دمتُ أحلم برؤيتها أو أمني النفس بلقائها المرتقب.

مطبوعات وصلتنا

- **د. صالح ياسر حسن /الاقتصاد السياسي للأزمات الاقتصادية في النسق الرأسمالي العالمي/ دار الرواد المزدهرة، بغداد 2011**
- **سلمان الجبوري/ للقصب ألف حنجرة /شعر/ بغداد 2011**
- **سالم محسن /نجمة الوقت / شعر / 2011**
- **إبراهيم الحريري/يارا (طقس الدم)/ رواية قصيرة، بغداد 2011**

ثياب الدفن

سلام حـــــربـــــة

انـا من مـدينـة في شمـال خـط الاستواء..كانت تسمى من يوم نشأتها قبل الاف السنين بأم البلابل فقد كانت تغفو البساتين الكثيفة على ضفتي نهرها ويختلط فيها الغناء والموسيقى وصوت الطبيعة ، ابتلينا بمرض في السنين الاخيرة لا نعرف سره، في كل يوم جديد نصحو على بيت قد أُصيب افراده السابحين في السراب بالصم والبكم، واللغة عندهم تسيل وتضمر وتذوب في فم النسيان وتقايض حروفها باشارات من اليدين وغمز في العيون ورسم التعابير في الوجه ،حتى ان البيوت الناجية من الاصابة اصبحت الان تعد باصابع اليد وحين تُذكر يلهج اللسان بالايات القرآنية والتعاويذ الحافظة ويحرس دخان الابخرة الملونة عتبات بيوتها.. لم تنفع وصفات العراف وحروزه، الغريب عنهم والذي جاء المدينة قبل عدة سنين، في درء الخطر عن حواسهم وكلهم من اتباعه يلثمون تراب اقدامه ويفتدونه بأرواحهم ان مسه عارض مفاجيء او مكروه ،لم يستطع الاطباء تشخيص المرض لحد الساعة، هل هو فايروس معد ام لعنة سماوية ام انشطار فكرة خبيثة غزت عقول الناس وفعلت فعلها فاصيبت مراكز النطق والسمع والتفكير بالموت وامتدت اليها يد الغانغرينا ففاحت رائحة العفن من انفاس الناس ومسحت البريق من العيون..؟ لم تنج من هذا المرض طيور السماء ودواب وحشرات الارض وتقطعت اوتار حنجرة الطبيعة وسقط الاطباء في فخاخه على الرغم من استخدامهم للادوية والمطهرات وتحصين انفسهم بلقاحات الامراض التي تصيب الانسان والحيوان وحتى من الامراض المنقرضة قبل مئات السنين، ولاحق اساتذة الجامعات وطلبتها وهم يرطنون بنظريات العلم وابتكاراته فتقطرت مع لعاب افواههم الاوهام وحكايات العجائز السمجة وداهم المهندسين الذاهلين في معاملهم فجعل مكائنهم الصدئة تدور

في الفراغ تطحن اطنانا من الهواء وتنسج اردية للخرافات التي غزت المدينة ..خارت العزائم وتيبست البطون وتساقط المثقفون المتأبطون للكتب فبان الماء الاسود في بصيرتهم بان اختلط الواقع بالحلم لا تفهم من ايماءاتهم سوى ضمور اليقين والوعي..كان والدي كبير المدينة وشيخها يتفطّر قلبه ماً وهو يرى حال قومه وهم يتقاطرون عليه فاغري الافواه وعيونهم مصلوبة لا تدل على نبض الحياة فيهم سوى ايماءات ايادٍ متخشبة واصوات مبهمة يقطر الذل واليأس منها، بح صوت ابي ووهن من الدعاء والرجاء ان يمنّ الرب عليهم ويرتق الكلام من جديد على الالسن الملساء ويطبب الاذان الصدئة بمراهم الاصوات الساحرة..كان ابي يمتلك صوتا جميلا تصحو عليه المدينة منذ قرابة الثمانين عاما..فبعد ان تنسحب اخر فلول الظلام وقبل ان تلتف ضفائر الشمس بين سعف النخيل وينصهرا في عناق طويل ينطلق صوت ابي وهو يغازل جسد الارض بانامل مسحاته اللدنة فتجيبه الطيور في أعشاشها بزقزقات طويلة، وتتراقص على صوته اوراق الاشجار وتتفتح الازهار وتسكر النفوس بشذاها المعتق في تويجات قلوبها ،والماء يمشي في السواقي وهو يتمايل طربا وزهوا وخريره العذب يعاقر جذور الاشجار كؤوسا من اللذة والارتواء..وحتى الحشرات والزواحف وهي تتدثر باعشاب الارض لا ترتضي ان يطل صباح جديد دون ان تطوق جيده باعذب ما لديها من الحان ومن شفرات غواية تستميل ذكورها بها اناثها المتمنعات.. كان والدي يتأمل هذا العزف الهارموني الشجي تطلقه فرقة الطبيعة الفطرية يقودها كمايسترو حب الحياة ويديم كبرياءها الابدي كون وجودها ضروريا وليس عبثا..كان يردد على مسامع قومه دائما..

– حقا ان الطبيعة تغني..منها تعلم البشر الطرب والموسيقى..

في مضيفه الكبير، والذي لايبعد سوى مرمى بصر عن نهر المدينة المتسابقة موجاته الصامتة نحو حتفها المعلوم،بنوافذه الكبيرة المشرعة على نسائم الماء الندية تطوق اركانه الثلاثة الارائك الخشبية المفروشة بالسجاد الوثير..جلس ابي تسند شيخوخته الوسائد الناعمة تحيطه ثلة من الرجال الذاهلين الذين لم ينبت المرض في حواسهم بعد..كان يفرك حيرته بيديه والحوار العقيم في العيون افصح كلام عن عجزهم..تكلم احد الرجال وهو يقترب من ابي سنا..

– الا ترى ان هذا المرض اقترن مع حضور هذا العراف الغريب الى مدينتنا ولا سيما ان معظم المصابين به من جيرانه وكل المواظبين على حضور مجلسه..؟

ومض بريق في العيون كالشرر اللابط في بركة الرماد البارد.. قلّب ابي كلام الرجل برأس تهتز بين كل شهقة وزفرة ،طبخ جوابه بنار هادئة على مرجل تبصره ،اطال النظر الى الرجل كمن يقول ..كيف لم يخطر هذا الامر على البال..؟

قد تكون الحقيقة ملتصقة بانفاسك وانت لا تراها ولا تحتاج الا لرفة جناح كلمة لتبدو لك كم هي جلية وناصعة ..نهض من مكانه كالملسوع وملامحه الحادة يلمّعها ضراوة يقين صارم..نهض الرجال الاخرون..

– من يحب المدينة يتبعني الى بيت العراف..

في طرف المدينة الشرقي حيث بيت العراف بطوابقه العديدة وشرفاته وسياجه العالي تجمع حشد لا يعد من الفاقدين لحواسهم تضج الأرض بلوعتهم ،قد تلملم ملايين كِسَر الأصوات المستنجدة منهم وهم يتنشقون تراب ارض العراف السبخ ويمسحون وجوههم برياته الملونة وهي تطوق داره والذي بنوه بسواعدهم وغسلوا بشفاههم ودموعهم وعرقهم كل طابوقة فيه..اقترب ابي ورجاله من بيت العراف..مرق نفر من الحشد إلى داخل الدار ولم تمض الا دقائق معدودة حتى اطل العراف تضيء جسده البدين وقامته المتوسطة وجلبابه الداكن وشعره الطويل ولحيته الكثة المخططة بالشيب هالة من الصلوات المرقعة بحشرجة الأصوات..دعا العراف ابي والرجال الى دخول البيت بلسان تتقوس فيه الكلمات..رفض ابي، تقدم منه خطوات حتى ان ما بينهما لا يتعدى مترا من الريبة والظنون..سأله ابي بحزم..

– اخبرني حقيقة ما اصاب قومي..؟

كان العراف ينظر بملامح جامدة وعينان لا تفارقان ابي ،لم يرمش جفنا حتى لا تفلت منه ومضة زمن آسر فتتيه كلمة موعودة اعددها في سجل ذاكرته ، حطت ضحكة طائرة على ذقنه وصعدت على مدرج وجهه لينفتح فمه ملىء شدقيه عن قهقة عاليه ارتجت في اذان اتباعه الصماء فاندلقت السنتهم من الضحك وتمرغ جمع غفير منهم وهم يمسكون بطونهم خوفا من ان تنفجر ،اجابتهم نظرات العراف بالرضا والعرفان فتلبد الفضاء بشخير يشخط الاذان ..صمت العراف فجأة ..صمت الصم والبكم..تقدم العراف من ابي خطوات حتى ان ما بينهما لا يزيد عن نفسٍ واحد..عيناه تقدحان شررا..يداه تعبثان بمسبحتة الطويلة السوداء المتدلية على صدره..تكلم بعصبية فضحت لكنته الغريبة اكثر..

– هل تعرف البلاد التي لم تكن تغيب عنها الشمس ولا يفارق لياليها القمر في الماضي..؟

اخذت ابي نوبة من التفكير..اجاب وهو يلوك كلامه بتأن..

– ومن منا لا يعرفها..انها بلاد بعيدة..لم ارها ولكني سمعت عنها من جدي الاكبر..

ارتسمت على وجه العراف ابتسامة ساخرة ..عيناه الحمراوان تلطخان بالدم فواصل كلامه..

– جدك الاكبر..! اتعلم ماذا فعل بنا جدك الاكبر..؟

سأله ابي قبل ان يلتقط انفاسه..

– ماذا فعل..؟

– لقد ادار رؤوس قومي ،الغرباء عنه، وصدوا عنا منذ ذلك الزمان..لقد كان جدي الكبير شيخ البلاد حين قدم جدك الينا..لقد اصابت حكمته وكلمات الكتاب الذي بين يديه حواس قومي في الصميم ولم يعدوا يسمعون او يلهجون بقيمنا وعاداتنا وعقائدنا القديمة..

الحزن مسح وجه ابي ..سحب نفسا عميقا ..التفت الى الوراء ،عيناه مضببتان بهالة من الاسى تألم لمظهره الجزع رجاله المحيطين به..اجابه بوهن..

– الم يكن هذا جيدا..؟

تقلصت ملامح العراف من جديد ..اصابعه كانت تفرك بقوة حبات المسبحة..زعق بصوت عال..

– جيد..؟ لقد تبلبلت عقولهم ..اتعلم ماذا عمل القوم بجدي الاكبر..؟ لقد قتلوه شر قتله ونحن توزعنا في الشتات..انا اخترت العيش في مدينتكم لاعيد مجد اجدادنا وازرع في ابنائكم بعضا من عقائدنا وقصصنا واساطيرنا الموغلة في القدم قبل ان تموت..انا سيد المدينة الجديد وكل هؤلاء هم اتباعي الصالحين والويل كل الويل لمن يقف في طريقي..

اجابه نفر من الرجال وراء ابي..

– ولكننا نريد ابناءنا ..انهم قبور تمشي على الارض..

ضحك العراف منتشيا..

قال بثقة..

– لقد خرب جدكم الاكبر حياتنا وها انا ارد له الدين..علة لن تشفوا منها ابدا..

اطلق العراف ضحكة مدوية..تصادت في الاذان الطرش وانتفخ الفضاء بالكركرات والادعية المثلومة وترطب وجه الارض بالقبل وهي تلاحق خطى العراف المجنونة حتى مكان جلوسه داخل البيت ..

بقينا واقفين وقد الجمت الحيرة خطواتنا..الفراغ يطن في الافاق..

احنى ابي راسه العاجز وانخرط في بكاء محموم..

في اعدادنا القادمة :

- عن المسرح الشعري
- (حوار مع عبد الكريم كاصد) خالد السلطان
- اعتقني من مهزلة فقدانك / شعر / علي ابو عراق
- هو الزعيم / مقالة / عقيل الناصري
- الاستاذ/ قصة قصيرة / محمد عباس علي

قصص كردية

نـزار محمـد سعيـد

نـزار محمد سعيـد من مواليـد مدينـة دهوك عـام 1952، عمل في مجالي التدريس. اختصاصي في حقلي التنمية الثقافيـة والبحث الاجتماعي من مدرسة اوتريخت العالية بهولندا، كما عمل منسقا تنفيذيا للاعلام لدى المعهد الدولي لشؤون المهاجرين في مـدينة هارليم بهولندا. صدرت له مجموعتان قصصيتان هما: (الطـاحونة) و (صهيل الجبل الابيض)، كما له مجموعة من الكتب معدة للطبع تاليفا وترجمة تشمل حقولاً معرفية متنوعة.

كلنا متسولون

تحركت جمجمة علي زجاج ، الزجاج فوق طاولـة كبيرة ، شيخ طاعن في السن ترتجف عصـاه علـى سجـادة الغرفـة، عينـاه كـانتـا ملـتصقتين بالجمجمة. حشر قدميه المجمدتين في حذاء مـن البلاستك ، سـاقاه تـبدوان في سـرواله القـصيـر كمـا لـو أنهمـا قـصبتـان، وحـزامه العـريض علـى وسطه لا يمـنعه من سمـاع قرقرة بطنه.

يلبس عـددا من القمصان فـوق بعضـها البعض، الـشعيرات الـرماديـة المتقوسـة على صدره العاري تصارع بـرد الشتاء القارص، وقـد لف (يشمـاغ) علـى رأسه ووجهه الـذي يبدو منه عينـان غائرتـان شبه مظلمتين وأنف معقوف .

كفه يـشبـه المـــذرات، ورأسه تفـــاحـــة ...بروارية... تتدلى من غصن مكسور.

عـجوز لا تمـشي دون أن يقـودها أحـد، تقف بـجواره وكـأنهـا شجـرة ميـتة . آلاف كـهؤلاء تراهـم يتحركـون في جوف هـذه المدينـة التي تغدو مدينة أشباح بمجرد أن يحل الظلام.

نـزل شخصان من سيـارة سوداء، وما أن ألفياهـما أمـام باب الجـامع الكبـير للمدينـة حتـى أسرعـا إليهـما واقتـادوهم رفسـاً نحو السيارة واحدا إثر الآخر .

رمقه من حذائه حتى يشماغه المتهرئ :

– هو .. هـو بعينه ، أيهـا الخال مـعذرة ألست الحـاج عبد اللّه ؟ قـالها أحـدهم الذي

كان جالسا ، يبدو من هندامه أنه من أهالي المدينة. رد عليه الشيخ قائلا :

– كلا .. لست .. ها أنذا أمامك تراني متشردا فقدت كل شئ . تحركت الجمجمة على الزجاج وقالت :

– أخشى أن يكون الرجل أحداً من معارفك يا أستاذ ؟

– وهل من أحدٍ لا يعرف الحاج؟ ، كلنا مدينون لخبزه وملحه، إن كنت تهديه تمرة كان يهديك بدلها فرسا ، هكذا كان الحاج. خيرا ما أمره .. ماذا فعل ؟!

– لم أفعل شيئا واللّه. قال الشيخ. تحركت الجمجمة وهي تحدج الاثنين معا بنظرة ساخرة وقالت بجفاء :

– هذان يتسولان، إنها فعلة سيئة أدمنوا عليها، هؤلاء وأمثالهم يشوهون صورة البلاد، لاسيما لدي الأجانب. ماذا يقول هؤلاء بحقنا ونحن فوق بحر من النفط ! وننعم والحمد للّه بالأمن والطمأنينة والرخاء والرخص و .. و .. و . أنا لا أفهم ماذا يريده الناس منا ، فحتى دجاجاتنا لها رواتب مقطوعة أيضا؟ !!

– صدقت .. وهل يمكن لأحد أن ينكر ذلك ؟ قالها الجالس. انحدرت دمعتان نحو شاربي الشيخ الكثيفتين، رنا الى الشخصين الجالسين بعينيه الدامعتين فلاح له أحدهما وكأنه جمجمة والآخر شبحاً مخيفاً !! ثم أطلق صوتا مبحوحا متوسلا:

– ليكون اللّه في عونكما ويجزيكما خيرا، أعطونا من مال اللّه لنرحل ، فإننا لا نقدر الوقوف كثيرا علي أقدامنا كما ترونا.

– أنتما لن تبارحا هذا المكان، وستودعان السجن.

قالت الجمجمة :

– لم نقترف ذنبا يدعو الي سجننا، واللّه لم نفعل شيئا يسئ للحكومة ! قالها الشيخ بصوت واهن ، فردت عليه الجمجمة بشئ من العنف :

– من يقل إنكما لم تفعلا شيئا؟ ماذا تريدان أن تفعلا أكثر مما فعلتما؟ أجابه الشيخ وهو يتنهد:

– لم نر سبيلا آخر ندفع به الجوع عنا، هذا ما قدره اللّه لنا، وأعلم إننا لسنا الوحيدين ! يهب الناس لنا ما تجود به أيديهم وعن قناعة ، دينارا أو دينارين ، نحن لم نستجد ذهبا كما يفعله بعضهم !! إن تكن حقا أبن أبيك، فستودع الآخرين أيضا السجن معنا ! فالحيوانات كثيرة منها التي تأكل لحما، لكن الذئب وحده سيئ الصيت بين الناس كما يقول من سبقونا !

جمدت هذه العبارات الجمجمة، ضرب الزجاجة بقبضته وحرك أصبعه بعنف في وجه الشيخ وصرخ :

– وإن لسانك طويل.

– أنا لم أقل شيئا.

– سأقطع ذاك اللسان.

– ومن قال لك إنك لا تقدر على ذلك .

– وسأفقأ عينيك الاثنتين معا !

– أنت تقدر أن تفعل كل شئ ، ولكن ضد من هم من أمثالي !

– أتدري .. أنت لا تدري ما يجره عليك لسانك الطويل من وبال !

– لم أقل شيئا فيه خلاف أشار بيده التي تشبه المذرات نحو الجالس وأردف قائلا: قل أنت أيضا شيئا أيها المسلم، انطق.

– إنني ضيف هنا، والحكومة أدرى بمهامها، إنه واجب الأستاذ ! قال الجالس بجفاء مشيرا بيده نحو الجمجمة.

ضغط صاحب الجمجمة على زر الجرس، قطع على الشيخ حبل دوامة التفكير بما قاله قبل لحظات.

– نعم سيدي . قال أحد أفراد الشرطة وهو يؤدي التحية لصاحب الجمجمة.

– خذوا بصماتهما وخذوا منهما تعهدا بعدم معاودة الفعلة ثانية، ثم فتشوهما جيدا !! قالت الجمجمة .

عصاه كانت تسير قدامه، العجوز تشد بقوة طرف سترته رافعة يدها الأخرى وهي تتمتم بشئ. وعلى عتبة الباب الرئيس لمركز الشرطة وسط رجال مسلحين على جانبيهم تعثرا على بعضهما وسقطا أرضا ثم نهضا وجعلا يجرجران قدميهما، بحثا عما في جيوبهما، وما أن وجداها خاوية حتى رفعا أيديهما نحو السماء وهما يدعيان للحكومة كما تدعي لها أمهاتنا جميعا في صلواتهن الخمس !

الدماغ

ذات يوم كانت سفينة تمخر عباب البحر في رحلة طويلة، على متنها ركاب على إختلاف مشاربهم ومستوياتهم وألوانهم. فمنهم الأبيض والأسود والحنطي والأصفر، منهم علماء وأطباء ومهندسون ومن بينهم ترى أناسا سذجا ومجانين أيضا.

هاج البحر على حين غرة، فتلاطمت أمواجه العاتية لتقذف السفينة يمينا فشمالا، قداما فوراء. فيما كان الركاب ملتهين كعادتهم بالرقص والشراب واللعب. يعربدون ويصرخون ويولولون غير آبهين بما يحدث حولهم وما سيؤول إليه مصيرهم في أية لحظة.

وما أن حل الظلام وسكر الجميع حتى تعالت الأصوات وصمت الصرخات الآذان ثم إختلط الحابل بالنابل، وإشتغلت اللكمات والعصي وتقاذفوا بالكراسي والطاولات وكل ما تقع عليه أيديهم، فسالت دماء كثيرة.

كان طاقم السفينة والعاملون على سلامة الركاب في حيرة من أمرهم، فهم لا يخافون جنون البحر وهيجانه بقدر خوفهم من الركاب الغاضبين. فقد عملوا ما شاؤوا لتهدئة الوضع ودرئ الخطر المحدق بهم وذلك بإشراك الجميع ولكن دون جدوى .

حينها خطرت ببال أحد أفراد الطاقم فكرة وافق عليها الجميع وبدءوا بتنفيذها في الحال. ومفادها هي أن يحجزوا أدمغة الركاب يجمعوها في مكان ، ليعيدوها إليهم حين وصولهم بسلام وأمان إلى وجهتهم .

ففعلوا وإستجاب الركاب إلا واحدا ، كان كث الشعر، طويل اللحية، عليه ثياب رثة قديمة، لا يعلو عليه أحد ممن في السفينة في طول قامته. أبى أن يحني قامته لأفراد الطاقم كما فعل الآخرون، وهاج كشرارة رعد غاضبة صارخا بصوته الجهوري في وجوههم :

– لم أقترف معصية لأحصل جراءها على عقوبة؛ لم أشرب الممنوعات، لم أسرق، لم أقتل أحدا، كان يفترض أن تعزلوا أنتم في مستشفى المجاذيب الذي خرجت منه لتوي.

ما أن سمع أحد أفراد عائلته صراخه حتى هرع إليه، دنا من كبير الطاقم وهمس في أذنه متضرعا :

– دع الرجل إلى حال سبيله من فضلك، فانه يكفيه ما لديه من المصائب ! وأخشى إن ألحت عليه كثيرا أن تنتابه حالته فيفقد توازنه ويقتل أحدا منكم، فيزداد الطين بلة.

فرد عليه الرجل غاضبا :

– إسمعني جيدا، نحن لا نستثني من الإجراء أحدا، فسلامة الجميع مسؤوليتنا، وأرجوا أن لا يعلمنا أحد كيف نتصرف وكيف نقوم بواجبنا .

واصلوا عملهم وجمعوا أدمغة الركاب جميعا في مكان تحت حماية رجال أقوياء. إنتاب المخبول هاجس خوف من الآخرين المتوحشين بنظره، في أن يستحوذ أحدهم على دماغه، ما دفعه لأن يقف قريبا من مكان حفظ الأدمغة جامدا كما لو أنه تمثال !

رست السفينة في آخر المطاف سالمة، فنودي الركاب فهرع كل نحو المكان.

أمر كبير الطاقم المخبول أن يأخذ دماغا من بين الأدمغة يختاره هو مكافأة له على حسن سلوكه طيلة فترة الرحلة. فتقدم مذعورا وجعل يبحث بين الأدمغة فاحصا متقلبا إياها حتى توصل إلى دماغه، طار من الفرح فأطلق دويا ... وجدته.. وجدته ... !

وضعه في رأسه ونظر مبتسما إلى من حوله نظرة ساخرة ومضى وهو يدندن إحدى أغنياته المفضلة، ثم صفق فرحا وطفق يرقص رقصة متناغمة سريعة على إيقاع ضربات أقدامه القوية وهو يتمايل مع ميلان السفينة.

القفاز

كانوا يمشون حذرين بدرب من دروب المدينة الظلماء. وعلى حين غرة لمحوا شبحا وهو يهم النزول من سور إحدى الدور، فسحبوا في الحال أقسام بنادقهم الرشاشة وشقت صرختهم سكون الليل :

– قف .. لا تتحرك .. إرفع يديك !

وقف مذهولا مذعورا يحدق بعينيه المتسعتين المرتابتين أشباحهم واحدا إثر الآخر، وشرع خافقه يلج الفزع ، ينتفض في صدره . وسرعان ما أنار مصباح يدوي يداه المرفوعتين ووجهه ، وما أن رؤوه يلبس قفازا حتى أنزلوا فوهات بنادقهم نحو الأرض.

– ما لك والقفاز في هذا الليل الصيفي! صاح أحدهم مقهقها مركزا مصباحه على وجهه .

– يترآى لي أنك حديث في هذا المسلك! فتشوه فإن لم تجدوا في حوزته "السياسة " ، دعوه يذهب الى حال سبيله ، يبحث عن رزقه !! قال الضابط مبتسما.

الصهيل

– لا ، سوف لن أبرح القرية ، الى مدينة الرعب، درب الذهاب واللاعودة .

– ولدي، لقد نفذت مؤونتنا، وأباك تراه طريح الفراش، لا حول له؟ ولا قوة .

إستعدت للرحيل، ليس في اليد حيلة، حزمت سرج الفرس وأدرت ظهري للقرية .

سرنا من الجبل الى حيث السهل ، يقال بأن هناك خبز وفير.

في الطريق تناثر على شفتي رحيق أزاهير التفاح وعلى أهدابي غبار الطريق، حنجرتي كانت تدندن لحنا جبليا حزينا .

كنا نسمع أصوات طيور القبج، حتى وصولنا الى أطراف المدينة. ومن حين الى آخر ، كان الفضاء يغص بخفق أجنحتها.

الظلام ما فتئ مسيطرا على الدرابين، أصوات الديكة، وصوت قوائم الفرس الذي يشبه؟

ثلج الجبل ، كانت تكسر صمت المدينة الغافية.

المدارات تضيق في راسي وتتناسل الأسئلة ، وفي عيني فرسي ترى تعبيرا لألم لا يوصف .

وعلى حين غرة طرق الى سمعي صوت صرخة لا أفهم لغتها، بعدها هرعت نحوي ثلة مدججة من إحدى الدرابين، كانت سحناتهم غريبة ، مثيرة. توقفت مذهولا مذعورا، أتفرس وجوههم القاسية بعينين مرتابتين .

تخدرت قدماي ولم تعدا تمسكان الإسفلت، وصدري يعلو ويعلو، يعب الهواء بقوة ، قلبي بدا ينتفض في صدري، وطفق الهلع يتسرب الى دمي، كما لو أنه سم زعاف.

فرسي الذي يبدو وقد أهلكه؟ الإعياء، لكاني به يعلم بأن هذه نهايتنا.

أحسست ذلك من صوته؟ المبحوح ، فقد كان صوتي باهتا في أذنيه، يتلاشى قبل أن يلتقط فحواه.

وعلى أية حال ، فقد فسحوا لنا المجال، لأن تدق أقدامنا لبعض الوقت درابين المدينة، ثم هوينا كما تهوى صغار العصافير من أعشاشها العالية.

نهضت فهويت ... هويت ... نهضت ... هويت ودوت من فوهة حنجرتي آخر صرختي. وجعل فرسي الذي يشبه ثلج الجبل، يصهل دون انقطاع، يصهل ولا يعرف لغة أخرى سواها .

تنامي البنية الجمالية في تكوينات الخط العربي

الـــدكـتـــور جـــواد الـــزيـــدي
الاستاذ المساعد/كلية الفنون الجميلة / بغداد

تختلف مدرسة الخط العربي عن المدارس الفنية الأخرى في سياقها التراكمي، الذي يعتمد تنامي بنية الشكل الفني، إذ أن حلقاتها الأولى لا تنفصل عن الحلقات اللاحقة. بعكس ما هو مألوف في حركية الفن، الذي تقوم مدارسه على أنقاض بعضها الآخر المندرس وأن أفادت من تقنيتها وأدواتها، إلا أنها تجترح خطابها المغاير والمفارق.

وهذا ما لم نشهده في حركية الخط العربي، بوصفه مدرسة لها مميزاتها وغاياتها سواء كانت وظيفية أو جمالية معبرة عن روح النص اللغوي المتشكل، الذي غالباً ما يكون نصاً قرآنياً حاملاً لدلالة المعنى التي تتمظهر على هيئة بصرية من خلال التراكيب الفنية بمستوياتها المتعددة سواء كانت ثقيلة أو خفيفة أو تراكيب ايقونية أو هندسية.

وبهذا الفعل المتنامي عبر قرون من الاشتغال والحفر في منطقة الحرف العربي تكمن إمكانية تجويده بعد أن اكتملت أصوله القاعدية أو الإصلاحات، التي طرأت عليه مثل الاعجام (التنقيط) في القرن الهجري الأول، أو ضبط الشكل في القرن ذاته.

وبمقاربة بسيطة لهذه المسيرة الطويلة نجد أن ملامح تجليات الحرف العربي بشكله الفني (الخطي) في القرن الهجري الأول ترتبط بسلسلة من التطورات دون انقطاع مع ما توصلت إليه بنية الشكل الجمالي في القرن الرابع عشر الهجري وبدايات القرن الحالي، وهذا ما يدعونا إلى مراجعة هذا النمو وأسباب التفرد في التواصل وبدون قطيعة تذكر في أي من مفاصله الزمنية مهما كانت الظروف المحيطة بهذا الفن، يدعم ذلك جهود الخطاطين وقناعاتهم بانصهار الذات الإنسانية مع

الذات الإلهية وهذا ما يكون حافزاً كافياً لوفرة الإنجاز والابتكار الفني بعيداً عن الذاتية، التي تحيل هذا الفن أو ذاك في كثير من الأحيان إلى شيء مرتبط بالنزعات المزاجية للفنان، وقد غادر الفنان المسلم هذا التصور في ضوء الخلفية الإيمانية، التي تتملكه وينضوي تحت عباءتها، فضلاً عن أسباب أخرى غير بعيدة عن الحاضنة الإسلامية ترتبط بكراهية الرسم والابتعاد عنه، مما جعل الفنان المسلم يفكر طويلاً ويتأمل حروفه العربية المخطوطة وإنتاج سبل تصيّرها الجمالية، ويقرن إبداعه فيها، مما جعله ينزع في كثير من مفاصله الزمنية إلى تطوير هذا الحرف ضمن بنية شكلية مرتبطة بآلية الرسم مرة من خلال التكوينات الايقونية والهندسية أو التراكيب الثقيلة والمتعاكسة وتشكلها على هيئة رمزية من جراء إشارات النص الداخلية، التي تتيح له استثمار هذه الدلالات لتأسيس منظومة علاماتية، تحتكم على مهمات الخط العربي مجتمعة بدءاً بالقرائية، والتعبيرية الجمالية، إنتهاءاً بمنظومة الدلالة وارتباطها بمضامين النص.

كل هذه الأسباب فتحت الباب للفنان المسلم وللخطاط على وجه الخصوص لأن يبتكر أنواعاً خطية جديدة وبنى شكلية أخرى مثل الحلية النبوية والتراكيب أو الطغراء وصولاً إلى التكوينات الحرة، التي تحررت من قيود البنية التقليدية في هذا الحقل الفني، وبحساب ما توصلت إليه هذه المدرسة عبر مفاصلها الزمنية وإن اختلفت مكانيتها نجد أن تنامي البنية كبير جداً ومختلف في ظواهره وأن انتمى إلى ذات الجوهر الخطي من حيث تشريح الحرف نفسه أو أصوله القاعدية وبنيته الجمالية التي تحققت عبر هذا التحقيب..

المبحث الأول: الإصلاحات الأولى.. بوصفها بنية جمالية:

تعد الإصلاحات التي طرأت على بنية الحرف المالك لأصوله القواعدية حدثاً مهماً في تعديل مسار الكتابة أو الأبجدية العربية، التي كان الخط العربي تمثيلاً بصرياً لها، وإن كان هذا الحرف بهيأته الأولى اليابسة، التي تفرعت منها أنواع الخط الكوفي عندما جوّد في مدينة الكوفة، ولكن إضافة الاعجام أو (التنقيط) و ضبط الشكل* من خلال الحركات الإعرابية سيضيف قيمة جمالية على بنية الحرف نفسه خارج حدود المكملات الزخرفية اللاحقة. فالنقطة بمفردها تحمل مدلولها الرمزي في بنية العقل العربي المسلم لما لها من أثر من تأسيس بدايات الأشياء التي تكون الكتابة منطلقها الأساس، فضلاً عن البعد الروحي، الذي سعى إليه الصوفيون وحاولوا دراسته على مبدئهم كونها تحمل معها بداية التكوين ووحدة قياس الحرف نفسه، الذي كان أيضا ذا مغزىً صوفياً روحياً وهو كذلك، لأنه عنصر مجرد خالٍ من ممكنات العالم المادي وعوالقه، بالإضافة إلى البعد الرمزي الروحي للنقطة فإنها حاولت إحداث تباينات على صعيد الحروف المتشابهة في الرسم وإغلاق الفجوات الفاصلة بين الحروف والفضاءات الداخلية للنص المكتوب، وكأنها حلي تزين جسد الحرف المشوق والممتد سواء كان بهيأته العمودية أو الأفقية أو المرسلة، كما كان لها دوراً أساسياً في تكوينات الخط الجلي ديواني عندما يملأ الخطاط الفضاءات البينية بها، وهكذا بدأت بنية شكلية تتشكل جمالياً في حدود العنصر المكوّن للأنموذج الخطي الذي نلحظ فروقات بنائه الآن، ومما يضاف إلى هذه البنية حدوث إصلاحات الشكل

التي أوجدها الخليل بن أحمد الفراهيدي في القرن الهجري الأول أيضاً، وهكذا بدأ ملمح جمالي آخر يضاف إلى بنية الحرف المنفرد، ليصبح السطر المشكل والمنقوط يحتكم على قدر من الجمالية تحفظها هذه الإضافات النوعية على بنيته. هذه الحركات التي اجتزأت من حروف وحسب طبيعة الحركة كان لها الأثر الكبير في تكثيف البنية الجمالية للخطوط العربية الحداثية، التي لم تكتف بها، بل زادت عليها حركات تزيين بوصفها مكملات زخرفية هدفها جمالياً تسهم في ملء الفضاءات الداخلية للنص المركب وبمؤازرة حركات الأعراب والتزيين أصبح للشكل المتصيّر قيمة توازي أو تفوق قيمة الأعمال الفنية من الحقول الأخرى، خصوصاً في الخطوط التي ظهرت في القرن الثالث الهجري مثل خط الثلث، الذي يحتمل أكثر من غيره لتقبل هذه الحركات بنوعيها المذكورين سلفاً. وهي خصيصة يشترك بها مع غيره مثل خطوط النسخ والجلي ديواني ودخول الخط الكوفي ضمن نسق بنية التراكيب الهندسية والايقونية على الرغم من تباين ظاهرة التقبل للحركات في الخطين المذكورين مقارنة بخط الثلث، وأن "لاستعمال الحركات (التشكيل) عند الخطاطين قاعدة مخصوصة كما أن وضعهم التنقيط على الحرف كيفية خاصة ومن المعلوم أن حسن الخط وجماله لا يظهر إلا بالشكل والنقط وبعناية تامة" . وبأكتمال ظاهرتي الشكل والاعجام أكتملت ملامح بنية جمالية أولى أسهمت في إثراء هذا الفن وحفرت شاهدته على خارطة الفنون البصرية، إذا ما عرفنا أن التأسيسات اللاحقة تضمنت وضع قاعدة الخط العربي وظهور الخطوط اللينة مثل خطوط الثلث والنسخ والجلي ديواني، التي فتحت الباب واسعاً أمام الخطاط وعددت خياراته، بما يتناسب وطبيعة النص المكتوب وتشكيله بطرق عدة بدأت بالسطر الكتابي وتحولت نحو التراكيب السطرية الخفيفة والثقيلة وانتهت بالتكوينات الهندسية والمرآتية المتعاكسة أو الايقونية.

المبحث الثاني: البنية الجمالية في التكوينات الايقونية:

أن محاولات الفنان المسلم واجتهاده في إيجاد صيغ إبتكارية نابعة من الحرف العربي ومتصلة به، لم تنقطع عن بعض المحاولات التي ذكرناها، بل امتدت عميقاً في جسد التشكيل الحروفي، وخصوصاً عند ظهور الخطوط اللينة والجميلة، التي يقف خط الثلث في مقدمتها، ففي البدء حاول الخطاط استثمار المكنات الحروفية في التشكيل وتوظيفها في الكتابات السطرية، إلا أن الحاجة إلى نمط آخر دعاه إلى التفكير بوسائل أخرى توصله إلى مراميه وأهدافه الجمالية إنسجاماً مع ضرورات داخلية قائمة على التعبير عن موجودات الطبيعة وتمثيلها، لذلك بدأ التفكير من هنا لتمثيل هذه الموجودات وأفصحت تجاربه عن كشف الحجب عن التكوينات التشخيصية (الايقونية) لإرضاء غرائزه الداخلية أولاً والتعالق مع بنية الرسم ثانياً، لذلك قام بتمثيل الطيور والفواكه والإنسان وغيرها من التماثلات المحيطة به وتشبيهها سواء كانت حية أو غير حية. وهذه الظاهرة تعني تحول البنية الكتابية إلى بنية صورية، تأخذ طابع قرآئي صوري، وقد أستهوت الخطاطين الذين يميلون إلى الإبداع الفني، وتعد نوعاً من الممارسات التي يراد بها إبراز مهارة الخطاط وتكييف البنية الكتابية إلى بنية

مرئية عيانية تتماثل مع الصورة. "وفي حالة التكوين الايقوني يتجاوز الخطاط صلته اللسانية ويتحول مادة للبناء الصوري، لذا فإن التشابك مع الموضوع يعد مرجعاً ينبع من صفة التماثل وليس من حاجة البنية الخطية ذاتها، وحتى في هذه الحالة فإن الطبيعة الايقونية تتأثر إلى حد جلي بخصائص البنى الخطية وتنطبع بطابعها"

ولهذا فإن الحاجة في أغلب الأحيان في موضوعات التشكيل الايقوني ناتجة من تأثيرات فن الرسم أو (التصوير) فيطغي على هذا الخط تكوينات أشكال من الخطوط الخارجية للشكل خالية من المنظور المجسم، تلك الظاهرة التي بدت تتسع في فنون الخط العربي، حيث التكوينات المجسمة في كثير من لوحات الخطاطين المعاصرين باختلاف مكانيتهم. فيؤسس الخطاط تكويناته الحروفية على مبدأ النص الكامل ذات المعنى المتطابق مع الشكل الإيقوني، إذ تتحقق فيها مطابقة (الشكل والمضمون) أي تحقق البعد الدلالي، الذي نقصده، وهذه الظاهرة من الظواهر التي تحتاج إلى مهارة خاصة وحساب دقيق للمساحة المراد وضع التكوين عليها أو الشكل الإيقوني المماثل للموجود الواقعي، وينتج عنها في بعض الأحيان تضحية في جمالية الحرف والاتجاه والنسب، والتسلسل الإملائي وعدم التقيد بالمواضع الصحيحة لبنية النص وفقدان سهولة القراءة، طبقاً لاستجابات الشكل ومتطلباته، وعندها تفترق لحظة المقروئية عن التمثيل البصري "لأن العين في الحالة الأولى لا تحتاج إلا إلى مجرد إدراك العلامات التي تلازمها دلالات معينة، وغنى الدلالة الناتج عن تأليف عناصر متمايزة، وهكذا فإن اختصار الزمن في القراءة الجارية يقابله العكس في التأمل البصري التشكيلي، الذي يستدعي وقوفاً أمام المعطى لمدة أطول" ، بمعنى أن هذه القراءة التأملية، هي لحظة جمالية ناتجة عن بنية شكلية مغايرة تتصل بالصفات الرمزية، بوصفها أداة بصرية/ إدراكية يمكن أن تعضد دلالة الكلمة أو النص من خلال التعزيز الصوري الناتج من شفرات النص الداخلية وإحالتها إلى ما هو إيقوني، ويصبح بمقدور المتلقي استيعاب دلالة الشكل آنياً، ولكنه يحتاج إلى وقت أطول لقراءة البنية النصية والوصول إلى مغاليق النص الرئيسة وإدراك رسالتها الاتصالية، كتحقق أولي، لأن التشكيل الخطي (الإيقونات المبنية) هي أشكال بصرية تقدمها النصوص*، باعتمادها على المادة اللغوية في صورتها العيانية، وهذه الأشكال تعتبر مجردة، لأنها لا تتلبس طابعاً إيقونياً صرفاً في بعض الحالات مثل الأشكال المربعة أو الدائرية أو الحلزونية، وقد يعد مفهوم البنية الخطية من إعتبار الكتابة شكلاً بالمعنى النفسي للكلمة، لأنها تجعل من الكتابة شكلاً لشكل آخر وعنصراً بانياً لوجود أو شخص، ويمكن أن ترتبط هذه البنية ببنيات أخرى لنفس الفرد (الخطاط) من أجل البحث عن تعالقها، وهذا ما ينطبق على كتابات الطغراء، التي بدأت شارة ملكية أو علامة سلطانية لكتابة اسم السلطان بخط جميل يكون في أغلبه من خط الثلث على شكل مخصوص، ثم كتبت على الأوامر السلطانية أو النقود الإسلامية، وتختلف تركيباتها على وفق كثرة منتصباتها (الألف واللام) أو قلتها بحسب طبيعة الاسم السلطاني، فالأول يكتب اسم السلطان ومن ثم تكتب ألقابه في الوسط. وعبر تتبع المراحل الزمنية التي أطلت بها علينا هذه التراكيب نجد أنها تتماثل مع بنية الرسم وايقونات من الواقع سواء كانت تكوينات تعتمد النص أو تركيب طغرائي لتصيّر الاسم، إلا أنها في النهاية أضافت

الشيء الكثير للمنظومة الخطية عبر هذه التراكمات الأسلوبية من حيث الأداء والتجريب، الذي إمتد مئات السنين. ويرى (عفيفي) أن اللوحات الفنية الخطية هي التي استخدم الرسم فيها على هيئة كتابة أو الكتابة على هيئة رسم، وبرع فيها الشيخ محمد الرفاعي، والشيخ عبدالقادر توفيق، أما اللوحات المفرغة من الداخل، التي تكتب بالخط الجلي ثم تتداخل الكتابة بالكتابة فقد بدأها محمود الشمات . وهذا ما يشير إلى أنماط التركيب الخطي نفسه واستئثاره بالرسم، وما التداخل الحروفي والكتابي إلا جزءاً من عملية تمثيل الصورة الإيقونية ورسمها على هيأة حروفية.

المبحث الثالث: الإضافة الجمالية في التكوينات الحرة

إن ما توصل إليه الخطاط على صعيد البنى الخطية وتنوعاتها من حيث الكم، الذي يشتمل عدد الخطوط المكتشفة أو من حيث الكيفيات التي تتصيّر بها النصوص، لم يكن نهاية التفكير بأساليب جديدة ترفد منجزه الخطي، فكان دائم البحث عن الجديد والمغاير، وإذا ما تفحصنا التجربة الخطية بدءاً من تشكلها في بغداد العباسية الأولى أو وثوبها الأهم في استانبول أو من مناطق الخلق الجديدة في المغرب والاسكندرية ومدرسة بغداد الحالية نجد أن تطوراً هائلاً تحقق ضمن هذا المسار، فمن اللوحة التقليدية المكتوبة على هيأة سطرية ومحاطة بشريط زخرفي إلى النزوع الحقيقي نحو التشكيل في التراكيب والتكوينات مختلفة الاتجاهات والأغراض، وصولاً إلى التكوينات الحرة، التي حاولت الخلاص من سلطة التقليدية والذائقية أحياناً والتحرر من تلك الكوابح التي تعيق الخطاط من الانطلاق نحو مساحات حلم واسعة والانعتاق من كل هذه الضغوطات. فأراد أولاً التخلص من سلطة النص نفسه، حين عمد إلى استثمار حروف منفردة وتشكيلها على خلفيات ملونة تنتمي إلى منطقة الرسم أكثر من غيرها وهجران المكملات الزخرفية تماماً وكسر الأعراف الخطية بدءاً من سلطة المركز، الذي تعده اللوحة التقليدية شرطاً أساسياً من اشتراطات وجودها وحضورها الجمالي، فضلاً عن غربة لونية قائمة على التعارض اللوني المعروف (الأسود والأبيض) موظفاً منظومة لونية مغايرة ليتحول التكوين إلى لوحة تشكيلية مؤسسة على بنية حروفية خارج حدود المعنى المتصل بطبيعة النص المقروء، وقد يلجأ بعض الخطاطين إلى تشكيل بنية صورية مكونة من كلمة واحدة أختيرت بعناية طبقاً لحروفها المكونة تقف في مقدمتها الحروف الصاعدة مثل (الألف واللام) أو الحروف الملفوفة مثل (العين والجيم) وهكذا.

وهذا النمط الحداثي هو السائد الآن في مراكز تسويق الأعمال الخطية أو في المسابقات التي تجترح هذا النسق دون غيره، مما دعا الخطاطين إلى الظهور كل مرة بآلية توظيف مختلفة مثلما فعل (محمد أوزجاي) في تركيا أو (محمد أمزيل) في المغرب وتسيد التيار التشكيلي ألحروفي يتبعهم آخرون على ذات الخطى. إن مئات السنين من التجريب ضمن مدرسة تدين فصولها الأخيرة للأولى منها هو ما نتجت عنه هذه التجارب، التي تعنى بها مراكز العالم الفنية وضمان استمرار مثل هذا الفن في المستقبل البعيد، إيماناً بتجربة الألف سنة الفائتة وتصدرها مدارس الفن العالمية وتأكيد ملامح ديمومتها من خلال فحص المتحقق منها في ضوء التجربة الممتدة.

المصادر

1. آل سعيد، شاكر حسن: الصول الحضارية والحجارة للخط العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1988.
2. داود، عبدالرضا بهية: بناء قواعد لدلالات المضمون في النقوشات الخطية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الفنون الجميلة، بغداد، 1997.
3. الزيدي، جواد، بنية القاعدة في النقوشات الخطية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2008.
4. عفيفي، فوزي سالم: نشأة وتطور الكتابة العربية ودورها الثقافي والحضاري والاعلامي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1980.
5. الكردي، محمد طاهر: تاريخ الخط العربي وآدابه، المطبعة الحجارية الحديثة بالسكتبي، ط1، 1939.
6. الكاتب، محمد : الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م.

الهوامش:

* لكل من الشكل والعجام جملة معانٍ تأتي في الشعر بمعنى الضبط والتقييد والضرب والمثل، وتأتي العجام بمعنى النقط أو البيان والخيار. الكردي، محمد طاهر: تاريخ الخط العربي وآدابه، المطبعة الحجارية الحديثة بالسكتبي، ط1، 1939، ص73.

1. الكردي، محمد طاهر، المصدر السابق، ص87.
2. داود، عبدالرضا بهية: بناء قواعد لدلالات المضمون في النقوشات الخطية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الفنون الجميلة، بغداد، 1997، ص66.
3. الكاتب، محمد : الشكل والخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991م، ص111.
4. للمزيد ينظر: الزيدي، جواد، بنية القاعدة في النقوشات الخطية، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 2008، ص25.
5. يعكس لنا المتن الموضوعي مدى تأسس الجزاء تأسيساً مع اقترانه مقترناً، أما من حيث القاعدة والحركة فهو يعبر لنا عن دورة كاملة تبدأ من الحركة لتنتهي بالسكون على طول المحور العمودي لمركز المتن. آل سعيد، شاكر حسن: الصول الحضارية والحجارة للخط العربي، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط1، 1988، ص44.
6. عفيفي، فوزي سالم: نشأة وتطور الكتابة العربية ودورها الثقافي والحضاري والاعلامي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط1، 1980، ص368.

فئران الاختبار للكاتب ماجد الخطيب
دعوة لإنعتاق الروح في مسرحية من الخيال العلمي حول الإرهاب

عبــد الــوهــاب عبــد الــرحمن

النص المسرحي الذي كتبه ماجد الخطيب يعرض علينا رؤية متأثرة بفكرة الخطيئة أكثر من فكرة الخلاص. إذ يخضع الإنسان في المسرحية إلى مواقف تفرضها عليه قوى غامضة تستلبه كامل حقوقه الطبيعية عدا عن حقه في أن يكون غير نفسه. فهو محاصر بين تأثير ثابت ومغلق من جهة، وتأثير عقلي يدعو إلى حراك رؤيوي يتفاعل مع متغيرات الحياة بكل حقائقها ومتغيراتها، من جهة أخرى. ومن الواضح أن النص، من خلال التأثير الثاني، يستفز مستوعبات جديدة للوعي تدعو لتمييز الحق عن الباطل ولفهم يصل العقل بالإيمان.

إختار ماجد الخطيب، عبر استلهامه لموضوعات تنوعت مراجعها، أن يعالج محور الاغتراب الروحي الذي يدفع بإتجاه تدمير الذات والآخرين تحت ذرائع عقائدية. وإختار لرؤية هذه الموضوعة الشائكة زاوية علمية تبحث في أسباب هذه الظاهرة وتتقصى دوافع الفناء تحقيقا لغايات عقدية تحتاج إلى مراجعة دقيقة وإعادة قراءة عصرية. ويدعو في نصه إلى تأمل موضوعي لما وقع فيه البعض من التباس في فهم المقاصد والأحكام الدينية التي غالبا ما تضلل من يجد في نفسه قبولا لفهمها، على غير دلالاتها، كما أورد نصوصا من القرآن الكريم منطلقا من حس يؤشر لنقاط خلافية تمنح الموقف قيمة فكرية درامية تندرج في بنية السياق اللغوي. وهو ما يضعنا أمام إشكالية ظاهرة في تقييم اللغة النصية ، بالنظر لشدة حساسية الطروحات، التي مهما بلغت مقاربتها الأدبية–الدرامية، تبقى غير كافية لحسم تقييمها إلا في فضاء الرؤية المجسدة. وهذه واحدة من أبرز الصعوبات التي تواجه النصوص ذات المضامين الفكرية أثناء المعالجة الإخراجية.

المسرحية بطبيعتها النوعية لغة إدائية تعتمد آنية التقديم (الآن وهنا)، واستطيع أن أزعم أن هذا النص جمع بحرفية عالية بين

شفافية الإسلوب وكثافة المعنى، واشتمل على شحنات من التوتر تضع الاخراج والتمثيل أمام تحد يصعب تداركه، سيما وأنه يفترض قارئا نوعيا ينفذ في عمق الأحداث.

نحن أزاء مسرحية تتعرض للإرهاب من زاوية نظر علمية، تستخدم" الفلاشباك" لإعادة سرد تفاصيل الأحداث، وتوظف الخيال العلمي لتحقيق غرضها. فنحن أزاء مؤسسة (يمثلها الميكرفون) تجرب عقارا ضد الإرهاب على 3 إرهابيين على يد البروفيسور ومساعدته. وهدف التجربة هو معرفة مدى إمكانية العقار"باسيفين" على تخليص البشر، وخصوصا الإرهابيين، من العنف. ولم يجد الكاتب بأسا في الاستفادة من تقنيات السينما ليعالج مشهدا مزودجا باسلوب المونتاج المتوازي، على صعوبة تحقيقه مسرحيا، يجمع بين حفلة يقيمها البروفيسور مع ممرضته إكراما لـ"حسن (الإرهابي الثالث) بمناسبة تجاوبه مع العقار ونجاحه في اختبار تغيير الشخصية، وبين الإرهابيين الأول والثاني وهما في موقع المختبر، يمارسان طقوسا عقائدية. ولم يفت الكاتب أن يبعث نوعا من الشك والريبة في نواياهما وهما يتدارسان تفسير وتأويل بعض النصوص.

وفي تناوله للموقف من"الجهاد"، بالاستناد إلى النصوص، لم يبت الكاتب شرعا في منع جواز وجه دون آخر لمعرفته بالآثار الخلافية الحادة التي يصعب الاتفاق معها أو حولها، وكنت أتمنى عليه أن لا يكون نصه "خطاب تضمين أكثر منه خطاب مضمون"، لكنني أزعم، رغم كل شيء، بأنه نجح في توجيه حوار حساس بما يخدم غرضه الدرامي والسردي معا. وأرى أن الكاتب، بكل ما أوتي من قوة على حشد هذا الكم من الحركة المتوترة، التي تشبه أفلام الأكشن، أخفق في تغطية المضمون الذهني الذي يصعب التأمل فيه في وسط من فوضى الصدام العنيف.

بدا لنا عرض البروفيسور لمعلوماته في كشوف نيوتن وقانون الجاذبية والباحث "ستيل" في نظرية حركة الدماغ، إضافة إلى مشاهد التحقيق أو المقابلات – باستدراك البروفيسور– الذي يستجوب الأول، وما تخلل ذلك من تدخلات الميكرفون، أشبه بتقرير معلوماتي إخباري تشي بشخصية الثاني العصابية التي تبرر لنفسها فعل التدمير. ولمسة الذكاء هنا عند الكاتب، أن البروفيسور تعامل مع الأول بأسلوب اخضاع نموذج لجهاز قياس العدوانية، ومدى صلاحيته لإجراء التجربة المختبرية، في حين استخدم مع الثاني والثالث حوارا أعمق وأكثر درامية، فكان الحوار خفيفا وطريا مع الثاني ومريرا وحادا مع الثالث.

ويظهر النص ماجد الخطيب ككاتب على جانب كبير من الثقافة التي أثقلت حواره بمحمولات علمية (وكدت أقول حمولات علمية) أبطأت حركة الايقاع الذي افتتح فيه أبواب مختبره ليضعنا أمام شخوصه الموتورين، وأخضعنا قسرا للميكرفون كسلطة عليا تشرف بالكامل على مختبر مجهز بأحدث التكنولوجيا، وبروفيسور يجري بحوثا بيولوجية يحاول بها تغيير المركب العضوي – النفسي لشخوص هم جلادو وضحايا طروحات ودعوات مضللة تلبس الحق بالباطل، يعلم أصحابها الحقيقة ويتكتمون. والشخصيات بهذا المفهوم تتنازعها قوى الروح والمادة عبر جدل حاد لا (حق) فيه لمجتهد ولا لمصيب. ويقدم

النص"ثيمة" مركبة تجمع بين العلم وقواه التدميرية وبين فطرة الإنسان المسالمة والحيلولة دون دمج العلم بفطرة الإنسان تحقيقا لغايات مشبوهة، وهذه مواجهة لا اعتبرها عابرة في عصر يغلي بصراعات ومتغيرات صادمة توجه البشرية والعلم معا نحو مجهول مروع. هذا إذا ما علمنا أن الدول العظمى تسيطر على قوى نووية هائلة كفيلة بتدمير الكرة الأرضية لعشر مرات، ومن دوائر الرعب هذه احتج البعض دفاعا عن وجوده مندفعا في تطرف لا يقل عدوانية في مواجهة قوى التدمير الشامل الرهيبة، اختار التموضع داخل منظمة الرعب هذه، وتمترس وراء أفكار مزدوجة أدت إلى إصابته بإنفصام الشخصية.

التقط الكاتب هذه "الثيمة –الاكزوتيك" ليدلي بشهادته على هذا العصر، وعلى تعبير بيتر بروك (المسرح يعيش الحاضر)، وهذا يعني أنه وظف ثقافة استلهمت العلم لوصف عوالمه القلقة وشخوصه السيكوباثية على خلفية ما جري ويجري ميدانيا كل يوم من فواجع ومآس طالت كل العالم تقريبا. وبذات الثقافة هيأ مختبره العلمي وكأني به يستلهم– مثلا– العالم النفسي جوزيف برويز، صاحب الإسلوب التطهيري في علاج الأمراض النفسية(قبل ظهور العالم فرويد) الذي أهتم بعلاج الحالات العصابية، التي تعاني منها شخصيات تشبه "فئران" ماجد الخطيب، والتي تتولد نتيجة لدوافع صراعية عنيفة بين الغريزة والقيم.

والمدهش أن ماجد الخطيب أعرض عن مثل هذا النوع من العلاج النفسي إلى علاج عضوي، وأظنه مصيباً في هذا لما أصاب عالم اليوم من تطورات علاجية مادية مذهلة، وهو ما دفعه، كما أخبرني، لتغيير عنوان مسرحيته من"بلاسيبو"، بمعنى العلاج الكاذب أو العلاج بالإيهام لشخوص تعاني من خلل عقدي برروا به استحام عدوانية ظالمة لا تدخلهم مدخل الصدق ولا تخرجهم مخرجاً، إلى" فئران الاختبار". فهو يعالج شخصيات مغرقة في حالة من التماهي مع غيبيات يتعذر التصدي لها لوعورة مسالكها كـ " الروح فيه من أمر ربي" و"ما أوتيتم من العلم إلا قليلا". واختار الكاتب لنصه عنوان" فئران الاختبار"، وهم مجموعة من البشر احتجزت في مختبر بقصد إجراء تجارب سريرية يصفها البروفيسور بتجربة علاج بعقار"باسيفين"، وهو بروتين مستمد من دماغ الإنسان، أدخلت عليه تعديلات وراثية في محاول علمية لتنظيم حركة الدماغ، و بما يكبح فرز الهرمونات المسببة للتوتر. ويرد في الحوار ما يؤكد أمانة الكاتب وجهده في تحري الصدق في عرض المعلومات رغم عبئها على حركة الزمن الدرامي البالغ الحساسية، واحتدام المواقف وتدفقها صراعيا، ولكن الظاهر أن الكاتب لم يجد مناصا من ذكر المصطلحات وأسماء العلماء ونظرياتهم. مثال ذلك شرح نظرية عالم أمريكي طور طريقة "للعلاج الشوكي الدماغي"، وهي معلومات ضرورية، وأجدها ممتعة، لكنني أنبه إلى أن للحوار الدرامي اشتراطاته الفنية، وان ما يتخلله من معلومات قد يفسد عليه توتره التصاعدي وتنحدر به إلى"السردية" لتجرده بالتالي من صفة الدراما.

ولبريشت إجتهاده اللافت في معالجة هذا النوع من الموضوعات، وقد نقبل هذه السردية منه إذا ما علمنا أنه أطلق على مسرحه اسم مسرح العلم وقال أن جمهوره هم"أبناء عصر العلم". وقد نتواطأ مع كاتبنا، ولا نأخذ عليه سرديته، وإن كنا نتمنى أنه يفعل ذلك كسرا للإيهام وتحقيقا

لمبدأ"الابعاد – التغريب" البرشتي. وأظنه، إن كان يقصد ذلك، كان موفقا في اختيار الاسلوب الملحمي، ولكن هل كان موفقا في توظيفه؟ فالاسلوب الاستعاري، أو التعليقي، له مقصده وتأثيره إذا ما جاء في محله. وحتى بريشت، رغم ملحمية الإسلوب، لم يستطع تدارك أهمية الانفعال، لأنه لم يكن في مسرحه "راويا" لما حدث وإنما مشخصا" له ومجسدا له. ولا شيء جعله يعترض تدفق الأحداث وتواترها ، تعليقا عليها، إلا ليكسر التماهي ويغرب الحدث بغية استفزاز المتلقي عقليا ونقديا لا عاطفيا.

نحن لا ننكر هذا الملمح البريشتي على كاتبنا الخطيب، وإلا ما الذي يمكن أن يقوله عالم (البروفيسور) يعمل في مختبر عالي التقنية انتدب لمثل تلك المهمة المعقدة؟. الكاتب أذن لم يخرج عن السياق وتوفير المتعة الذهنية، وأن أخطأ أحيانا التوقيت، وخلاصه هدفه ، أو لنقل هدف البروفيسور، هو" تحرير الإنسان من العدوانية". وتحقيقا لهذا الهدف السامي أخضع ثلاثة أرهابيين، ممن يقضون فترة تحقيق في معسكر الاعتقال بتهمة ارتكاب جرائم قتل جماعية ومجازر رهيبة وتفجيرات، إلى تجاربه، مؤكدا على أن ينقل إلى المختبر"أكثر الإرهابيين عدوانية" وهذا ما حدث.

اللافت للانتباه، وبلمسة بارعة من الكاتب، أنه جعل أحد المحتجزين(الثالث) يصرخ وهو ينظر إلى المرآة، ويخبط عليها بقوة، وبتكرار هذا الفعل لأكثر من مرة، أكسبه دلالة مهمة، إذ تحولت المرآة إلى كاشف يعرض إزدواجية شخصية الثالث وانفصاميته كلما طالع وجهه في المرآة. فتظهر شخصية هذا الإرهابي (الثالث) وكأنها تنطوي على رؤية داخلية لأبشع أنواع الاستلاب الإنساني التي تمارسه قوى مجهولة، مما يستفزها لتحطيم ما يميز الحقيقة عن الزيف.

ويحدث أن ينجح الإرهابيان الأول والثاني في خطف المرضة واحتجازها كرهينة والمساومة عليها من أجل إطلاق سراحهم و "وقف التجارب المختبرية فورا"، ولا يلتفتان إلى تطمينات البروفيسور بأن" التجربة أنتهت وستعودون إلى المعتقل مع باقي أخوتكم"، ولا إلى رجائه بضرورة نبذ العنف والتفاهم. ويأتي الرد سريعا وحاسما منهما "الحرية أو الشهادة"، هذا ما يحدث في إفتتاحية المسرحية، وهو ما يحسب على براعة الكاتب بمشهده الاستهلالي هذه، قبل أن ينقلنا إلى البروفيسور، في مشهد استرجاعي، وهو يعرض لنا تجربته عبر المونولوج الطويل الذي سبقت الاشارة إليه.

وتجري بنا الأحداث تباعا، وتتقدم التجارب على "الفئران" معها، لتصل بنا إلى انعطافة مباغتة، تفيد بأن ما جرى كان تلفيقا مقصودا، فالإرهابي الأول بقي محتفظا بتشدده، والثاني كان ممثلا بارعا أوهم البروفيسور، والقاريء معا، باستجابته للعلاج بعقار" باسيفين"، في حين كان الشك يساور التحول الايجابي في شخصية الثالث (حسن). فالأخير لم يكن يتلقى إي عقار (باسيفين)، وهو"الفأر" الذي راهن عليه البروفيسور بقوة، بل كان يتلقى ماءا مقطرا (بلاسيبو) دون علم البروفيسور. والأدهى من ذلك هو أن المرضة كانت متواطئة وتعمل تحت إمرة "سلطة الميكرفون"، وكانت تنفذ علاج البلاسيبو مع حسن، دون علم البروفيسور.

ويثار السؤال: هل تحسن حسن لأنه كان بداخله يرفض الإرهاب ويتمنى الخلاص من عبئه؟ أم أنه ضحية تدبير سري للـ"ميكرفون–السلطة"، بتعاون المرضة،

بالضد من البروفيسور، أم هو تحول إرادي حتمته يقظة وعي، خصوصا إذا علمنا بأن حسن انضم إلى الإرهابيين بدافع انتقامي، وكانت شقيقته يسارية التوجه قتلت في التعذيب على أيدي رجال الأمن؟ أم هو "انقلاب" بايولوجي و تأثير نفسي ناجم عن علاج باسيفين الكاذب؟ النص لم يشر إلى أي من الاحتمالات بوضوح وحسم وكأنه يوحي بمختلف الاحتمالات، ليترك في النهاية حرية الاختيار للقارئ. ومهما يكن فالغموض يطرح أحيانا قيمة معرفية محفزة للمتلقي كشريك فاعل في الفهم والتأويل وقراءة التوقعات، على أكثر من مستوى، مما يولد نوعا من التماهي بين شخوص العرض والمتلقي.

ويبقى الفرق قائما بين تغير علمي قسري وآخر إرادي يصدر عن يقين من الشخص ذاته، وأوحى لنا النص، عبر هذا الإشكال، بأننا كلنا "مدينون ومدانون" وبحاجة إلى نوع من العلاج، بمعنى أنه يضاعف إحساس المريض بالشعور بالإثم كما يضاعف رغبته في التطهر والتسامي. وهذا يذكرني بموقف مماثل ورد في مسرحية" العادلون"، للكاتب البير كامو، يتناص مع موقف حسن الذي يفشل في اتمام مهمته الانتحارية، التي دفعه إليها الأول والثاني بدعوى أنها عملية جهادية بدلالة ما جاءت به النصوص، ثم تعطل كامل إرادته وحواسه أثناء التنفيذ حينما يشاهد أطفالا يلعبون في المكان المقرر لتنفيذ العملية الانتحارية.

في نص"العادلون" يفشل"كاليف" أيضا في مهمته الانتحارية لاغتيال قيصر روسيا رغم قناعته بأن ما يفعله حل ثوري يقتضي القتل لتحقيق غاية نبيلة. و" كاليف" يشبه في بعض الأوجه شخصية حسن، فكاليف شاعر وكان لا بد أن تنتصر إنسانيته كشاعر على ثوريته كمناضل. ولذلك نراه يفشل قي إلقاء القنبلة على عربة قيصر روسيا، الذي شاءت الصدف أن يصطحب مع أطفاله في ذات العربة. ويلتقي هنا حسن مع كاليف في مفهوم اخلاقي يصعب معه الاقتناع بأن معيار نجاح المهمة" الجهادية" هو تحقيق غايتها وأن راح ضحيتها أطفال!

ولو عرفنا عن شخصية حسن أنه طالب جامعي سابق، من عائلة سياسية معروفة، وله أخت يسارية لقت حتفها في التعذيب، لعرفنا سبب رفضه إتمام العملية الانتحارية. وهذا النوع من الصراع اليوم ملمح أساس من ملامح عصرنا المضطرب، وأرى أن أهم ما أشر عليه هذا النص هو تحطيم الجدار الرابع، ليس بالمعنى الملحمي التقليدي، وإنما بمعنى إشتباك العرض بالمتلقي داخل ميدان صراع واحد، إذا ما تأكد لنا بأن الإرهاب ظاهرة كلية لا يقتصر نشاطها على مكان دون آخر، وأنها أخطر الظواهر التي انقسم العالم حولها، مما يتعذر حقا تقييمها عقائديا.

وإذا كان التقليد يقضي باحترام ما قدمه السلف فالإنصاف يدعونا للتأمل الجاد المسؤول في منجز الخلف، الذي ينحو باتجاه تجاوز الدارج والمألوف، وله في ذلك فضل المحاولة والتجربة، سواء أخطأ أم أصاب، ويحق لنا الاحتفاء بموهبة كاتب مثل ماجد الخطيب، في نص يدعونا إلى انعتاق الروح.

2010/6/13

تقرير عن المربد الثامن

قـــــــاســـــم العـــــــــزاوي

منذ إقامة أول مهرجان للمربد عام 1971 وحتى انهيار النظام الدكتاتوري عام 2003، كانت المهرجانات المربدية تأخذ طابعاً سياسياً وتعبوياً يروج لصالح الحزب الشمولي الحاكم آنذاك.

وفي سنواته الأخيرة، برز للعيان، وان المربديين راحوا يمجدون ويألهون (القائد الضرورة..!) لكن بعد (2003) أتخذ المربد الطابع الأدبي الصرف بما يخدم المشهد الشعري والنقدي والثقافي بصورة عامة.. صحيح أن المرابد المتعاقبة بعد انهيار النظام الدكتاتوري، قد مرت بتلكؤات وإحباطات، واحدة منها غياب الكثير من الشعراء والأدباء العرب والأجانب، وذلك بسبب تدهور الحالة الأمنية في العراق، وحتى أذا ما استقر الوضع ستشهد المرابد التالية حضوراً واسعاً من الأدباء العرب والأجانب.

مهرجان هذا العام (المهرجان الثامن) تأطر بالطابع الأدبي وأتخذ شعار (الإبداع كمؤسس للثقافة وتهيئة أجواء كاملة للحرية والتغيير) وعقد المهرجان باسم الشاعر (مظفر النواب) إضافة للاحتفاء بالشاعر الكردي (شيركو بيكس) وبحضور أكثر من (300) شاعر وأديب من العراق والبلدان العربية والأجانب.

افتتح المهرجان بالنشيد الوطني العراقي وكان الافتتاح منوعاً وملوناً بالشعر والتشكيل والموسيقى والمسرح، وكذلك بمعرض للكتاب (شاركت فيه مديرية تربية البصرة لأول مرة) واوبريت غنائي جسد قصيدة الشاعر بدر شاكر السياب (غريب على الخليج)..

شمل المهرجان ست جلسات شعرية وثلاث نقدية. وفي الجلسة الثانية، في قاعة (عتبة بن غزوان) كان محورها ورقات وشهادات لأعمال الشاعر الكبير مظفر النواب، وأدار الجلسة الناقدان على الفواز وزهير الجبوري وحاضر فيها عدد من

النقـاد والكتـاب والشعـراء منهم د.سمير خليل بورقته (درامية السرد في شعر مظفر النـواب) وجـاء فيها (.. إن أغلب قصـائد النـواب تبدأ بمهاد تصويري يهيئ لأجواء القصيدة ويحدد مناخها العام، ونادراً ما يبدأ النواب قصائده بغير هذا المهاد..) كما استعرض (بحـار البحـارين) التي عدها نموذجاً لذلك بخلاف باقي قصائده الدرامية السردية..)

أما شهادة الشاعر الشعبي المعروف رياض النعماني جاء فيها: (بأن حركة محتدمة في شعر النواب.. وهي تمثيل المعادل الموضوعي في اندفاع الحياة العراقية إبان الخمسينيات..)

وقرأ الدكتور جسام محمد حسام ورقة نقدية بعنوان: (جدلية اللغة والرؤيوية في شعر مظفر النواب) مؤكداً بان الشاعر النواب علامة بارزة في حركة التجديد الشعري.

فيما قدم الشاعر كاظم غيلان شهادة بعنوان: (قراءة في منجم عجيب) قال فيها: إن مظفر النواب له الفضل في ريادة التجديد في القصيدة العامية.

أما الشاعر الشعبي الكبير عريان السيد خلف، فقد دارت شهادته وهو يستعرض أهم المحطات في حياته مع الشاعر مظفر النواب، حيث كانت قصائده مع سعدي الحديثي بمثابة علاج للسجناء السياسيين..

وقدم الدكتور محمد طالب الاسدي، ورقة نقدية من كتابه، السفينة – دراسة في شعر النواب، بعنوان (الافتراض من اللهجات المعاصرة). وعد ذلك من ابرز سمات شعر النواب، اخذ ينهل من العامية العراقية والمصرية والسورية ليوظفها بأسلوب مميز في قصائده.

وفي الختام، قدم الدكتور عبد جاسم الساعدي شهادة استذكر فيها جوانب مهمة، عاشها مع الشاعر مظفر النواب، وكيف أن الشاعر خطط للهروب من السجن عبر النفق.. وتميزت هذه الجلسة بتسليط الضوء على إبداع وحياة الشاعر مظفر النواب.

أما جلسة اليوم الثاني (صباح الجمعة) خصصت للاحتفاء بالشاعر الكردي (شيركو بيكس) تضمنت كلمة (اتحاد الأدباء الكرد) وقد ألقاها الدكتور فرج كريم، ومما جاء فيها: (أن الاحتفاء بالشاعر (شيركو بيكس) دليل على عمق الروابط بين العرب والكرد).

أما الناقد فاضل ثامر الذي قال بشهادته حول الشاعر (بيكس)،(أن ثقافتنا أصبحت تعددية) واستعرض زيارته إلى كردستان في وقت مبكر مع شعراء كرد متمردين كتبوا بيان (رواكة) ومن بين هؤلاء الشعراء، الشاعر المحتفى به (شيركوبيكس) وان هناك توافقا في الحداثة بين الحركة الشعرية في العراق وكردستان من خلال تأثر عبد اللّه كوران بالسياب ونازك الملائكة والبياتي...

وقدم القاص والروائي(جاسم عاصي) دراسة بعنوان (رمضاء الشعر، التمثيل من الصمت إلى الصائت، قصيدة الكرسي أنموذجاً) أشار فيها إلى أن الشعر الكردي كان منصباً في اهتمامه على الموروثات الشعبية وأسطرة الواقع..

أما الناقد زهير الجبوري، فقد قدم دراسة (أكد فيها أن هناك ثمة قراءات متعددة ، تثير علاقات كثيرة حول الشاعر، وان (بيكس) ينتمي إلى بنية مكانية متعددة الفضاءات وخصوصاً في تجربته الأخيرة

(الكرسي).

وفي المساء صدح الشعر على سطح سفينة السلام وهي تمخر شط العرب، وشارك في هذا الكرنفال النهري العديد من الشعراء والشاعرات منهم، ناهضه ستار، عبد الكريم كاصد، احمد عبد السادة، حياة الشمري، عبد الستار كاكي، مهدي القريشي، عادل مروان ... وآخرون.

وفي محور الرواية والشعر ساهم فيها القاصان (محمد خضير ولؤي حمزة عباس). وبعد يومين من الشعر والنقد والأحتفاءات والموسيقى والتشكيل، اختتم المهرجان الذي شارك فيه أكثر من (300) أديب ومبدع عراقي وعربي وأجنبي، بقراءات شعرية، ولوحة فنية لفرقة الزبير للتراث. وكان عريف الحفل الشاعر والإعلامي احمد المظفر يقدم هؤلاء الشعراء على قاعة المركز النفطي في البصرة.

كان افتتاح اليوم الأخير بأغنيات تراثية من البصرة، أثارت الحنين لدى البصريين وهم يستذكرون تراثهم الثر... وتضمن هذا اليوم خمس قراءات شعرية، شارك فيها:

إيمان الفحام وصلاح حسن وعريان السيد خلف وسلمان داود محمد إضافة إلى الشاعر احمد عبد الحسين.

هذا وصدر عن المربد الثامن البيان الختامي والذي تلاه الشاعر علي نوير ومما جاء فيه: أن انعقاد مهرجان شعري في هذا الزمن العراقي يمثل تحدياً كبيراً للوجدان الثقافي وتوقاً للأنشداد نحو عالم يمكن للثقافة أن تكون هي البيت الأمين، وان المربد البصري يضعنا أمام روح البصرة القديمة ومجدها العظيم وروح ما تتوق إليه من مستقبل عامر ببهجة الماء وسعة الحياة، والأيام المربدية حملت اسم الشاعر الكبير مظفر النواب بوصفه واحد من صناع الحياة العراقية .

كما احتفى بالشاعر الكردي الكبير (شيركو بيكس) من منطلق تأصيل التواصل بين الثقافات المتنوعة والمتعددة .

وشدد البيان الختامي على أن (تواصل المربديين يعكس حرصهم على ترسيخ قيم الجمال والثقافة الرصينة التي نأمل جميعاً في أن يكون كلمتها مسموعة في أي تغيير منشود).

وقرأ على هامش المهرجان أكثر من 25 شاعراً وشاعرة، ومن المعلوم أن المهرجانات السابقة في عهد البعث الدكتاتوري كانت تقام في بغداد ولكنها نقلت بعد 2003 إلى البصرة.

مقابلة مع الشاعر الدانيماركي (آيب ميكائيل)

هذا وكانت (الثقافة الجديدة) قد أجرت مقابلة مع احد الشعراء الأجانب المشاركين في المربد هذا العام وهو الشاعر الدانيماركي (آيب ميكائيل) وقد حاوره الكاتب والإعلامي عبد العزيز لازم *.

تأبط الفضول الاسكندنافي العريق وجاء من البحار العليا ليشارك أبناء الرافدين أحتفائهم بالشعر والتعرف على أحلامهم ويغترف من حقائق حياتهم.

تقول سيرة (آيب ميكائيل) انه يكتب إجمالا عن البلاد البعيدة عن أوربا والدانيمارك وكانت الحصيلة العديد من الروايات والأعمال الشعرية التي أكسبته جوائز أدبية كثيرة منها إكليل الغار الذهبي . كرّمته ملكة الدانيمارك نيشان دانبرغ وهو

أهم وسام في البلاد. ويقول عن نفسه انه كاتب عالمي لم يستقر في بلاده كثيرا وهو كاتب مستقل غير خاضع لأحد إلا للحقيقة التي يبحث عنها بدأب. شارك في أعمال مهرجان المربد بعد أن تلقى دعوة رسمية من القائمين عليه وكان شديد الاعتزاز بذلك. حاورناه في الفندق الذي يقيم فيه بضيافة اتحاد الأدباء والكتاب العراقيين فرع البصرة.

● ***هل تعتبر مشاركتكم في مهرجان المربد الشعري الثامن تعبيرا عن حركة حوار الحضارات الناشطة في بلادكم؟***

– نعم تستطيع قول ذلك فانا شاعر مستقل وشاركت باعتباري شاعر دانيماركياً يعيش أجواء حرية التعبير في بلاد صغيرة. ورغم أن لدينا ثقافة ذات مصادر مختلفة إلا أنها لاتمنع الاتصال بالثقافات الأخرى، بل تشجع على ذلك، فنحن أبناء ثقافة واحدة من حيث الجوهر ولا يوجد ما يعيق الاتصال بثقافتكم وأنا سعيد بذلك وسعيد بالمشاركة في مهرجان المربد الشعري الثامن وفي جميع أعمالكم الثقافية كلما تيسر لي ذلك. كنت في سوريا وبلاد اليمن وأنا آمل أن تتحقق حرية التعبير في هذين البلدين وسائر البلدان العربية وغيرها. فهذه الحرية تساعد على إقامة التواصل بين الثقافات الأخرى فضلا عن أن الناس في هذين البلدين وفي غيرهما يستحقون ذلك.

من ناحيتنا فان ما يمكن أن اسميه بالفضول الثقافي هو الذي يتحكم بالناس والمثقفين بخاصة، وهو طاقة تدفع باتجاه الاتصال بالثقافات الأخرى وإقامة الحوار معها من منطلق الاحترام العميق لهذه الثقافات ومصادرها ورموزها. المسألة هي أن الأسئلة هي التي تدفع الأبواب بقوة، أنها مفاتيح طرق الاتصال بالآخرين. إنها أيضا أدوات للبحث عن الحقائق ونحن نريد إقناع الآخرين بما لدينا رغم أننا نعتقد بان الآخرين يمتلكون نسبة من الحقيقة. اعتقد أن الأفكار تحتمل نسبة من الحقيقة ونحن نسعى الى جمع هذه النسب لتكوين ملامح الحقيقة الصحيحة الكبرى، علما أن معيار الصحة يكمن في المدى الذي يخدم قضايا الإنسان. لذلك فان حوار الحضارات ينبغي أن يقوم على الرغبة في البحث عن الحقيقة وعن مضمون الحقيقة الذي يخدم البشر. واعتقد أننا حققنا مساحة هيمنت فيها مطالب الحرية والحياة الكريمة، فأنت ترى كيف أن الثورة المعلوماتية قد هيأت للثورة العارمة في بلدان مثل مصر وتونس واليمن وغيرها من البلدان العربية وانتقل الفعل الثوري الى الشارع. وهذا يعني أن العالم بأسره، من خلال تكنولوجيا المعلومات، قد ساهم بحركة ثورية كبرى لصالح الحرية في هذه المجتمعات. وهذا يجسد في إحدى معانيه الكبرى أن الحضارات الإنسانية صارت تتصل فيما بينها دون عوائق ورغم محاولات القوى الانعزالية في إعاقة ذلك و تجاوزا على الشروط المعيقة التي تضعها بعض القوى التي تدعي أنها تؤيد حوار الحضارات.

● ***فيما يتعلق بالتحركات الجماهيرية الثورية في المنطقة ألا تعتقد أن الأسباب الداخلية للثورة في هذه البلدان هي الأسباب الغالبة في تأجيجها وإنجاحها؟***

– لايمكن نكران الأسباب الداخلية لأية ثورة ولايمكن إهمال حساب تأثير ما تعرضت له الناس من صنوف الضغط المادي والمعنوي من قبل قوى الاضطهاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي وتحديدا الأنظمة السياسية الديكتاتورية والمنظمات المرتبطة بها، فالناس المضطهدين هم أصحاب المصلحة في التغيير الثوري وهم

وحدهم ومعهم أصدقائهم من قوى التغيير الديمقراطي في العالم بالطبع من يعرف لماذا يكون التغيير مطلوبا. أما الفيس بوك وغيره من أشكال التعبير المعلوماتي فقد جاءت محفزا عالميا لتفعيل الأسباب الداخلية وإعانتها في أن تتحول الى فعل ثوري كالذي جرى ويجري اليوم في المنطقة. اعتقد أن هذه الخدمة المعلوماتية قد استفزت الأسباب الداخلية كي تتحول الى فعل ثوري في الشارع. ويمكن القول أنها جاءت مكملة لفعالية الأسباب الداخلية في إنضاج الثورة. ونستطيع القول أيضا، ولهذا السبب، أنها إحدى أشكال المساهمات العالمية في إعانة المظلومين في مختلف البلدان خاصة تلك التي يصبح فيها الناس المضطهدين مجردين من القوة والدعم. ولابد من القول أن هذا لايقتصر على البلدان العربية، فقد حاولت الصين مثلا منع خدمة الفيس بوك خوفا من تأثيرها على الوضع الداخلي ونجحت في ذلك كما حاولت بلدان أخرى في آسيا وسيستمر خوف الأنظمة السياسية الشمولية من الثورة المعلوماتية لكنها ستجد طريقها الى الناس عاجلا أو آجلا. فهي ثقافة عامة جديدة لا تستطيع الحكومات السيطرة عليها. وعلى قوى التغيير الثوري في العالم أن تستثمر ذلك بأفضل الوسائل الممكنة.

● ***إذن فالثقافة العالمية تمتلك رسالة التواصل بين الشعوب ، فما هي المعوقات في رأيكم التي تعيق تفعيل هذه الرسالة ؟***

– التعصب والأصولية التي انتشرت مؤخرا في بعض مناطق العالم هما ابرز المعوقات في هذا الجانب. المتعصب لا يستطيع رؤية انجازات الآخرين ولا يستطيع التعايش مع ذوي الأفكار والمواقف التي لا تتطابق مع أفكاره ومواقفه، فهو يسعى الى خلق وضع أو نظام يقوم على نفي الآخر أو تهميشه، الأمر الذي يغلق الباب أمام أي حوار بين الثقافات العالمية. وطبيعي أيضا أن وضعا كهذا سيخلق مشكلات جمة للشعوب التي تحكمها الأصولية والتعصب وستضطر هذه الشعوب الى خوض نضال صعب من اجل الحرية ومن اجل الانفتاح على العالم، وستجد مرة أخرى الأصدقاء في العالم المستعدين الى الوقوف الى جانبها.

وثمة عائق آخر يأتي من بعض الدول المتقدمة نفسها يكمن في الاختلاف الكبير في مستويات التطور بينها وبين البلدان الأقل تطورا. فبعض البلدان في الغرب لا زالت تنظر الى البلدان الفقيرة من موقع المتعالي وهي غير قادرة على رؤية الحقائق المتعلقة بإمكانيات هذه البلدان للمساهمة في إغناء الثقافة الإنسانية وتعزيز ثقافة التواصل والاحترام المتبادل بين الشعوب.

● ***ألا يشكل الإرث الحضاري التأريخي للبلدان الفقيرة كنزا ثقافيا عالميا كافيا لتحقيق التكافؤ في التعامل بين البلدان الفقيرة ونظيرتها في الغرب ؟***

– طبعا هذا مهم جدا، وتستطيع هذه البلدان الفقيرة أن تعيد تثقيف نفسها على أساس ما تمتلكه من طاقات فكرية وعقلية وعلى ضوء ما تتيحه الظروف الراهنة في العالم بالطبع. ويعلم الغرب على سبيل المثال أن الثقافة العالمية قد أخذت الكثير من حضارات بلاد ما بين النهرين، فهذه البلاد صدرت الى العالم الكتابة وعلم الفلك والقوانين والطب وان ملحمة " كَلكَامش" هي أول عمل درامي في العالم. وهناك أمثلة أخرى في أماكن أخرى من العالم قدمت مساهمات حضارية رئيسية كما هو الحال في مثال حضارتي المايا والازديك اللتان

تخصصت في دراستهما. لكن هناك مفارقة مؤلمة في حالة العراق فرغم أن الناس يمتلكون طاقة فكرية هائلة ويحتفلون بالأفكار الجديدة وبالشعر اليوم بشكل مميز من خلال ما لمسته في مهرجان المربد في البصرة وغير المربد لكننا نرى مدينة البصرة والمدن الرئيسية الأخرى غارقة في القمامة. ومما يزيد الألم في هذه المفارقة أن البصرة مثلا تمتلك احتياطا بتروليا ضخما يجعلها من أغنى مدن العالم، لكن الناس فيها لا يستطيعون أن يعيشوا في بيئة مدينية متقدمة ونظيفة.

وهذا يفسر غياب المبادرة البشرية الطبيعية في إنقاذ الحياة من المخاطر التي تهددها. اعتقد إن مستقبلا مزدهرا ينتظر العراق إذا أحسن الناس والسياسيون منهم بخاصة استخدام الإمكانيات المادية والفكرية الهائلة المتوفرة فيه لصالح تقريب موعد حلول العصر الجديد. وأظن أن العالم بأسره مهتم بذلك لأهداف شتى يمكن أن يستثمرها العراقيون لصالحهم لبناء الحياة الجديدة.

● ***أين اليسار الدانيماركي من كل هذا*** ؟

– اليسار الدانيماركي الآن في حالة تآلف مع القوى الأخرى وهم يدعمون الديمقراطية ويمتلكون المسؤولية البارزة في مجال الاقتصاد، والناس في الدانيمارك يتقبلون فكرة وجودهم في السلطة ويثقون بإمكانياتهم وإخلاصهم ولن يكون صعبا عليهم قيادة السلطة في البلاد. الآن تحدث تطورات متشعبة تتمثل في انتقال عدد من الأفراد من معسكر قوى اليسار نحو التيار الوسط والعكس صحيح أيضا، والناس تتقبل ذلك والحياة تمضي نحو مستوياتها الأفضل .

● ***ما هي وسائل إطلاعكم على المنتج الثقافي العراقي ؟ هل إن حركة الترجمة الحالية كافية لتحقيق الإطلاع الواسع*** ؟

– يوجد في الدانيمارك جالية عراقية كبيرة وهناك العديد من الناشطين في مجال الأدب والفن والشعر بخاصة لكن بالنسبة لي لم تتح فرصة كافية للإطلاع على المنتج الثقافي العراقي بسبب ندرة تواجدي في الدانيمارك لأنني أقضي معظم أوقاتي خارج البلاد، وكما قلت لك أنا الآن متفرغ لدراسة حضارة المايا والازديك وهذا يتطلب مني السفر إلى المكسيك كثيرا. مع ذلك يجب أن اذكر إن حركة ترجمة المنتج الثقافي العراقي إلى اللغة الدنمركية أو إلى اللغات الحية الأخرى لا زالت محدودة.

● ***بماذا تخاطب المثقف العراقي في ظل الظروف الحساسة التي تعيشها بلادنا***؟

– نعلم إن المثقف العراقي يعيش ظروفا استثنائية وهناك ضيق وقسوة يعاني منها المثقف في هذه البلاد لكننا نعلم أيضا إن المثقف العراقي يمتلك خطابا ناضجا للتغيير. إن الاستمرار في تفعيل خطاب التغيير النوعي هي المهمة المطروحة الآن أمام الثقافة العراقية التي تدعم حرية التعبير وحرية الكلام وحرية الإنسان العامة.

* كاتب وإعلامي ومترجم عضو الاتحاد العام للكتاب والأدباء في العراق.